



أوراق ١٩٥٤

جميل عطية إبراهيم



روايات الهلال • أوراق ١٩٥٤ : جميل عطية • العدد ٥٣٩ • الثمن ٥٠٠ قرش

أوراق ١٩٥٤

بقلم

جميل عطيه إبراهيم

●

دار الهـــــلال

العدد ٥٣٩
نوفمبر ١٩٩٣ ● جماد أول ١٤١٤ هـ
NO - 539 - NO - 1993 ..

روايات الهلال
Rewayat Al Hilal

سلسلة
شهرية
لنشر
القصص
العالمي

تصدر عن
مؤسسة دار الهـ

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة
عبد الحميد حمروش
رئيس التحرير
مصطفى نبيـ
سكرتير التحرير
محمود قاسـ

ثمن النسخة

سوريا ٢٠٠ ليرة – لبنان ....
الاردن ٣٨٠٠ فلس – الكويت ...
السعودية ٢٥ ريالاً – تونس ٧٥٠ر
المغرب ٥٠ درهما – البحرين ...ر
الدوحة ٢٠ ريالاً – دبى / أبوظبى – ٢٠
درهما – مسقط ٢٠٠ر ريال – غزه /
القدس ٣٠٠ر دولارات – لندن ٥٠ر٢ جك .

المصور – القاهرة ج . م . ع .
تلكس : TELEX 92703 hilal u n
فاكس : FAX 3625469

الغلاف للفنـان :
حـلمى التـونى

د . يونس

(١)

دلفت إلى مقهى الفيشاوى واخترت مائدة فى ركن قصى فى عمق المقهى . ليست فى يدى صحيفة أو مجلة ، وطلبت براداً من الشاى الأخضر وشيشة عجمى لأشغل نفسى بها .

ها هى ذى ساعة الخيال والكسل بعيداً عن العمل . فى هذه الساعة من النهار لن يعرفنى أحد ، فأنا وجه غير معروف على ساحات المقاهى ، وربما إذا أتيت ليلاً تعرف علىّ طالب أو أستاذ من رواد هذا المقهى الشهير . صببت الشاى، تذوقته . شاى منعش مطعم بالنعناع الأخضر . هذا الشاى له مذاق محبوب ، وفيه شفاء لأمراض البطن والقلب ، وفيه راحة البال أيضاً .

« ولسوف تتبعك هذه المدينة إلى آخر العمر . فى هذه الشوارع نفسها تتسكع ، وفى هذه الأحياء نفسها ستهرم ، وتحت هذه السقوف سيبيض شعرك ، وإلى هذه المدينة ستنتهى دائماً خطاك . الخارج منها داخل فيها ، والراحل عنها تنتهى إليها دائماً خطاه » .

هذه هى مدينة الاسكندرية ، كما عبر عنها الشاعر كفافيس اليونانى . ولسوف تتبعك القاهرة إلى آخر العمر . وفى هذه الأحياء سوف تهرم ، وتحت سقوفها سوف يبيض شعرك ، وإلى هذه المدينة ستنتهى دائماً خطاك .

عطلة اجبارية بقرار من مجلس الثورة . قرار لا استئناف فيه وغير قابل أيضاً للاستشكال على رأى القانونيين ، فقرارات مجلس الثورة من أعمال السيادة وغير قابلة للطعن بعد إلغاء الدستور .

هذه هى الشرعية الثورية التى يروج لها صغار النفوس هذه الأيام . وفصلى من الجامعة من أعمال الشرعية الثورية ، ومن حسن حظى أننى لم أطرد بتهمة أخلاقية أو مالية ، فتهمتى سياسية أو بالأصح فكرية ، والأفكار موضع خلاف بين الناس منذ الخليقة . اذا سألنى سائل ، قلت : خلاف الرأى لا يفسد للود قضية .

فى الخارج اشاعات حول خلافات بين اللواء محمد نجيب والبكباشى جمال عبد الناصر ، ومهما كان السبب وراء فصلى ، لن أتقدم بمظلمة إلى محمد نجيب أو جمال عبد الناصر .

قلبى يثقله اعتقال زميلنا الدكتور عوض ساويرس. أخاف عليه من أمراض النفس والجسد فى المعتقل. أما رفيقنا محمود أمين العالم، فهو سياسى قديم وله خبرات بالحياة داخل المعتقلات والسجون.

جئت هنا لأحبب الحياة إلى نفسى ولا أستسلم إلى كوابيس الوحدة. اخترت أشد الأحياء زحاما، وجئت راجيا الوصل. مدد يا سيدنا الحسين .

الجو غائم وبه لسعة برد منعشة تليق بشهر يناير. نصحنى معيد هندى فى قسم الدراسات الشرقية فى جامعة أكسفورد – لما رأى حنينى إلى القاهرة يزداد – بضرورة الخروج مع رفيقة يميل لها قلبى إلى أماكن متعددة، وفى أوقات تتميز بالقسوة، كالحر القائظ أو البرد القارس ، قال لى ضاحكا، اختر من الأماكن أكثرها تطرفا، ومن الأجواء أكثرها قسوة، ومارس عندها الحب، تعيد ترتيب ساعتك الحيوية. تحشد فى خزانتها ذكريات طيبة تستعين بها فى أوقات الشدة وربما على بعد أيضا.

فى مرة أخرى بان الضجر علىّ. قال: يا دكتور عبد العال : لايوجد مكان أفضل من مكان. ولا يوجد زمن أفضل من زمن. الحياة امتداد فى الزمان والمكان، ومقياسها الساعة الحيوية .

ليت رفيقى الدكتور عوض ساويرس يؤمن بهذه الحكمة الهندية ولا يفرق بين موضع وآخر، وتصبح الزنزانة لديه فى مقام قاعة المحاضرات أو غرفة المطالعة، لكن هيهات.

هل يختزن الدكتور عوض ساويرس من الذكريات المفرحة فى قلبه ما يخفف من تعاسة الحرمان من الحرية ؟

رفيقى محمود أمين العالم ، يؤمن بصراع الطبقات ، وسوف يلمس فى اعتقاله عناصر القوة والضعف فى الحركات الثورية ، ولن يؤذيه الاعتقال كثيراً .

رذاذ خفيف يتساقط، وحوافر الحمير تدق إيقاعاتها، ومئذنة الأزهر عالية شامخة من بعيد، ولا أرى فى عينى سوى شوارع مدينة أكسفورد الرطبة دوما والمبللة بالمطر .

أين أنت أيتها المدينة ؟!

قلت لأستاذى بعد تخرجى معتذرا عن عدم قبول وظيفة فى أوربا، سوف أعود إلى بلدى، لأعمل فى جامعة فؤاد إلى جوار أساتذة عظام تتلمذت على أياديهم : الدكتور طه حسن، أمين الخولى، أحمد أمين، مصطفى عبد الرازق. ومتع العالم كله لا تعادل وجودى إلى جوار هؤلاء العظام.

قال ناصحا : مصر تشهد قلاقل والحياة فيها ليست مستقرة.

قلت فى حسم: مصر تشهد نهضة فى الميادين كافة، وتطالب بحريتها لتتخذ مكانتها بين الأمم.

حسمت أمرى ورفضت الوظيفة وعدت .

دار عم إبراهيم بائع الكتب الضرير، وصديقى طوال سنوات التحصيل فى أوائل الأربعينيات. هذا رجل معجزة، وإذا ألقيت على مسامعه كلمة واحدة، تذكرنى بعد هذا العمر الطويل. يبيع الكتب ويعرف قيمتها، وقد جمع فى ذاكرته عناوين مراجع التاريخ الإسلامى والأدب العربى من أفواه الجالسين على المقاهى من طلاب المعاهد الأزهرية القريبة .

فارقنى ترددى. قلت: أهلا عم إبراهيم.

تريث الرجل الضرير قليلا قبل أن ينطق، بانت الدهشة على وجهه. قال: مَن ؟ الدكتور يونس عبد العال ! .

مد يده السمينة. مال بجسده كله على. احتضنته. قال :

– غبْت عنا سنوات عديدة. لماذا القطيعة يا دكتور ؟!.

قلت : كانت مشاغل.

قال عاتبا : الأحبة لهم نصيب. قلت: الأحبة فى القلب.

أقعى على الأرض كعادته فى الزمن القديم. همس فى صوت خفيض :

– عندى فى المخزن مجموعة مخطوطات. بعت من أجلها بيتا فى الحسين. دفعت فيها ألف جنيه. وها أنا أجمعها بالجنيهات والقروش.

هذه أول مرة أسمع من هذا الرجل أنه يتاجر فى المخطوطات. هل يدرك معنى الكلمة؟ الحوار مع فاقدى نعمة البصر فيه مشقة. العيون نوافذ تطل منها النفوس على بعضها البعض، وإذا أغلقت لم يتيسر التواصل إلا عبر معانى الكلمات وطريقة تلوينها . قلت:

– هات ما عندك، إرم بسهامك واحدا بعد الآخر يا رجل.

ضحك، اهتز جسده فى نصف دائرة. قال :

– كما أنت يادكتور، أين هذه اللغة من لغة زبائن هذه الأيام؟

عبث فى سترته، أخرج ورقة مطوية. ناولها لى. هه. لا بأس. هذه ليست مخطوطات بالمعنى المتعارف عليه. لكنها دراسات ومذكرات لأناس معاصرين.

هذه أوراق مسروقة والرجل يبالغ فى قيمتها المادية. قلت آسفا :

– خدعت يا عم إبراهيم هذه المرة.

قال ضاحكا . وفى صراحة.

– أنا لم أبع البيت، لكننى رهنته فقط.

ضحكت. قلت :

– والشراء والبيع.

نطق الرجل بكلمة صدق، قال :

– ثلاثون جنيها ولى فيها خمسة جنيهات. عرقى.

ترددت. قلت:

– دعنى أفكر. مُر علىّ قبل التصرف فيها . أنا فى انتظارك.

مضى الرجل راضيا بقسمته زحفا على الأرض.

ها هى أبواب الهروب من الواقع تسد، فتعيدنى إلى همومى. يعتقل الدكتور عوض ساويرس بواسطة الأجهزة البوليسية فيبيع المخبرون أوراقه بأبخس الأثمان. يتم التحفظ على أميرين سابقين ، فتتسرب مذكراتهما إلى الأسواق.

لم أندم على تروّى أما هذه فأوراق تخص البوليس، تداولها تهمة، والتفريط فيها خيانة أدبية، وعلىّ أن أحتفظ بمسودات كتاب رفيقى الدكتور عوض ساويرس حول «لغة الشعر الحديث» و «فى رحاب المعرى»، مهما خالفته الرأى. هذا واجب أخلاقى، لا أكثر ولا أقل .

قلت لنفسى: لسوف تتبعك هذه المدينة إلى آخر العمر، وفى هذه الشوارع نفسها تتسكع، والخارج منها داخل فيها ولا مجال للهروب، فروحى معلقة بدروبها وفصلت من الجامعة ورفضت السفر للعمل بالخارج. قلت لها: لن أسافر مهما جرى. قالت لى : حسنا تفعل. وكان ذلك قبل فصلى من الجامعة.

رأيتها مرتين، وتعلق قلبى بها، وجاء فصلى من الجامعة ليحبط مشاعرى،، ويدفعنى إلى الانطواء، لا أود أن يقال عنى : فصل الدكتور يونس عبد العال من الجامعة فأسرع بالزواج.

لم يكن عملى بالجامعة أو انشغالى بالتأليف هو سبب عزوفى عن الزواج حتى هذه اللحظة، كما يظن أهلى وأقاربى، لكنها خبرة السنين والأيام ، هى التى منعتنى من الاندفاع بعد عدة تجارب فاشلة فى الحب.

رأيتها. تحدثت إليها حديثا طويلا، مال قلبى لها. وأعتقد أنها أيضا فى المرة الثانية قد عبرت عن فرحتها بلقائى، قالت لى ضاحكة : وحشتنى يادكتور يونس.

عاد عم إبراهيم . قال :

- هذه هى الكتب.

أكمل مضيفا :

- خذها يادكتور. هذه الكتب خسارة.

كان يلفها فى أوراق جرائد، ويضعها فى كيس من القماش. مددت يدى إلى سترتى، وأخرجت محفظتى، وناولته نقوده، وقد زدت عليها جنيها .

قلت :

- جنيه إكرامية ياعم إبراهيم.

ظهر الفرح على وجه الرجل. قبل النقود. وضعها فى جيبه، طلبت منه أن يعدها . ضحك.

ابتعد عنى.

سلمنى المسودات، وهرب، فتناولتها بكيسها ووضعتها إلى جوارى على الكرسى.

قلت لنفسى: هذا هو أول عمل سرى ضد البوليس أقوم به فى حياتى . لم أحس بخوف أو قلق ، كدت أضحك من نفسى ، فحبيبتى من رواد العمل السرى ، ولها باع طويل فى هذا المجال ، وتروى عنه قصصاً مثيرة.

واجبى الآن الحفاظ على مسودات كتاب صديقى الدكتور عوض ساويرس فى مكان أمين، حتى أسلمها له بعد زوال هذه الغمة.

قالت لى زوجة الدكتور شلبى القصاص أن الفتاة قلبها مال إلىّ وهى على استعداد لخطبتها لى. وضحكنا. اتهمنى الدكتور شلبى القصاص بالتردد، وطلب من زوجته أن تكف عن هذا الحديث. قال لها:

- الدكتور يونس عبد العال، بحوره عميقة.

ثم أضاف قائلا :

- أنا أعرفه منذ كان تلميذا لى فى كلية الآداب .

وبعد مغادرة زوجته لنا، قال لى ناصحا :

– تقدم يا أخى لها. هى فتاة ممتازة. ولا يعيبها إلا الانشغال بالسياسة فى ظل ظروف شديدة القسوة.

استمعت إليه، ولم أعلق، لا أود مناقشة مايشغلنى علانية. هذا حلمى الخاص ولا أسعى لبعثرته، وليست لدى النية لتفسير عناصره أو مكوناته. ويكفينى أنه فى ساعات قلقى ووحدتى يمدنى بالقوة.

اسمها لا أدعه يتردد على لسانى، أحتفظ به فى أعماق أعماقى ولا أفرط فيه أو أبتذله بالتكرار.

يعجبنى فى الدكتور شلبى القصاص لماحيته وعمق خبرته الحياتية . أدرك من أول لحظة أن هذا الأمر سرى الخاص، فلم يسمح لنفسه باستباحته أو الكشف عنه، وذلك على العكس من زوجته التى تسألنى كلما رأتنى أو تصادف وردت على التليفون بدلا من زوجها، قائلة :

– هه. ما أخبار الدكتورة أودين يادكتور يونس؟

ها هى أسرارى تكثر وتزيد، فإلى جانب مسودات كتاب صديقى المعتقل علىّ إخفاء مشاعرى حتى لاتفضحنى عيناى، وربما إخفاء مسودات الكتابين أسهل علىّ من كبت مشاعرى نحوها.

دكتور فى الأدب العربى مفصول من الجامعة، هذه هى مؤهلاتى التى يتعين علىّ أن أتقدم بها، وربما يخفف من وطأة الفصل أننى فى يسر مالى وأمتلك سبعين فدانا زرعها والدى بالخضراوات والفاكهة وأمورها تسير سيرا حسنا بالإضافة إلى عمارة على النيل.

مواردى المالية لا بأس بها، وربما تزيد عن موارد معظم أعضاء مجلس

قيادة الثورة، ولكنها تقل كثيرا عن مواردها من العيادة وأملاك والدها الدكتور السيد أحمد باشا السيد.

مع سحابات الدخان التى أسحبها من الشيشة ولا أبلعها، ولا أحتفظ بها فى فمى، بل أنفثها سريعا، قلت لنفسى : هذه قصة حب، وليست عقد تأسيس شركة مساهمة.

هل يدفعنى الفراغ إلى التعلق بها؟

قلت لنفسى : ربما.

وأقنعت نفسى بالصبر، وإذا أعوزتنى الحيل فى الاتصال بها، لجأت إلى صديقى الدكتور شلبى القصاص، وزوجته لن تعوزها حيلة، فهى قريبة لها.

أصداء الآذان تتردد فى حى الحسين. وأحسست بدعوة إلى صلاة الظهر، وقلت لنفسى، ولسوف تتبعك هذه الأحياء إلى آخر العمر. الخارج منها داخل فيها، والراحل عنها تنتهى إليها دائما خطاه.

وقمت متوجها إلى أداء صلاة الظهر. قلت لنفسى: مدد ياسيدنا الحسين.

الحقيبة القماش فى يدى، ولا يقلقنى حملها، وسوف أتركها عند معارف لى مطمئنا حتى أفرغ من صلاتى، أما ما يشغلنى فسوف يظل فى القلب.

كرامة

(٢)

وقفت فى فناء الجامعة قلقا أنتظر اليوزباشى شهدى الشنشتاوى، أرسل لى ورقة أمس فى المدينة الجامعية بضرورة انتظاره. يأتى فى ملابس مدنية كطالب من طلبة الدراسات العليا. يمنعنى من مخاطبته باسمه ولقبه مدعيا أنه صحفى. تصرفات هذا الرجل تضايقنى. أسقطت اسمه ووظيفته من ذاكرتى نهائيا. أقول له «أنت» أمام الطلبة، لكننى فى قرارة نفسى لا أنسى أنه حضرة اليوزباشى شهدى الشنشتاوى صاحب السلطة والضبط والربط.

قبة الجامعة جميلة. تتدفق تحتها أنهار العلم. كل دقة من دقات الساعة تدفعنى إلى الأمام، ومصيبتى تكمن فى ارتباطى بعزبة عويس. كل ذرة فى جسدى تشدنى إلى هناك. حيث الفقر والعذابات.

يضايقنى غياب الأستاذ ستيف الانجليزى الذى تابعت دروسه فى جمعية اخوان الحرية وتعلمت على يديه قراءة الشعر الانجليزى قبل التحاقى بالجامعة، وها أنا عندما أفلح فى الالتحاق بقسم اللغة الإنجليزية أجده قد غادر مصر نهائيا. فقدت مرشدى الروحى. أصبح علىّ أن أشق طريقى إلى المستقبل. بمفردى فى حربى مع طواحين الهواء والخيالات.

كانت دهشتى عظيمة فى البداية عندما قيل لى إن الأستاذ ستيف متهم بتدبير حريق القاهرة، وقد طردته حكومة على ماهر باشا من مصر دون ضجة فى العهد الملكى.

قيل لى : كانت مؤامرة من الملك والانجليز للتخلص من حكومة النحاس باشا.

اتهامات كاذبة وغبية. حرق والدى سرحان السقا نصف محلات شارع الهرم وليست له علاقة بالانجليز أو الملك، بل انتقاما من اللواء عويس ياوران الملك.

حطمت أنا واجهات محلات. أشعلت النار فى كازينوهات من جراء الحقد حتى زجرنى عباس أبو حميدة ومنعنى من هذا العبث، ولم تكن لى علاقة بالملك، ولم يطلب منى الأستاذ ستيف اشعال حرائق.

زجرنى عباس أبو حميدة ووبخنى صفعنى على وجهى من شدة غضبه، ودعانى إلى إطفاء الحرائق، فعملت معه، أبى لم يجد من يمنعه، تمادى فى غيه ورأى فى وهج النيران بغيته، وصورت له محدودية عقله أنه ينتقم بفعلته من آل عويس. مات المسكين فى السجن. لم يجد من ينقذه، حتى الأستاذ سلامة المحامى تخلى عن الدفاع عنه بعد حركة الجيش.

كانت أياما سوداء. الغضب المكتوم فى الصدور دفع الناس لأعمال سلب ونهب. لكن البلهاء يصدقون أن الانجليز والملك وراء الحريق. الذين حرقوا القاهرة رأيتهم بعينى أنا كرامة سرحان السقا، وأعرفهم واحدا واحدا. بعضهم من عزبة عويس، وبعضهم من البدرشين. رجالاً ونساء وصبية ومعظمهم من عمال التراحيل العاطلين.

سألت اليوزباشى شهدى الشنشتاوى عن زهية وغيابها المفاجىء عن عزبة عويس قبل حركة الجيش بشهور. قلت. فتاة يتيمة من عزبة عويس يهمنى أمرها.

بعد عدة أيام أفادنى بأنها موجودة وبخير فى قصر السيد أحمد باشا السيد بالمعادى.

راقبت القصر من بعيد. لم أعثر لها على «جرة» . كنت على يقين أننى إذا درت حول القصر سمعت غناءها. لكن القصر كان هادئا.

قلت. لم أجدها فى القصر. سخر منى قال : روميو حضرتك، وقفت تحت الشباك تغنى لها.

نصحنى إذا كنت جادا فى رغبتى، أن أختلق قصة وهمية وأقتحم القصر، ادعى أننى كشاف نور. عامل قمامة. عامل فى مصلحة التليفونات. صحفى.. لمس ترددى. سبنى قال : خسارة عظمك طرى.

هل تحققت أمنية زهية ووضعت طفلا، وأسمته محمد نجيب ؟

أعطيتها عشرة جنيهات، وطلبت منها الهرب، قبل أن تبين عليها علامات الحمل، تخليت عنها وتركتها لمصيرها وفى بطنها جنين من صلبى.

لن أروى له هذه التفاصيل، فربما إذا صارحته بأننى دخلت بها قبل حركة الجيش وتخليت عنها عند حملها، أوقعنى فى متاعب.

عندما صارحته بحبى للأميرة جويدان وتعلقى بها أثناء جرد ممتلكات آل عويس باشا. قلت : دفعت ثمن حديثى إليها مائة جلدة على ظهرى على يد والدها اللواء عويس باشا ، ضحك . قال : سوف أدعك تدخل مخدعها لجرد مجوهراتها وأنت وشطارتك، تركنى معها ساعتين. ترتدى قميص النوم وتضع فوقه الروب. شعرها مسترسل، قالت : هذه الحلى والمصاغ كل ماتبقى لى من ثروة – صادرت حركة الجيش الأطيان فى العام الماضى، وها هى تأخذ منا المجوهرات والنقود.

تدور بين الدواليب وكأن رجلها مكسورة، صعبت علىّ، تأثرت. أفصحت عن

شخصيتى، قلت: أنا الذى عاونتك على ركوب الحصان عند هضبة الأهرام، وجلدنى الباشا بسبب وقوعك، تذكرتنى قالت: أنت كرامة سرحان، خفضت رأسى، اقتربت منى.مدت يدها إلى. حضنتنى. تعلقت بى. ضغطت علىّ بصدرها كما فعلت عندما حملتها بين يدى عند هضبة الأهرام بعد وقوعها من فوق الحصان الذى جمح فجأة. قبلتنى فى خدى. تعلقت بى كأننى منقذها. قالت سامحنى يا كرامة أكملت بالانجليزية. لقد غضبت عندما جلدك الباشا. مثل الفلاحين. توقفت عن الذهاب إلى الجامعة عدة أيام حتى صالحنى، قالت: ها أنت تأتى إلى وتعاوننى، تطلعت إلىّ . تعلقت برقبتى. ضمتنى إليها. قالت. قلبى يحدثنى أنك لن تخذلنى. قبلتنى هذه المرة فى شفتى. وضعت لسانها داخل فمى. قلت: أحبك ياسمو الأميرة. قالت : أنا أعتز بحبك لى. الحب كلمة كبيرة، لنكن أصدقاء، تعال إلى زيارتى عندما تهدأ الأحوال. قابلنى فى الجامعة الأمريكية. هذا رقم تليفونى. فى كل مرة تسألنى فى خجل وهى تخفض بصرها، هل تترك لى هذه القطعة ؟ أومىء لها برأسى، تتعلق بى وأسقطها من كشوف الجرد. وضعت أمامى على المائدة عدة عقود، ظلت تنظر فى عينى، صامتة، أشرت لها برأسى، قفزت. جلست على ركبتى. قالت، تأكدت الآن من حبك لى، قالت : أنت طيب القلب مثل كل الشعب المصرى. أننى سعيدة، لأننى وجدت من ينقذنى ساعة الشدة، أليست هذه صدفة يا كرامة، لقد لعبت المقادير لعبتها لتخيب آمال الأعداء، جلادى هو منقذى، وربما تتابع المقادير لعبتها، وتوحد بيننا يا كرامة.

ظهر خوف على وجهها، قالت : أنا خائفة من بقية أعضاء اللجنة. فى هذه اللحظة دخلت علينا مربية بدينة. وفى يدها صينية القهوة، حدثتها الأميرة بالتركية. ثم تبادلتا الحلى، وضعت المربية حليها على المائدة وأخذت الأخرى. خرجت المربية. قبلتنى الأميرة. قالت : هذه صدفة حسنة أخرى، سجل هذه الحلى

بعد عدة أيام أفادنى بأنها موجودة وبخير فى قصر السيد أحمد باشا السيد بالمعادى.

راقبت القصر من بعيد. لم أعثر لها على «جرة» . كنت على يقين أننى إذا درت حول القصر سمعت غناءها. لكن القصر كان هادئا.

قلت. لم أجدها فى القصر. سخر منى قال : روميو حضرتك، وقفت تحت الشباك تغنى لها.

نصحنى إذا كنت جادا فى رغبتى، أن أختلق قصة وهمية وأقتحم القصر، ادعى أننى كشاف نور. عامل قمامة. عامل فى مصلحة التليفونات. صحفى.. لمس ترددى. سبنى قال : خسارة عظمك طرى.

هل تحققت أمنية زهية ووضعت طفلا، وأسمته محمد نجيب ؟

أعطيتها عشرة جنيهات، وطلبت منها الهرب، قبل أن تبين عليها علامات الحمل. تخليت عنها وتركتها لمصيرها وفى بطنها جنين من صلبى.

لن أروى له هذه التفاصيل، فربما إذا صارحته بأننى دخلت بها قبل حركة الجيش وتخليت عنها عند حملها، أوقعنى فى متاعب.

عندما صارحته بحبى للأميرة جويدان وتعلقى بها أثناء جرد ممتلكات آل عويس باشا. قلت : دفعت ثمن حديثى إليها مائة جلدة على ظهرى على يد والدها اللواء عويس باشا ، ضحك . قال : سوف أدعك تدخل مخدعها لجرد مجوهراتها وأنت وشطارتك، تركنى معها ساعتين. ترتدى قميص النوم وتضع فوقه الروب. شعرها مسترسل، قالت : هذه الحلى والمصاغ كل ماتبقى لى من ثروة - صادرت حركة الجيش الأطيان فى العام الماضى، وها هى تأخذ منا المجوهرات والنقود.

تدور بين الدواليب وكأن رجلها مكسورة، صعبت علىّ، تأثرت. أفصحت عن

شخصيتى، قلت: أنا الذى عاونتك على ركوب الحصان عند هضبة الأهرام، وجلدنى الباشا بسبب وقوعك، تذكرتنى قالت: أنت كرامة سرحان، خفضت رأسى، اقتربت منى.مدت يدها إلى. حضنتنى. تعلقت بى. ضغطت علىّ بصدرها كما فعلت عندما حملتها بين يدىّ عند هضبة الأهرام بعد وقوعها من فوق الحصان الذى جمح فجأة. قبلتنى فى خدى. تعلقت بى كأننى منقذها. قالت سامحنى يا كرامة أكملت بالانجليزية. لقد غضبت عندما جلدك الباشا. مثل الفلاحين، توقفت عن الذهاب إلى الجامعة عدة أيام حتى صالحنى، قالت: ها أنت تأتى إلى وتعاوننى، تطلعت إلىّ . تعلقت برقبتى. ضمتنى إليها. قالت. قلبى يحدثنى أنك لن تخذلنى. قبلتنى هذه المرة فى شفتى. وضعت لسانها داخل فمى. قلت: أحبك ياسمو الأميرة. قالت : أنا أعتز بحبك لى. الحب كلمة كبيرة، لنكن أصدقاء، تعال إلى زيارتى عندما تهدأ الأحوال. قابلنى فى الجامعة الأمريكية. هذا رقم تليفونى. فى كل مرة تسألنى فى خجل وهى تخفض بصرها، هل تترك لى هذه القطعة ؟ أومىء لها برأسى، تتعلق بى وأسقطها من كشوف الجرد. وضعت أمامى على المائدة عدة عقود، ظلت تنظر فى عينى، صامتة، أشرت لها برأسى، قفزت. جلست على ركبتى. قالت، تأكدت الآن من حبك لى، قالت : أنت طيب القلب مثل كل الشعب المصرى. أننى سعيدة، لأننى وجدت من ينقذنى ساعة الشدة، أليست هذه صدفة يا كرامة، لقد لعبت المقادير لعبتها لتخيب آمال الأعداء، جلادى هو منقذى، وربما تتابع المقادير لعبتها، وتوحد بيننا يا كرامة.

ظهر خوف على وجهها، قالت : أنا خائفة من بقية أعضاء اللجنة. فى هذه اللحظة دخلت علينا مربية بدينة. وفى يدها صينية القهوة، حدثتها الأميرة بالتركية. ثم تبادلتا الحلى، وضعت المربية حليها على المائدة وأخذت الأخرى. خرجت المربية. قبلتنى الأميرة. قالت : هذه صدفة حسنة أخرى، سجل هذه الحلى

فهى فالصو، ابتسمت بسمة حقيقية. دقت الفرحة فى قلبها. كنت أود فى هذه اللحظة تقبيلها، لكننى وقفت، تجمدت فى وقفتى، لوح خشب والعياذ بالله. فارقتنى شجاعتى، قيدنى حبى لها عن مغازلتها، ياخيبتى. هذه كانت فرصتى، لكننى ضيعتها، وقفت كالعنين تحرقنى الرغبة ولا أتحرك.

منذ ذلك الحين لم تقع عيناى عليها، وفى كل مرة أسعى لمقابلتها فى الجامعة الأمريكية تخيب محاولاتى. أفشل فى العثور عليها. قلبى يحدثنى أنها تتهرب منى.

هل أخطأت أول أمس بمغادرتى الجامعة فور وقوع الاضطرابات وانطلاق الهتافات المعادية لحكومة العسكر ؟

انسحبت فى هدوء عائدا إلى عزبة عويس بعيدا عن المدينة الجامعية. ماذا كان ينتظر منى؟ إننى طالب وقد دخلت الجامعة بسبب تفوقى وحصلت على المجانية بجهدى، ولا فضل لحركة الجيش علىّ .

حذرنى رشـــاد الترجمان من اليوزباشى شـــهدى الششتاوى. قال : ابتعد عنه. لكننى كنت فرحا باختيارى عضوا فى لجنة الجرد فى مقابل ثمانية جنيهات فى الشـــهر. بى شوق لدخول قصر اللواء عويس وجـــرد محتوياته. جـــريت وراء صـــغائر، أود لقاء الأميرة فتركتنى اقتحـــم مخـــدعها وانفرد بها، عابثتنى. وزعت علىّ قبلاتها بســـخاء خدرت بسحرها. تحتضننى، أترك نفسى لها، تبتعد. أعود إلىّ ، جلستى أمد يدى أو ساقى أو شفتى أو لسانى لها، كأنها هى العاشـــقة. وفى مقابل قبلاتها لى خنت الأمانة ، وتركتها تهرب مجوهراتها وحليها.

خنت الأمانة. خدعتنى. اذا كانت تحبنى أو تحرص على صداقتى منحتنى يدها أو تركتنى أقبلها هذه الأيام. لكنها تهرب منى.

تحرقنى الأشواق. يحرقنى الحنين إلى قبلة منها. والله لو أخذتها فى حضنى ليلة واحدة لقلبت لها رحمها، عصرتها عصرا. أسقيتها من ماء الحب. خيالاتى تقتلنى قتلا. عباس أبو حميدة يقول. هذه تغيرات سياسية واجتماعية ضخمة. لكننى لا أرى فى هذه التغيرات سوى نزواتى الصغيرة: زهية والأميرة جويدان.

لأبحث عنهما فى ركن. الأولى تركت لها ابنى أو ابنتى، لا أعرف والثانية تركت لها قلبى فخطفته واختفت.

أعرف أن مشاغلى صبيانية، لا تليق باللحظة التاريخية التى نعيشها، لكننى لا أستطيع الفرار منها. هذا جسدى، وهذه روحى القلقة.

فى وقفتى تحت القبة تطاردنى الخيالات، لأذهب إلى البوفيه وأحاول الاندماج فى حلقات الطلبة والطالبات.

لا حديث بين الطلاب إلا حول فصل أستاذين واعتقال ثلاثة وترقية الدكتور زهدى أمين رئيسا لقسم اللغة الإنجليزية.

سرقتنى خيالاتى عن متابعة الأحداث، وانقبض قلبى بسبب غموضها. فى السابق كنت أخشى على الدكتور زهدى أمين الاعتقال أو الفصل من الجامعة بسبب علاقاته بجماعة إخوان الحرية والأستاذ ستيف والسراى والسفارات. ها هى ظنونى تخيب. أضحى الدكتور زهدى أمين من رجال العهد الجديد بين عشية وضحاها، بينما دخل الدكتور عوض ساويرس الذى عارض الملك علانية قبل الانقلاب إلى المعتقل، وفصل الدكتور يونس عبد العال صاحب كتاب «النقد الاجتماعى للأدب» من الجامعة.

أخرجت علبة سجائرى، وتناولت واحدة، والقيت نظرة على بقيتها فقد أوشكت على القضـاء عليـها وميـزانيتى لاتسمح إلا بشـراء علـبة كـل ثـلاثة أيام. تضايقت.

حمدى بك شقيق اللواء عويس أصبح مستشارا لمجلس قيادة الثورة، وها هو الدكتور زهدى أمين يشق طريقه. تذكرت قول عباس أبو حميدة لى أثناء جرد محتويات قصر اللواء عويس ومصادرة أموال الأمراء والأميرات : هذا صراع بين طبقات، وليس خناقة. كل طبقة تقدم رجالها.

فرغت من تناول ساندوتش رخيص. دخنت سيجارة أخرى، قبل توجهى إلى المكتبة. بين صفحات الكتب، عندما تجرى عيناى على السطور، أتخلص من أوهامى وعذاباتى، أتخلص من القهر، حيث سامنا آل عويس العذاب. الكلمة تمنحنى شجاعة. الكلمة تجعلنى أحس بآدميتى.

هذه واحدة من قصائد الرثاء الشهيرة للشاعر الانجليزى ورد ورث.

ختم النعاس على روحى وغيبها،

ومحا مخاوف البشر،

فبدت لعينى فتاة ليس تلمسها

يد السنين والقدر.

الآن قد سكنت والقوة اندثرت،

ومضى زمان السمع والبصر،

وغدت تدور ببطن الأرض دورتها.

كالصخر والأحجار والشجر.

زهية من الأموات أيضا. غادرت العزبة ذات يوم لا أذكره ولم تعد إليها، افتقدتها عدة أيام ثم نسيتها. جرفتنى الحياة بعيدا عنها، وهذه الأيام يضربنى الشوق لرؤية ابنى أو ابنتى. هذه أشواق خفية، لها شكة الدبابيس فى القلب .

فتحت الكتاب مرة ثانية. ابنى. محمد نجيب. أراه مرة واحدة.، وأبعد عن طريقها.

اللواء عويس أدرك القضية الأزلية فى أبعادها الصحيحة : سادة وعبيد. أوعز إلى فقيه عزبة عويس بمهاجمة مجانية التعليم. أطلق رجاله النيران على طلبة المدارس شيخ خفره كان يمزق الصحف التى تصل إلى العزبة.

القضية قبل ٢٣ يوليو كانت واضحة. أما الآن بعد حركة الجيش فقد اختلطت الأمور. أضحى حمادة أبو جبل صنيعة اللواء عويس، يتحدث باسم حركة الجيش فى عزبة عويس والنواحى المجاورة، مرددا فى الرايحة والجاية: الاتحاد النظام. العمل.

لا خلاص إلا فى الشعر.

د. السيد أحمد باشا

(٣)

لا أحد يتقن عمل القهوة فى هذا القصر قدر زهية، أما محمد الطباخ فقد كبر وخرف كثيرا وأصبح كثير النسيان. ها هو لم يأت اليوم على الرغم من حاجتى اليوم سوف أطلب من زهية إعداد الغداء لستة أفراد. هذه مهمة شاقة إلى جانب عنايتها بطفلها الرضيع.

ماذا أفعل فى هذه الورطة. ناديت عليها :

- زهية.

أقبلت نشطة. باشة. قالت :

- نعم يا باشا.

قلت :

- فيه ضيوف على الغداء. ستة أطلب الطعام من النادى ؟

قالت.

- على عينى . ستة. عشرة. أنا جاهزة.

قلت :

- الساعة الواحدة والنصف.

قالت :

- حاضر.

قلت :

- أنت رئيسة المطبخ والدادات معاونة وخدمة على الترابيزة.

قالت :

- حاضر.

ذكاؤها متوقد هذه الفتاة. عندها لماحية. فى أقل من عامين تأقلمت مع الحياة فى القصر وتعلمت الخدمة فى المطبخ وطرق إعداد المائدة ولم يعد ينقصها سوى معرفة أنواع النبيذ.

جاءت كالقطة المغمضة من عزبة عويس. جاءت بطينها فأضحت فى مقام مديرة البيت. كلنا أصبح يعتمد على زهية. قلت :

- ضيوف أعزاء يا زهية.

قالت :

- حاضر.

تمردت اليوم على أوامر الأطباء الغبية وضربت بتعليمات ابنتى الدكتورة أوديت عرض الحائط، وتناولت أدويتى دون إفطار يذكر. هذا الصباح لم تكن لدى شهية للطعام. لكنها أوامر الأطباء الغبية. زهية لاتعرف أن الضيوف من مجلس قيادة الثورة، وأننا نمر بأزمة دستورية، وأعدت لى الإفطار وكأننى شاب فى العشرين من عمره، أو أننى مقبل على عبور المانش.

أخذت المسكينة تعد لى شرائح الخبز الساخنة وتزودنى بها، حتى أخجلتنى، فتناولت واحدة وغمستها فى عسل النحل، ودفعتها فى حلقى رغما عنى.

مايدهشنى عدم اعتقال ابنتى بعد القبض على رفاقها الماركسيين. هل صداقتى لسليمان حافظ وزير الداخلية وفرت لها حماية ؟ أم هى معرفتى بالبكباشى جمال عبد الناصر التى منعت عنها البلاء ؟!

على الغداء سوف يتضح اتجاه الريح .

زهيــة

(٤)

وصل عم محمد الطباخ معفر الثياب وفى وجهه كدمات. عيناه محمرتان. على شفتيه آثار دماء.

صرخت. ماذا جرى يا عم محمد؟ حادثة قطار !!

أجلسته على كرسى. مسحت له وجهه، غسلته بفوطة. دعكت له الجروح بالكولونيا. ترك الرجل الكرسى، وانتحى جانبا فى الحمام، وجلس على الأرض.

أسند رأسه بكفيه. قال فى صوت حزين :

- ضربونى يازهية. كسروا عظامى. قطعوا هدومى. لعنوا أبى وجدى. سخروا منى وهم يراجعون اسمى. الحكاية يازهية أننى قرب محطة المعادى غفلت عيناى. نعست فتحت عينى وجدت نفسى فى حلوان وحولى مجموعة من المخبرين. أحاطوا بى سألونى. من أنت؟ قلت. أنا طباخ وأعمل عند السيد أحمد باشا السيد. بصقوا على. قالوا . الألقاب الغيت يا مغفل. سألونى :

- لماذا أتيت إلى حلوان وعملك فى المعادى ؟ قالوا : هذه مؤامرة، أين الرسالة ؟ قلت. نعست فى القطار. فتشونى . قلت : هذه محفظتى. فيها صور أبنائى وأحفادى. قالوا . أنت من الإخوان المسلمين. وسوف نقتلك..

قلت، أنا طباخ، ضربونى، بعد فترة جاء ضابط أسمر، سألنى عن اسمى ومهنتى، أجبته، قال لى بالنوبية : صباح الخير يا أخى، كيف حالك ؟ قلت، كما ترى، ضحك، أمرهم بتركى، قال هذا نوبى مصرى، طلب منى مغادرة حلوان فورا، قلت بالنوبية، اذا رأيتنى هنا مرة ثانية إقتلنى، رد على، سوف أضربك بالنار، أمسكنى مخبر وقادنى الى القطار العائد إلى القاهرة، أعطيته خمسة قروش، عاتبته على هذه البهدلة وأنا رجل عجوز، قال أشكر ربنا، هذه كبسة على الإخوان والسودانيين المتعاونين معهم، كتبت لك النجاة، ثم مال علىّ، قال حضرة الضابط أصله نوبى، ورأف بحالك، قلت: يشكر، وصمت، أصل الأخذ والرد مع الحكومة لايفيد يا زهية، كنت أودّ أن أقول له حضرة الضابط ليس نوبيا، لكنه يرطن بعدة كلمات نوبية، لكننى صمت.

أنا كبرت يا زهية خرفت، استحق ضرب النار، خيل الحكومة يا زهية لما تكبر يضربونها بالنار ويوزعون لحمها على أسود حديقة الحيوانات، يحكمون عليها بالموت، من لا يعمل يستحق الموت.

كسر قلبى بكلامه، نصحته بالصعود إلى الباشا ليخبره بما جرى، قال: معك حق يازهية، هو باشا ويعرف كيف يتصرف فى حكايتى.

بعد أقل من ساعة سألنى عم محمد عن الحلو مرة أخرى، «الكيكة» فى الفرن وروائحها تملأ المطبخ وقاعة الطعام، وقد أعدتها الدادة الفرنسية، ويسألنى عن الحلو.

أغلقت دولاب البهارات ووضعت المفتاح فى عبى، يا خوفى أن «يحَيقْ» الطبيخ من وراء ظهرى مرة ثانية.

العقل زينة يا زهية، ومن لا عقل له لا يستحق اللقمة، وليس له عيش فى هذه المدينة، حلقة حطيها فى أذنك، عم محمد يرطن بالفرنسية ويقرأ جرائد

خوجاتى، لكن دماغه أضحى مخروما، ولا تنفع معه عوجة اللسان، فلا العربية ولا النوبية ولا لغات الأرض كُلها تسعفه وتمنعه من النسيان.

ينصحنى، يرشدنى، وبعد دقيقة واحدة، ينسى ما قاله لى وما فعلته أمامه تحت إشرافه.

الدكتورة أوديت، كلما فتحت فمى بكلمة، قالت : أنت فيلسوفة يابنت . ألم نفسى وأكومها فى حسرة . أقول لها : والنبى أنا حمارة وجاهلة . هنا لقمتى هنية . بالى مرتاح . لكننى غريبة . لغتهم ليست من لغتى، عربيتهم مصراوية غريبة، كلماتهم ليست كلمات عزبة عويس التى تربيت على أرضها ونزلت ترعتها وجريت فى حقولها وحملت سباخها على ظهرى، حتى الشهور عندهم لها أسماء مختلفة، طوبة وأمشير لها أسماء غريبة.

نفسى أفضفض، أتكلم مع أحد يفهمنى، المكوجى اللعين كلامه حلو، لكن الدكتورة أوديت تمنعنى عنه، تقول: إنه يشاغل البنات ويضحك عليهن، وأنت لست ناقصة، أطاطى رأسى، وأقول لنفسى، نعم، مرة قلت كما يقولون لها وى مدام.

ضحكت منى، طلبت من الدادة الفرنسية تعليمى الفرنسية، فرنسية الطبخ وشغل البيت، لكننى أود تعلم العربية لأقرأ الجرائد، آه.

المكوجى طوال النهار يقرأ الكتب والمجلات، لسانه يقطر «عسل»، ونظراته فيها حنية، الملعون يذكرنى بالذى مضى، عامان، يشاغلنى وأشاغله أنا أيضا، لكن من بعيد، من وراء ظهر الدكتورة، لا أعرف اسمه ولا يعرف اسمى.

يا مصيبتى،

الأرز احمر وكاد يحترق، أصبحت مثل عم محمد، من كثرة التفكير، أصبحت أنسى، أود أن أقبض على اللحظة بيدى وأسنانى وأرمى عليها وأحضنها من كثرة الخوف عليها، تفلت منى وأنسى.

فوقى لنفسك يا زهية. غنى «ما حلاها» عيشة الفلاح، والتفتى إلى حلل وصوانى الطبيخ التى فى الفرن وفوق المواقد.

فاحت رائحة الطبيخ وغمرت المطبخ. قال عم محمد فى ود :

- برافو عليكى يا زهية.

قلت فى زهو :

- أنا تلميذتك.

قال:

- الطهى نفس طيب. وأنت نفسك طيب، قدمك قدم سعد، وريحك خفيف.

ضحكت من همى . قلت :

- ما رأيته من مصائب لم يره غيرى.

قال :

- ارمى على قدام. لا تنظرى أبدا إلى الوراء. خذيها منى نصيحة.

قلت :

- حاضر .

سألنى :

- هاتى الطماطم والخص والبنجر. أعمل السلاطة .

يا مصيبتى .

الرجل سبق له تقطيع السلاطة وكانت الدادة الفرنسية، قد طلبت منه الجلوس إلى مائدة صغيرة فى الركن وتقطيع السلاطة. كى لا يرطن معها

ويشغلها. هذه المرأة نبيهة. قال :

- اليد البطالة نجسة .

قطع السلاطة. وانشغل بالتقطيع عنا، ولما فرغ، سأل عن الصوصة. قالت له المربية : فرنسية هذه المرة. لكنها، حجبت عنه الزيت والخل. أشارت لى برأسها. كلا. فسكت وشغلناه بالكلام.

قلت :

- السلاطة جاهزة يا عم محمد .

قال :

- ليس منى فائدة هنا . إذهب واحرس البوابة.

قلت :

- مع السلامة.

د . السيد أحمد باشا

(٥)

محمد الطباخ ثائر بسبب الضرب والبهدلة. الرجل لايعرف أن البلد فوق بركان. ولا يعرف أن الحكومة قد حلت جماعة الإخوان المسلمين وقبضت على المرشد العام وعدة شخصيات من مكتب الإرشاد استمعت له ثم قلت :

- إنزل يا محمد. عندنا ضيوف على الغداء .

استعاد الرجل نشاطه ونسى الضرب. قال :

- على عينى.

نسى الرجل ما أصابه وإن كانت آثار الضرب ظاهرة عليه عند المشى، فقد دعك ركبته ومال بجسده كله ناحية اليمين عند خروجه من الباب.

ها هى شوكة البكباشى جمال عبد الناصر قد قويت ولم تعد فى البلد مؤسسات سوى المؤسسة العسكرية التى يدير أمورها بنفسه أو من خلال خلصائه.

سنة ٥٣ هى أخطر السنوات التى مرت على مصر، وليست سنة ٥٢، فطرد الملك لم يكن سوى جملة اعتراضية فى خضم الأحداث، أما فى سنة ٥٣ فقد تم تسوية الأرض لخلق الجو المناسب لإقامة دكتاتورية بعد قصقصة أجنحة جميع الرجال : إلغاء الأحزاب والدستور وإعلان فترة انتقال لمدة ثلاث سنوات.

المستبد العادل هو النموذج الأمثل فى نظر هؤلاء الضباط الشبان، وقد ضاقت صدورهم بألاعيب رجال الأحزاب وضيق أفقهم. يودون تسوية الأرض قبل مجابهة الإنجليز لكنهم يزرعون بفعلتهم شجرة الشر التى سوف ترمى بثمار سامة تفسد النفوس لعدة مئات من السنين.

عناد ابنتى من عناد المرحومة أمها. أصبحت أخاف عليها من الاعتقال هذه المرة فى العهد الجديد، بعد أن ذاقت مرارة الأعتقال والتشريد فى العهد الملكى.

ليس لها زوج يرعاها أو أخ يدافع عنها أو أخت تستند إليها.

هل أفاتحها فى ضرورة زواجها وقد تقدم العمر بى وتجاوزت الثانية والستين عاما ؟! سوف يكون ذلك مضحكا

هه لأنزل إلى الحديقة قليلا، وأشغل نفسى بمداعبة ابن زهية الرضيع وأزيح عنى هذه الأفكار المتشائمة.

صوت الرضيع أضحى واضحا وهو يلاعب نفسه : إغ، إغ.

هل أحسنت زهية بتسميته محمد نجيب ؟! كانت المسكينة تحلم بالانتقام من اللواء عويس باشا ياوران الملك فظنت أن رمز الحركة قد انتقم لها منه وأسمت ابنها على اسمه . لا تدرى المسكينة شيئا عن الصراعات الداخلية بين نجيب ورفاقه .

هذا الرضيع اسمه محمد نجيب. واللواء محمد نجيب قائد الحركة حائر بين مجموعات الضباط يمد جسورا مع الجماعات المعارضة ثم يعود ويحرقها.

أين ترمى بهما المقادير ؟

لا أحد يعرف .

د . السيد أحمد باشا

(٦)

وصل البكباشى جمال عبد الناصر قبل موعده بربع ساعة، وأول من استقبله كان محمد الطباخ، رحب به قائلا :

– زارنا النبى .

وهرع إلى يخبرنى بقدوم الضيف الكبير، ومن فرحته ، صاح :

– سيادة اللواء محمد نجيب.

هرولت تاركا الصالون،. وقد أدهشنى قدوم اللواء محمد نجيب دون سابق معرفة ودون إشعار سابق، وفجأة وجدت فى مواجهتى جمال عبد الناصر بقامته الفارعة، فتلعثمت، وضاعت منى الكلمات، خفف عنى قائلا :

– الدكتور فى انتظار رئيس الجمهورية ؟!

استعدت توازنى، قلت :

– تفضل يا سيادة الرئيس، سوف أشرح الأمر .

وقبل مغادرة محمد الطباخ، طلب منه إعداد القهوة، فحدث محمد نفسه بصوت عال قائلا :

– حضرة البكباشى جمال عبد الناصر قهوته سادة ؟

قال جمال عبد الناصر :

– مضبوط يا محمد.

التفت إليه محمد الطباخ قائلا فى خوف :

– والله أنا كبرت وخرفت ..

ودعه جمال عبد الناصر بنظرتين ناريتين.

اعتذرت للضيف عن خطأ الطباخ، قلت :

– المسكين أصيب بتصلب فى الشرايين.

قال جمال عبد الناصر ضاحكا :

– والله اذا نادانى أحد فى الطريق بمحمد نجيب ربما قتلته. القطيعة النهائية بين محمد نجيب وبين مجلس قيادة الثورة أصبحت مسألة وقت .

لم يفصح عن طبيعة هذه الخلافات، وفضلت عدم الاستفسار عنها، وقد قدم مبكرا عن موعده على غير عادته لينفرد بى.

صدق حسى، بعد قليل، طلب منى بطريقة غير مباشرة، إطلاعه على أهم الأعمال القانونية فى القانون الدولى التى وضعها فقهاء مصريون ويعتد بها.

أجبته إلى طلبه، قلت :

– مؤلفات الدكتور الحفناوى حول قناة السويس، ومؤلفات الدكتور وهيب حول اتفاقيات الأنهار.

فجأة أثار قضية التأميم مشيرا إلى ما حدث فى إيران فى عهد الدكتور

مصدق بشأن النفط. قلت له :

– قضية التأميم بصفة عامة، تجدها عندى، وقد كلفتنى مجلة قانونية فرنسية بإعداد بحث حول قناة السويس فى ظل اتفاقية القسطنطينية، وانتهيت منه قبل حركة الجيش بأيام، فأرجأت نشره .

لمعت عيناه، وأخذ يهز ركبته، ومد جذعه الأعلى مقتربا منى، وكأنه وجد بغيته. سألنى :

– أود نسخة من هذا البحث .

قمت إلى مكتبى، بالطابق الأعلى، وأحضرت نسخة، وقدمتها له. قلب صفحاتها وتوقف عند ثبت المراجع على الرغم من عدم إتقانه الفرنسية، وبعدها سألنى :

– هل أطلعت أحدا على البحث ؟

قلت له :

– دوريس كاتبة الآلة الكاتبة فى مكتبى، دقته على الآلة الكاتبة.

ألقى بجذعه الأعلى على الفوتيه، وشرد قليلا، ثم قال :

– دوريس، أعرفها. هذه شيوعية فرنسية أو يونانية مصرية لست متأكدا تماما من جنسيتها، ولكننى متأكد تماما أنه إذا تسربت هذه الدراسة إلى الأعداء فسوف يكون ذلك بسبب الرفاق الفرنسيين .

ثم أضاف مكملا :

– فى اللحظة المناسبة أعتقلها.

قلبت الأمر، وتجاوزت عن إشارته إلى اعتقال دوريس، وأحسست بأنه يشد انتباهى إلى أمور جانبية، اخترت كلماتى بعناية، قلت :

– التأميم خطوة، محفوفة بالمخاطر .

تجاهل عبد الناصر ملاحظاتى، وسألنى مستفسرا :

– كم نسخة توجد من هذا البحث ؟

ساورنى قلق من طريقة سؤاله، وتخوفت من اندفاع الضباط وحماسهم، أجبته :

– اثنتان، واحدة فى مكتبى والثانية فى يدك.

ابتسم. قال مخففا عنى :

– هذه عادة عسكرية لا تزال تلازمنى. الأوراق الهامة يكتب عدد نسخها واسماء المطلعين عليها وتواريخ اطلاعهم.

فرغ حديثنا ولم تصل القهوة، أحسست بالحرج، قلت معتذرا :

– محمد نسى القهوة .

قال مغيرا وجهة الحديث :

– وأين الدكتورة أوديت، أرسله إلى الدكتور رفاعى فى المستشفى العسكرى يصلحون حاله. هذه بطاقتى.

تناولت منه البطاقة شاكرا.

جلس مسترخيا. فتح لى قلبه. قال :

– بدأت جماعة الدكتورة أوديت تتحرك فى الهامش المحرم على السياسيين. أقصد هامش الجيش. هذه لعبة محرمة. والتصعيد من جانب هذه المجموعة سوف يقابل بتصعيد من أجهزة الأمن، ومن جانب آخر أخذت جماعة الأخوان المسلمين تمد خيوطها إلى محمد نجيب.

ثم أكمل قائلا :

– هذا مصير بلد. «مسئولية» ، ولن أسمح بتجاوزات مهما صغرت وقت المفاوضات مع الإنجليز. هذه حياة أو موت .

فى ضيافتى ويهددنى بطريق غير مباشر باعتقال ابنتى أوديت وكذلك باعتقال دوريس كاتبة الآلة الكاتبة فى مكتبى، لكننى تجاوزت عن تهديداته، وقلت معلقا على الأحداث الأخيرة :

– دخول المرشد فى بلد اسلامى مثل مصر ..

قاطعنى قائلا :

– تعبت معهم . فعلت كل مافى وسعى من أجلهم. لكنهم عصاة ، عصاة.

تم استثناء الجماعة من قانون الأحزاب. أعدت التحقيق فى قضية مقتل حسن البنا. عرضت عليهم الإشتراك فى الوزارة. طلبت منهم الذوبان فى هيئة التحرير وتولى شئونها. مشكلة هذه الجماعة أن مرشدها الروحى ليست له سيطرة على جهازها المسلح، ولهذا قربت منى عبد الرحمن السندى لكننى لا أطمئن اليه. قررت تأديبهم وتلويث سمعتهم بالحق وبالباطل وتوجيه تهمة الخيانة والتآمر لهم حتى يدركوا الفرق بين العمل السياسى وعمل الجماعة الدينية. وعلى كل حال أنا تركت وكيل الجماعة عبد القادر عودة حرا.

ثم أضاف قائلا :

– أود أن تكون البلد كلها كتلة واحدة، ربما هذه فكرة خاطئة، لكننى سوف أعمل على تنفيذها .

على الغداء تابعت حديثهم وقفشاتهم ، مدققا فى الكلمات ، وأدركت أن بحور الود بين محمد نجيب ورفاقه قد قطعت ، بسبب الصراع على السلطة وليس بسبب فارق العمر فقط .

خيمت علىّ سحابة حزن ، وتذكرت الخلاف بين سعد زغلول باشا وبين عدلى يكن باشا وانقسام الأمة الى فريقين بعد ثورة ١٩١٩ ، فاستمر احتلال الإنجليز لمصر ولم تحقق الثورة أهدافها ، وتزايد العبث بالدستور .

رجعت إلى مذكرات صديقى محمد حسنين هيكل باشا لأستحضر بعض التفاصيل على الرغم من أننى أؤمن ايمانا قاطعا بأن التاريخ لايعيد نفسه .

مذكرات فى السياسة المصرية

وألف عدلى باشا الوزارة ، وسميت وزارة الثقة . فلما كان يوم ٢٨ ابريل سنة ١٩٢١ ألقى سعد باشا خطابا وصف فيه عدلى باشا واخوانه بأنهم برادع الإنجليز وأصبح كل توفيق مستحيلا . وانضمت طوائف سواد الأمة لسعد وطوائف من المثقفين والأعيان لعدلى باشا رئيس الوزراء ، ووقف فريق من المترددين ينتظرون . وامتدت الفوضى من القاهرة الى الأقاليم .

هل يصل الصراع بين جمال وبين نجيب إلى حد قيام المظاهرات وإنقسام الأمة إلى فريقين أو ثلاثة ؟

وعدت إلى مايشغلنى ، إلى سؤاله الكبير عن التأميم . قلت :

– هل يفكر جمال عبد الناصر حقيقة فى تأميم القناة وسط كل هذه الصراعات وبينما القوات البريطانية فى منطقة القناة أم أنه يزيد من معارفه القانونية للقضايا الإستراتيجية فى المنطقة ؟

فى الحالتين ، إذا صدق ظنى ، فإنه يعد نفسه لحكم مصر لعشرات السنين

قال لى أمس على بك رفعت المحامى ، وهو من المقربين من حزب الوفد ، أن الحكومة تعد لضربة جديدة بعد القبض على الإخوان المسلمين . وأن هذه الضربة سوف توجه هذه المرة ضد المستقلين .

لا أعرف إذا كان يحذرنى أم يلومنى ، بسبب إنعزالى عن الأحزاب .

كان خطأ الأخوان فى اعتقادهم بأنهم شركاء مع رجال الجيش فى الحكم فى هذه المرحلة ، وغلطتهم الدخول فى اتصالات مع الإنجليز لمناقشة قضية الجلاء وقضية الدفاع عن الشرق الأوسط .

طلب أحدهم مشورتى فى العام الماضى ، فنصحته بعدم الوقوع فى هذا الشرك فهذه خدعة من الإنجليز ومن جمال عبد الناصر شخصيا للإيقاع بهم ، فلم يصدقنى فى حينه ، وظننى أبالغ فى مخاوفى . وقال لى : إن هذه المفاوضات سوف يخطر بنتائجها جمال عبد الناصر أولا بأول . وأضاف قائلا : إن هذه الإتصالات حكمها حكم الإتصالات التى تقوم بها أحزاب المعارضة فى الدول الديمقراطية لدعم الحكومة . رفضت حجته وأوضحت له أن جماعة الإخوان حكمها ليس حكم حزب العمال البريطانى المعارض. فالجماعة لم يسبق لها الحكم، كما أنها من الناحية القانونية جمعية دينية وليست حزبا سياسيا بعد استثنائها من قانون الأحزاب .

لكنه لم يصدقنى.

وها هى النتيجة . وَجّه إليهم عبد الناصر تهمة التخابر مع الإنجليز .

أما رجالات السياسة من جيلى فقد انتهت رسالتهم بقيام حركة الجيش وطرد الملك ، لكن جمال عبد الناصر خدعهم فى بداية الحركة بإسناد رئاسة الوزارة إلى على ماهر باشا، فظنوا أن لهم دورا متبقيا .

سألونى رأيى فى قانون الاصلاح الزراعى ، فنصحتهم بقبوله كما هو وكما وضعه رجال الجيش، دون تحفظات. لكنهم تلكئوا وقد فاتهم أن طبقة بأكملها قد خرجت من التاريخ بطرد فاروق.

قال لى جمال عبد الناصر بطريقة عفوية فى بداية الحركة وقبل تفاقم الأحداث الأخيرة :

- جيشى هو برلمانى .

وقد فاتنى أن الأمور سوف تصل إلى هذا المدى فى أقل من عامين وأنا الرجل العجوز المحنك .

الآن لم يتبق على الساحة سوى رجال الجيش. جمال عبد الناصر ومعه مجلس قيادة الثورة فى جانب، واللواء محمد نجيب فى جانب آخر ، أما رجال الأحزاب فهم خلف القضبان .

تضايقنى تهديدات جمال عبد الناصر لى، وهو فى ضيافتى وفى بيتى باعتقال ابنتى وسكرتيرتى .

هذه الطريقة فى الحكم لم تعرفها مصر من قبل .

حمادة أبو جبل

(٧)

السدة الشتوية ياعمدة . هذا هو العفريت الذى يلاحقنى فى الجاية والرايحة ، وأينما حلت ، خرب وابور المياه الوحيد ، وجفت مياه الريّاح، وكل من فى العزبة يصرخ : البرسيم مات .

فى الشهور الماضية كانوا يحاصروننى بالنظرات الصامتة ، ثم بدأت كلمات العتاب تجرى على ألسنتهم. وبعدها الالتماسات تخرج من شفاههم منغمة بالخوف الرهيب . أما الآن فلا أسمع إلا الزعيق : عليه العوض . أنت المسئول يا عمدة .. وإذا أعطيتهم ظهرى ترحموا على أيام اللواء عويس باشا.

احترق الوابور فى الحول الماضى. وبعد إطفاء الحريق الذى كاد أن يلتهم دور العزبة ، ظل السؤال معلقا فى الهواء يتنفسه الصغار والكبار ، ما العمل فى السدة الشتوية ؟ حتى حلت فى موعدها، وهبطت مياه الرياح واحترق البرسيم من العطش وسقطت أزهاره.

كانت الكارثة تقترب منا يوما بعد يوم مع بزوغ كل نهار .

اغلقت باب المندرة ، وطلبت من الغفير منع دخول المزارعين . اتصلت

بمسئولين فى الإصلاح الزراعى ومديرية الزراعة وهيئة التحرير دون طائل . البلد هائجة ولا أحد لديه وقت للتفكير فى برسيم عزبة عويس. حتى اليوزباشى شهدى الششتاوى الذى كان يملأ العزبة بالهتافات اختفى .. وولد عمى عباس أبو حميدة هرب، ولم يعد لى سند فى هذه المصيبة إلا اللواء عويس والاقتراب منه فيه جناية.

منذ قيام حركة الجيش وعيناى على استقرار الحال ومكافحة القلاقل وأعمال الشغب التي تنتقل إلى العزبة من مديرية الجيزة مع الطلبة والأفندية أنصاف المتعلمين ، وقد وضعت نصب عينى شعار المرحلة : الاتحاد. النظام. العمل.

فى هذا الشعار كنت أجد إجابة لكل سؤال وحلا لكل مشكلة، حتى دهمتنى السدة الشتوية واحترق البرسيم ولم يعد ينفع لا الاتحاد ولا النظام ولا العمل.

زوجتى «ستهم» سممت عيشتى قائلة :

- البهائم تطلب البرسيم والمزارعون سوف يعيدون الأرض إلى اللواء عويس والأميرة شويكار رفقى تصلح لهم وابور المياه وتسترد أراضيها .

اذا طلبت منها الصبر ، قالت :

- إذا صبرنا نحن لن يصبر المزارعون . سوف يخرجون إلى المديرية وهم يهتفون بسقوط حركة الجيش ويطالبون بعودة الملك .

معها حق .

لا مخرج إلا بيع قيراط أو قيراطين وشراء وابور للعزبة بعيدا عن وابور اللواء عويس المحترق .

جددت المندرة وبنيت لها ملحقا وجعلت لها بابا يقف عليه غفير . ركبت

خطين للتليفون . غيرت بطانتى بعد التغيرات الداهمة التى حلت بالبلد وتوزيع أراضى اللواء عويس على المعدمين .

قلت بينى وبين نفسى، هذا كله ديكور . المشكلة هى كيفية مواجهة السدة الشتوية. وستهم على حق فى مخاوفها . وكيف فاتنى هذا الأمر . وهذه أيام شدة، ففى غمضة عين تضيع رقاب .

من حسن حظى ، أن الأخطار التى تحدق بى تأتى لى من داخل العزبة ، وهذه مقدور عليها، فقد أيدت اللواء محمد نجيب بقدر، ولم أنسق وراء الهوجة التى دفعت الدهماء لإظهار فرحتهم بقائد الثورة .

كنت من البداية يراودنى إحساس غامض بأن الأكمة تخفى وراءها ما هو أعظم . طاوعت إحساسى ورفضت الزفة ، وها قد صدقت ظنونى .

الفلاح الحقيقى لا يظهر مشاعره أمام القادمين من البندر . هم لهم دنياهم، ونحن لنا دنيانا .

فى العهد السابق كانت مهمتى سهلة، أوامرى أتلقاها من حضرة اللواء عويس ياوران الملك فاروق أو من كاتب الدائرة قطامش وإذا تعطف الباشا علىّ أرسل لى سكرتيره الخاص عبد الواحد أفندى ، وليس علىّ إلا الطاعة، أما فى هذه الايام فقد أصبح علىّ مقابلة المسئولين وممثلى الحكومة ومداهنة الحكومة أصعب كثيرا من مداهنة اللواء عويس ، فالحكومة كلامها كثير ، وليس لها صاحب ، وطلباتها متناقضة .

اليوزباشى شهدى الششتاوى حيرنى بطلباته وأوامره ، يخطب فى المعدمين ويجمعهم حوله فى مظاهرة تهتف بسقوط الإقطاع ، ويحثهم على حمل السلاح والشوم دفاعا عن مصالحهم ، ومحاصرة آل عويس باشا الذين امتصوا

دماءهم ، وخصوا وربطوا رجالهم . وإذا حدثته فى مسألة السدة الشتوية تهرب منى . قال، أنه ضابط ولايفهم فى الزراعة .

كدت أقول له فى مرة، لماذا صادرت حكومة الثورة إذن أراضى الناس الكبار لتوزيعها على المعدمين ؟!

لكننى صمت .

أما الملازم أول حسن طلعت من مديرية الأمن بالجيزة، فيحذرنى فى كل مرة من قيام مظاهرات أو تجمعات فى العزبة خاصة بين الطلبة والعمال الذين يطبعون المنشورات .

ذهبت إليه فى المديرية خائفا . قلت . دبرنى يا وزير ، اليوزباشى شهدى الششتاوى يجمع المعدمين ويقسى قلوبهم وقد افتتح فرعا لهيئة التحرير يؤمه المشاغبون والخطباء .

قال لى فى برود اليوزباشى شهدى الششتاوى يمثل الثورة، أما نحن ياحضرة العمدة فنمثل الحكومة . الحكومة يهمها الأمن فى المقام الأول . هم يتكلمون ونحن نراقبهم . نضعهم فى «ننى» العين . نرصد حركتهم . لا تنسى أن الثورة أعدمت خميس والبقرى وعلى استعداد لشنق مئات غيرهم .

يسألنى. ماهى أخبار عباس أبو حميدة ؟

أطأطىء رأسى أقول . هرب .

يتهمنى بتهريبه. وهذه فيها سجن . أقسم له أنى برىء. يهددنى بطردى من العمودية .

قال لى .. الدكتورة أوديت ابنة أحمد السيد باشا السيد إختفت فى العزبة شهرا .

قلت : هذا . هذا كان قبل الثورة . فى عهد الملكية البائد .

ضحك منى ، وفى سخرية ، قال . تتكلم فى السياسة ياعمدة والأمن هو الأمن.

حقيقة لا فرق . ويرفض محادثتى فى مسألة السدة الشتوية . هو رجل أمن ولا يفهم فى الزراعة .

الدكتورة أوديت لم تختف فقط فى العزبة، لكنها عالجت زوجتى ستهم أيضا من وراء ظهرى. وأول من أخبرنى بهذه المصيبة الملازم أول حسن طلعت .

قال. أنت نائم فى العسل يا عمدة .

هه . وقد عاودها الجرب ثانية وسود عيشتها . الجرب لا علاج له ، الأجرب مثل الأبرص يستحق العزل ، لكنها تكابر وتزعم أنها حساسية.

المعلم عمران أصبح فى غفلة ، عين من كبار المقاولين فى الجيزة بعد أن سلك أموره مع رجال العهد الجديد ، وبنى مقرا لهيئة التحرير وجهزه بالميكروفونات .

قال المعلم عمران . الميكروفونات من لوازم السياسة .

وبناء على نصيحة من اليوزباشى شهدى الششتاوى اشترى مذياعا حوافه مطلية بالذهب كبير الحجم ويعادل نصف جاموسة . قال . هذا أكبر راديو وجدته فى القاهرة . صوته عال يسمعه السائر على البر الثانى من الجيزة .

حول المعلم عمران الضجة والهتافات إلى جنيهات صحيحة ، سيالته لا تعرف الفكة . وأصبح لا يجلس إلا على يمين اليوزباشى شهدى الششتاوى ، وقد صويت الميكروفونات إلى سراى اللواء عويس، وأصبح زعيقها يصم الآذان : الاتحاد، النظام العمل .

لن يضير المعلم عمران ، التبرع بوابور مياه جديد للعزبة . أضغط عليه بعد أن فضحته «فهيمة» فى كل مجلس ، وشدت الملعونة التلغرافات إلى محمد نجيب وجمال عبد الناصر .

هذه هى فرصتى ، إذا رفض عرضت عليه مشاركتى على الوابور، وحل أزمة العزبة ، وتحقيق شعار : الاتحاد. النظام . العمل بالأفعال وليس بالكلام .

صوت عويضة أبو حسنين خارج المندرة يعلو فى غتاتة : أين حضرة العمدة ؟ فى سخرية واضحة .

لم يعد ينقصنى فى هذه الساعة إلا غتاتة عويضة أبو حسنين . لم أندم على تسريح أبى جعفر شيخ الغفر السابق الذى كان سوطه يسبق لسانه إلا فى هذه اللحظة . التى أخذ فيها صوت عويضة أبو حسنين يحاصرنى . البرسيم مات ، ياحضرة العمدة.

عويضة أبو حسنين هو البلية التى يمتحن بها سبحانه وتعالى عباده الأبرار فى هذه الدنيا . غتاتة لا حدود لها . لم يفارق اليوزباشى شهدى الششتاوى إلا بعد إضافة اسمه إلى كشوف المستفيدين من أراضى اللواء عويس، ففاز بخمسة فدادين . كان يسير خلفه يسف التراب ، فإذا نهره ،. بكى مطالبا بقطعة أرض رجل لاينفع معه الكلام ، ولا يردعه إلا سوط أبى جعفر شيخ الغفر السابق.

ناديت على الغفير ، قلت : سرح عويضة أبو حسنين بالحسنى أو بالقوة .

قال الغفير : عويضة أبو حسنين لزق بالأرض ولا يتحرك فيه إلا اللسان.

شتمته . قلت : أرسل لأبى جعفر .

قال : حاضر .

ها هى بداية الفتنة . سوف يقف عويضة أبو حسنين أمام دار العمودية ليلا ونهارا. إذا جاع صمت . وإذا شبع عاود الحديث . فى العشية سوف يضع هدمته تحت رأسه وينام عاريا فى الطل .

غتاتة عويضة أبو حسنين مرجعها نومه فى الطل عاريا صيفا وشتاء.

أرملة الشهيد عكاشة كانت أيضا من المستفيدين، وها هى حائرة بين دارها والخمسة فدادين وقد أسلمت أمرها لزوج ابنتها ، وأصبحت مدينة لطوب الأرض. وقد احترقت أرضها كما احترقت أرض عويضة أبو حسنين .

عمران ينصحنى بالزواج بفتاة صغيرة من البندر والالتفات إلى مصالحى بعيدا عن مشاكل العمودية . وهذه الرغبة تراودنى من حين إلى آخر خاصة فى الليل ، لكننى أخذت نفسى دوما بالشدة ، وروضتها على العفة ، وستهم زوجتى زينة بنات عائلة أبى حميدة ، وإذا طلقتها أو تزوجت عليها وجئت إليها بضرة تجددت النزاعات القديمة .

عمران لا يخفى نزواته ، وقد أصبح الناس يتقبلونه على حاله ، وكلما زادت ثروته غطت مثالبه ، ويبحث عن زوجة صغيرة ترضى بنزواته ، وقد قررت زوجته السابقة فهيمة جرجرته فى المحاكم الشرعية ، وصنعت له فضيحة مدوية .

فاجرة ، لا تستحى من القول لكل عابر سبيل ، وهى عارية الرأس، إنها لاتزال عذراء بعد زواج عامين من عمران ، وأنه خرب حياتها وأفسدها . وإذا وجدت آذانا صاغية ، أضافت . الناقص الرجولة كان يضربنى بالكرباج . وأنا «ولية» حتى أرضى له .

ثم تخفى القحبة وجهها بالشال ، وتفضح عن نقائص الرجل دون حياء .

قلت له الأسبوع الماضى . رد هذه المرأة إلى عصمتك أو أتركها بالمعروف بلا عناد .

نكس رأسه قال ، فضحتنى. صغرت رقبتى .

قلت : هذه القضية لم تعد قضية شخصية يا عمران . لم تعد قضية زواج أو طلاق . لكنها أصبحت قضية عامة تتعلق بحقوق المرأة ، وقد وصلت تلغرافات إلى الحكومة والثورة والنائب العام .

قال : أعرف .

سعى الرجل إلى ارضائها بالمال ، لكن الملعونة رفضت عروضه . قالت . أيام الضرب بالكرابيج انتهت ، وإذا كان اللواء عويس باشا قد دخل إلى المعتقل، فعمران يستحق السجن . أصبحت تقول لكل من ينصحها ، إرفع رأسك يا أخى

أقوال هذه البنية والله تضحكنى . تتحدث هى الأخرى الملعونة فى السياسة لم أزجرها أو أشجعها، لكننى طلبت منها أن تتصرف بعقل وتكف عن شد التلغرافات إلى الحكومة .

صدق عباس أبو حميدة فى قوله : هذه ثورة وسوف تقلب الأوضاع وتجعل لضعاف الناس قيمة وهيبة .

عقله كبير هذا الملعون عباس أبو حميدة ، ولو تخلص قليلا من عناده لرشح نفسه لمجلس النواب وأصبح وزيرا عن الفلاحين والعمال، لكن أموال قارون لاتثنيه عما فى باله ، وزوجته نفوسة بنت الشامى تزعم أن البكباشى جمال عبد الناصر زارهم سرا عدة مرات قبل الثورة ، وأنها عرفته من صورة . وأنت ياعمدة كنت نائما فى العسل . خيبك الله يا أبا جعفر يا شيخ الغفر .

لا مفر من تصريف أحوال الناس وطلبت من الغفير فتح الباب .

ستهم

(٨)

فتحت دارى بحساب للست فهيمة ، حتى لا أغضب منى حضرة العمدة، فزوجى غاضب عليها بسبب شدها للتلغرافات لمحمد نجيب وجمال عبد الناصر.

قال لى أول أمس :

– ماذا تفعل هذه البنت فى الساحة ؟

نظرت إليه بعينين غاضبتين . أجبته بفظاظة ، قلت :

– هذه أمور «نسوان» ولا شأن للرجال بها يا حضرة العمدة .

قال :

– طيب .

اليوم دعوت فهيمة لتجلس معى فى الساحة فى ظل جدار طينى يرمى علينا الظل فى تلك الساعة التى يهمد فيها النفس ، وتلحق الشمس برجلى إذا فردتها فى الشمس .

أفرد رجلى المعطوبة فى الشمس حتى تسخن ثم ألمها وأضعها على الخط الفاصل بين ظل الجدار وبين الشمس العفية التى تغرق الساحة .

جمعتنا ساعة القيلولة ، والقيلولة شجن ، ووحدة .

زوجى حمادة أبو جبل يمنعنى من زيارة الطبيب ، وقد دهمنى المرض مرة ثانية ، وعادت قدمى إلى التخثر ، وفاحت منها رائحة نتنة ، ويقول متشفيا : هذا هو الجرب يا بنت الناس . لا فائدة من العلاج .

أصرخ فى وجهه : هذه حساسية ، وقد ...

ثم أصمت . أكتم سرى وأدفنه فى صدرى . ينظر إلىّ نظرة مجنونة . يود الفتك بى . يعاقبنى على خروجى عن طوعه وزيارة الدكتورة أوديت السيد باشا أحمد فى دار ولد عمى عباس أبو حميدة سرا من وراء ظهره . يتركنى للحساسية لتقتلنى بالنهار والليل ، تأكلنى قطعة قطعة ، من القدم وتحت الركبة حتى ابطى .

وبخه ملازم أول حسن طلعت ، قال له الدكتورة أوديت اختبأت فى عزبة عويس يا عمدة ، وداوت زوجتك ، وأنت نائم فى العسل ياعمدة . وها هو ينتقم منى . يتركنى لعذابات الهرش والحساسية. يشوينى على نار هادئة كما شوى اللواء عويس البغبغان أمام الملك فاروق .

ليتنى أملك شجاعة فهيمة ، فضحت زوجها الحاج عمران واشتكته الى اليوزباشى شهدى الششتاوى وشدت التلغرافات إلى محمد نجيب وجمال عبد الناصر .

أحسست بغمة فى صدرى . من ضيقى بالدنيا . هذا ظلم . يحرمنى من العلاج ويقتلنى بالحياة ، ولا تنقصنى النقود . غاب الأحبة عن عزبة عويس واحدا بعد الآخر فأصبحت كاليتيمة .

استشهد عكاشة فى القنال ، ففقدت بغيابه العون والسند ، كان الفقيد يغسل لى قدمى، ويدعكهما بالدواء، وأرسله بالفوارغ إلى مديرية الجيزة ليجدده لى سرا من وراء ظهر زوجى حمادة أبو جبل . زهية هربت ولا أعرف إذا كانت حية أم ميتة . أطعمها لقمة ، أعطيها هدمه قديمة ترم جسدها فى الشتاء ، وتخدمنى ، تشترى لى حوائجى من الجيزة ، وزاد وغطى غياب ولد عمى عباس أبو حميدة عن

العزبة والبر كله . ترك فأسه وجلبابه فى الغيط ، وهرب من المخبرين والغفر .

فى العهد الملكى ، دعا ولد عمى عباس أبو حميدة مجموعة من الأطباء، وكانت الدكتورة أوديت السيد باشا متخفية فى زى فلاحة من غيط العنب ، وتساعد نفوسة بنت الشامى . دعكت لى يا روحى قدمى بقطعة قطن مبللة بالماء ، وكشفت على أبطى ، وبعدها كتب لى رفيقها الدواء . قال . هذه حساسية ، وقلبى يقول إن الدكتورة أوديت هى التى كتبت لى الدواء وليس رفيقها ، لكنها كانت مختفية، هاربة من البوليس ، وقد سترها ولد عمى .

أحضر لى ولد عمى عباس أبو حميدة الدواء : دهان وست حقن فى العضل عادت لى صحتى وعافيتى . كررته مرة واحدة وطبت تماما . لكن زوجى حمادة أبو جبل ينتقم منى . يقول : هذا جرب يا امرأة والجرب لا دواء له . هذا أمر الله .

اقلب فكرى . ارسل فهيمة بالفوارغ الى مديرية الجيزة أو زيارة الدكتورة أوديت فى عيادتها فى المعادى سرا . تقول لها : ابنة عم عباس أبو حميدة ، مريضتك فى عزبة عويس تقتلها الحساسية ، وزوجها حضرة العمدة حمادة أبو جبل يمنعها من الخروج، وتود تجديد الدواء . هذه دكتورة أميرة .

حككت منتصف قدمى حكة خفيفة بيدى . طلبت من فهيمة أن تفحص لى قدمى وأصابعى . قلت : قدمى تاكلنى يا فهيمة .

انحنت على رجلى. قالت . قدم خرطها خراط البنات . وبعدها أضافت بقعة حمراء صغيرة مثل حبة الفول . هذه حساسية ياخالة ستهم ودواؤها معروف . الحنة . هـذه المرأة الشـابة عديمة الخبرة . الجاهلة . شـخصت مرضى من أول نظرة . حساسية، أما زوجى حمادة أبو جبل المتعلم فينكر على الحساسية، ويذلنى بحكاية الجرب ، لأننى لم أنجب له ذكرا .

يكسر قلبى. يقول فى الرايحة والجاية. هذا هو الجرب. ولا علاج له. هذا مرض موصوف فى الكتب .

طلبت من فهيمة إعداد فنجانين قهوة ، وتعتبر نفسها فى دارها . أخذت أتأملها وهى تتمخطر أمامى . قوامها مشدودة وعفية . وجهها مدور وجميل . قلت فى نفسى : خيبك الله ياعمران . كيف طاوعك قلبك على ضربها بالكرباج .

صحيح الستات ولايا وجناحهن مكسور . والظلم واقع عليهن من فوق وتحت . وزنقتنى الضحكة . قلت فى نفسى. وفهيمة المسكينة وقع عليها الظلم من فوق وتحت ومن الخلف أيضا .

فى صباى كنت جميلة مثل فهيمة . كان الصبيان والشبان يتمنون الزواج منى ومال قلبى إلى ولد عمى عباس أبو حميدة ، وكان يكبرنى بعدة سنوات ، ثم وقعت الواقعة بين عائلتى أبو حميدة وأبى جبل ، وقتل من قتل وجرح من جرح وحرقت المحاصيل والبهائم، ففرض اللواء عويس وصايته على العائلتين وزوجنى من حمادة أبو جبل الذى كانت تتمناه البنات فى العزبة وعينه عمدة لعزبة عويس أما ولد عمى فشرق وغرب وتزوج من نفوسة بنت الشامى وأهلها من الشام .

تزوجنى حمادة أبو جبل بنية كسر شوكتى . عاملنى وكأننى الجثة التى كان يتعين تشييعها من عائلة عباس أبو حميدة ، ثم أنقذها اللواء عويس من القتل

عشرون عاما فى عصمته ويعاملنى كجثة . لا يرمى بصره علىّ ، ولا يمد يده على جسدى مثل بقية الأزواج . اذا تسامرنا كان حديثنا حول مدخول الأرض والبهائم، ليس بخيلا معى ، ولا يقتر علىّ ، لكنه يخنقنى ببروده .

يدفعنى إلى شراء الأرض قيراطا بعد قيراط ، يقول . طين الأم من نصيب ابنتها وابنتنا أصبحت عروسة .

تناولت فنجان القهوة من فهيمة ، سألتها :

– ألا توجد أخبار عن زهية ؟

قالت :

- لا ويقال أنها غرقت فى رياح الجيزة .

قلت :

- مسكينة . عاشت وحدانية وآخر المتمة ماتت غرقانة .

كلما همت فهيمة بالقيام خوفا من حضرة العمدة ، طلبت منها البقاء قليلا أود مفاتحتها فى مسألة الذهاب إلى الدكتورة أوديت سرا، لكننى أخاف من طول لسانها ، فهذه امرأة غجرية ، ولا تبل فى فمها فولة ، كان عكاشة يرى ويسمع ولا يتكلم . تضحك وجنتاه ويفتح عينيه ويغمضهما وينطلق فمه بالموال وراء الموال بدلا من الكلام . عليك الرحمة ياشيخ عكاشة . بموتك فقدت العزبة مستودع أسرارها. بينما هذه المرأة الجالسة إلى جوارى لا تمانع فى تعرية ظهرها ومؤخرتها لكل من هب ودب . قائلة : يضربنى بالكرباج ويقطع جلدى ، وربما أضافت شيئا آخر عن نقائص الرجل أمام الرجال والنساء دون حياء .

هذه امرأة مكشوفة وعديمة الحياء . ليس لها كبير . وأنا أود مسك نقيصة فيها لأربط لسانها بها وأضمن سكوتها . باغتها على غفلة . قلت :

- حقيقة يابنت أنت تحبين كرامة ابن سرحان السقا ، وكنت تطعمينه الدجاج والحمام والفطير المشلتت بيديك ، لما جلده اللواء عويس فى الحول قبل الماضى ، قبل طرد الملك .

أجابتنى ولم تهتز لها شعرة أو يرمش لها جفن .. عيناها مفتوحتان تندب فيهما رصاصة، قالت الملعونة فى ثبات :

- لا يا خالة . كرامة متعلم وقلبه ...

صمتت . توقفت عن الحديث عن عمد. زجرتها بنظرة من عينى . أكملت تكشف المستور . قالت :

- كرامة يحب الأميرة جويدان ابنة اللواء عويس باشا ، أما زهية فقد عشقته بجنون ، ولما يئست منه ، وتأكدت من حبه للأميرة جويدان ، بعد أن وعدها بالزواج ودخل بها وحبلت طفشت ورمت نفسها فى رياح الجيزة .

هذه الحكايات أعرفها ولا تلذنى ولا تنفعنى.، العمدة نفسه اخبرنى فى ليلة وهو يرتعب أن ولد السقا ساعد الأميرة جويدان فى تهريب أموالها ومجوهراتها عند الجرد ، وخان الأمانة ، وهذه جريمة ضد الثورة وعقوبتها الإعدام ، وفيها سين وجيم وسوف تجر مصائب .

فهيمة ليس من السهل كسر شوكتها . قلت لنفسى فى سرى . من تعرى ظهرها ومؤخرتها لمن هب ودب على السكة لا يعيبها العيب نفسه .

حضرة العمدة عنده حق وألف حق ، عندما منع هذه المرأة من دخول دارنا . يحافظ على مصالحه مع المعلم عمران .

من البداية لم أسمح لها بالإشارة إلى المصيبة التى تهدد العزبة. مصيبة السدة الشتوية . قلت لنفسى. إذا نطقت بكلمة كده أو كده حول تذمر المزارعين وخوفهم من موت البرسيم، سوف تنشرها .

يئست منها ورميت طوبتها . قمت ووضعت قدمى فى الشراب ، تبعتنى فهيمة ، مستأذنة بالذهاب ، أذنت لها وودعتها حتى نهاية الساحة وليس باب الدار .

فشلت فى جرها لتعمل لحسابى سرا .

د . أوديت

(٩)

إنشغلت بالمرضى ، ونسيت نفسى ، وقرب الساعة العاشرة ، قرصنى الجوع وتبينت أننى لم أتناول شيئا من الطعام طول النهار ، وقد انشغلت فى لقاءات سياسية .

استدعيت زهية إلى غرفة الكشف . طلبت منها أن تعد لى كوبا من الشاى وساندوتش بالجبنة . قالت : الأكل جاهز فى غرفة المكتب .

قمت خلفها .

وجدت عدة قطع من البوفتيك وحبة طماطم وخيارة وقطعة خبز – كنت جائعة – هذه الفتاة لا يفوتها شىء ، قلت : الله يجازى شيطانك يا بنت .

قالت : حضرتك لم تحضرى على الغداء ، احضرت لك نصيبك .

قضمت قطعة البوفتيك على عجل ، وغرست أسنانى فى الخيارة فى لهفة، دون شوكة أو سكينة ، قلت : تناول الباشا افطاره اليوم ؟!.

قالت زهية : نعم . وعلى الغداء حضر ضيوف ، وكنت مشغولة فى المطبخ .

قلت : ضيوف من النادى ؟

قالت زهية : ضباط جيش . وسمعت اسم البكباشى جمال عبد الناصر . لكننى لم أره .

وقفت اللقمة فى حلقى . حتى بيتى لا يسلم من زيارته . توقفت عن الطعام وقد سـدت نفسى . طلبت من زهية كوبا من الشاى واحضاره لى فى غرفة الكشــف .

إذا اعتقلت مرة أخرى سوف أغلق العيادة نهائيا وأتفرغ للعمل السياسى، فى السابق كان رجال القلم السياسى يفتشون العيادة من ورائى ولا يلمسون الأدوات الطبية ، أما أمباشية الشرطة العسكرية وضباطها فى العهد الجديد، فلهم ولع بسرقة المقصات والمشارط والعبث بالأدوات الجراحية وتحطيم ما لايروقهم منها .

انتهيت من الكشف على سيدتين ، ثم طلب رجل مقابلتى على عجل بسبب مغص كلوى ، استربت فى أمره ، فرواد عيادتى من النساء الحوامل والأطفال . محاولة مفضوحة لمضايقتى . طلبت من الممرضة الوقوف إلى جانبى وعدم مغادرة غرفة الكشف إلا بأمرى .

استقبلته . دعوته إلى الجلوس . هيئته لا تدل على إصابته بمغص كلوى أو مرض آخر . بدأت فى تدوين بياناته :

الاسم : شهدى الششتاوى .

العمر : ٣٤ عاما .

المهنة : مهندس .

سألته عن شكواه ، سجلتها ، وزنت كل كلمة نطق بها . طلبت تعرية ذراعه لقياس ضغطه. قسته . كان عاديا . طلبت منه أن يخلع قميصه خلف الستارة ، ثم يتمدد على سرير الكشف ولا ضرورة لخلع الحذاء .

فعل كل ما طلبته بهمة ونشاط تتناقض مع ادعاء المغص . كشفت عليه . لم يكن هناك ما ينم عن إصابته بمغص أو التهابات بسيطة أو برد أو خلافه .

توجهت إلى مقعدى . قلت : خلاص . اتفضل البس .

انتظرت حتى ارتدى ملابسه . دعوته للجلوس . قلت : المغص ضاع .

قال : نعم.

اغتظت ، تمالكت ، قلت : الحمد لله .

رد علىّ بابتسامة رائعة . كان هادئا . لكن دون استكانة أو خوف يتطلع إلىّ كما يتطلع المريض إلى طبيبه . احترت فى أمره ، وبعد فترة راجعت بياناته مرة أخرى . قلت . لا حاجة إلى دواء .

قال : متى أحضر لإعادة الكشف والاستشارة ؟

قلت : لا داع .

ثم استدركت ، قلت : إلا إذا جد جديد .

قال : تحت أمرك .

وقام .

راقبته وهو يقطع غرفة الكشف فى غيظ . أشرت إلى المرضة بشكل خفى بصحبته إلى الخارج . هذا مريض بالهوس ، أو أحد ضباط الشرطة العسكرية وجاء متخفيا لفحص العيادة ، وهذا هو الاحتمال الأكبر .

تضايقت ، ففى عيادتى من هى فى حاجة عاجلة إلى الكشف ، وقد سرق هذا الرجل منى وقتا ثمينا بفعلته الحمقاء .

هل يدعى حقيقة شهدى الشاشتاوى ؟

بعد أقل من دقيقة عادت إلىّ المرضة خائفة . روت لى أنه سألها عن زهية قبل إنصرافه ، فأجابته بأنها لا تعرف أحدا بهذا الاسم ، فشخط فيها قائلا : أنت تكذبين .

استمعت إليها . طلبت منها أن لاتروى هذه الحكاية الليلة لزهية . وحتى أطمئنها قلت لها إننى أعرف سبب سؤاله عنها .

مايشغلنى الليلة إلى جانب العناية بمرضاى ، هو تكوين جبهة وطنية لمواجهة حكم العسكر ، ولست على إستعداد لشغل بالى بأمور المخبرين ، فوقتى وأعصابى لا يسمحان لى بالالتفات إلى هذه الصغائر .

آخر مريضة تربط رأسها بمنديل أحمر فاقع لايتناسب مع حسن هندامها، كما أن طريقة سيرها وجلوسها لا تتفق مع شكواها من نزيف رحمى شديد .

كنت متعبة للغاية ، تطلعت إليها ، متمنية أن تكون حالتها بسيطة وليست فى حاجة إلى كشف رحمى ، فى هذه الساعة بعد منتصف الليل .

نزعت رباط رأسها ، اعلنتنى أنها تحمل لى رسالة عاجلة ، فقد تعرض ريفى لأزمة قلبية ، أمس ، وكان فى صحبته عبده ، وقد توجها بعدها إلى عين الصيرة . أما خالد القويسنى فقد دخل إلى المستشفى ، وهو فى حالة سيئة ، وقد استولى المرضون والأطباء على نقوده كلها .

تأملتها . اذا صحت اقوالها فهى مصيبة . ريفى هو عباس أبو حميدة والأزمة القلبية تعنى تعرضه لكمين . سألتها . هل دخل ريفى إلى المستشفى ؟

قالت مبتسمة . لا . كررت سؤالى عليها . هل هى متأكدة ؟ قالت . نعم. أضافت . خالد القويسنى ، المسكين ، سرق المرضون والأطباء نقوده .

تعنى أن الضباط والمخبرين قد هاجموا خالد القويسنى ، واستولوا على المطبعة والمنشورات .

سألتها : متى بدأ هذا النزيف ؟

قالت : منذ ٢٤ ساعة .

بدأت الحملة قبل زيارة جمال عبد الناصر لأبى اليوم . وقبل زيارة شهدى الششتاوى لى فى العشية .

شكرتها . طلبت منها الحذر . قالت : حاضر .

لا أعرف إذا كانت تدرك معنى كلمات هذه الرسالة بالتفصيل ، أم أنها محل ثقة لواحد من الرفاق ، وكلفها بنقل هذه الكلمات لى .

واستقر عزمى، على محاولة معرفة التفاصيل ، وضرورة مواجهة هذه الحملة .

شكا لى عباس أبو حميدة عدة مرات فى الشهر الماضى ، من تسيب فى التعاملات بين الأجهزة الإدارية ، وأن خالد القويسنى المسكين ، سوف يسقط بسبب إهمال الآخرين .

وهذا ماحدث .

إذن قبض على خالد القويسنى ، ووراء ذلك تسيب أو خيانة .

القبض عليه سوف يثير شكوكا كثيرة ، ويتعين احتواء هذه الأزمة قبل أن يستخدمها أعداؤنا فى شن حملة جديدة علينا كما حدث من قبل فى سنوات الوحدة .

خالد القويسنى لن يكف عن طلب تحقيق لإثبات براءته من الإهمال. فهذا شرفه .

آلام خالد القويسنى لن يخففها غير عباس أبو حميدة ، ولكن كيف ؟

خالد القويسنى سوف يتحمل التعذيب ولن يعترف ، لكنه لن يقبل تهمة التقصير من الرفاق ، ويجب اقناعه بتأجيل طلب التحقيق بسبب هذه الظروف .

إرسال رسالة إليه فى السجن فى هذه الظروف مهمة لن يقدر عليها إلا زوج صديقتى سونيا ، فهو من الضباط الأحرار ولايزال له نفوذ ، على الرغم من عدم ثقة جمال عبد الناصر فيه بسبب زوجته الأجنبية ونشاطها السياسى السابق .

قلت لنفسى : غدا أرى .

اللواء عويس

(١٠)

أزمتى القلبية قد طالت هذه المرة واستغرقت النهار بطوله . دهمتنى الأزمة قرب الضحى والشمس ساطعة والآن الثريات مضاءة .

أخى حمدى بك إلى جوارى والطبيب قرب فراشى ، لابد أنها كانت خطيرة هذه المرة ، وليست مثل الأزمات السابقة التى تعودت عليها .

دهمتنى الأزمة وأنا جالس على الكرسى بعيدا عن غرفة النوم ، لا بد أنهم حملونى إلى الفراش وأنا فى غيبوبة . تضايقت . فقد دهمتنى فى لحظة خاطفة قبل أن أضع الحبة تحت لسانى أو أرش سقف حلقى بالبخاخة .

آخر مايرد على ذهنى أننى كنت ساخطا لأننى لم أعلق الجرس إلى صدرى . ظننت أنه فى مقدورى دفع الكرسى المتحرك وتناول الجرس ، لكنها لحظات كومض البريق . الموت هو الحقيقة الوحيدة فى هذا العالم .

نظراتهم فيها أسى ، وفى لمعة عيونهم عطف علىّ ، وأنا أكره فيهم هذا الاشفاق .

حقيقة المرض عورة والضعف مذلة . والفلاح الحقيقى لا يظهر ضعفه.

قلت فى غضب :

- ابتعدوا .

أنا لست ذبيحة لتتلقفها الأيدى .

قال الطبيب :

- أزمة عادية .

رأيت الكذب فى عينيه . قلت :

- لى حساب معك .

قمت بصدرى يقظا .

أشارت الأميرة شويكار إلى أبيس وقطامش ليقتربا بالكرسى ، لكننى رفضت مساعدتهما لى . سرت عدة خطوات مستندا إلى عكازى . وبعد عدة محاولات وضعت مقعدتى على الكرسى ، وقد أسرعت دقات قلبى ، وبان لهاثى ، فأعطيت العكاز إلى أبيس وحررت يدى .

أحس بصفاء ذهنى ، وكأننى نمت دهرا . وغالبنى الخوف من صحوة الموت زاغ بصرى لكن ذهنى ظل على حاله صافيا .

تقلقنى أحوال العزبة وقد خرجت أمورها من يدى . حطمت زوجتى الأميرة شويكار وابور المياه الوحيد وأحرقت موتوره ، وها هى السدة الشتوية قد جاءت فى موعدها ، فعطشت الأرض ومالت عيدان البرسيم وذبل القمح ومات الخضار .

كلفت قطامش بتوزيع السماد على المزارعين الجدد، فثارت ثائرتها وأحرقت مخزن السماد، المجنونة ، وكادت تقضى علينا وعلى العزبة ، ومن حسن الحظ حمل المزارعون زكائب السماد فى لحظات بعيدا عن القصر وعن اسطبلات الجياد وحظائر الماشية .

جنونها من جنون والدها الأمير رفقى .

طلبت من أخى الخروج إلى البهو ، ودفعت الكرسى بنفسى ورفضت كل مساعدة ، وإن كنت من وقت إلى آخر أتوقف لأسعل أو أبصق .

وضعت قداحتى وسيجارى على المائدة الصغيرة التى تفصل بيننا وقد فارقتنى كل رغبة فى التدخين . قلت :

– كل مزارع حصل على قطعة أرض فى حاجة إلى السماد والمياه فورا .

أجابنى أخى حمدى بك ، قائلا :

– أعرف . ومجلس قيادة الثورة على علم بهذه القضية ، وهم فى صدد إنشاء بنك جديد لتمويل المزارعين ، ولكن هذه التجربة محكوم عليها بالفشل أيضا بسبب ضعف الجهاز الحكومى .

تنهدت . خرج صوتى من فمى كالخوار . قلت :

– أرضى يا حمدى بك تبور أمام عينى . وضعت فيها عرق السنين وقسوت على المزارعين ، وفى نهاية «المتمة» تبور .

قال حمدى بك :

– هذه قضية سياسية وليست زراعية . لا أود أن تتقاطع خطوطنا حولها من قريب أو بعيد ، مع الضباط ، فحول المسألة الزراعية – كما يطلقون عليها – تضيع رقاب .

قلت :

– لدىّ كشوف المزارعين الذين وزعت عليهم الأرض . مائتان وعشرون عائلة . أعطى كل عائلة خمسة جنيهات . انقذ ألفا ومائة فدان من بوار محقق . هؤلاء فلاحون أبا عن جد ولا تنقصهم الهمة .

انتفض أخى وارتعشت يداه ، حتى ظننت أن أزمتى القلبية قد انتقلت اليه وندمت لغياب الطبيب وقد أذنت له بالمغادرة . قال :

– كف عن هذا الحديث . ولا تدع هذه الأفكار تطوف برأسك . هذه محاولة لقلب نظام الحكم . اقطاعى وياوران ملك مخلوع يكتسب الفلاحين إلى صفه ضد مجلس قيادة الثورة . هذه محاولة لقلب الحكم . انهم لايفهمون الأمر إلا على هذا النحو ، اسألنى أنا عنهم . اليوزباشى شهدى الششتاوى لم يرو فى حياته شجرة ولم يرقد تحت بهيمة ، ماذا تنتظر منه ؟!

هدأ أخى وكنت أراقب تقاطيع وجهه وهى تهتز فى غضب، يبدو أننا قد ورثنا التهور وسرعة الغضب وانفلات الأعصاب عن والدنا .

أصبحت أخشى عليه ، من الإصابة بما أصابنى . قلت :

– اهدأ يا أخى .

غير دفة الحديث ، قال :

– اليوزباشى شهدى الششتاوى فسخ خطوبته . أصبحت سيرته على كل لسان .

أفصحت عن رأيى فى هذا الرجل ، قلت :

– هذا رجل متوحشَ . تصور، عندما جاء إلى القصر لجرد ومصادرة ثروتنا فى العام الماضى قطف حبة مانجو خضراء وقضمها ورمى بها. لم تلفت رائحتها الطيبة خياشيمه ، وعندما قذف بها على الأرض ، أحسست يا أخى وكأنه يوجه طعنة إلى صدرى . بعدها رفضت استقباله على انفراد كزميل فى سلاح المدفعية الذى خدمت فيه فى شبابى، وتركته لعبد الواحد افندى وقطامش .

روى لى أخى شيئا عنه ، قال :

– اليوزباشى شهدى الششتاوى من المقربين من الرئيس جمال عبد الناصر للأسف ، ويبدو لى أنه يستخدمه فى المهام القذرة ، وشهادته ضد رفاقه

فى سلاح المدفعية أصبحت شائعة فى أوساط الضباط .

أبعدت عنى سيرة اليوزباشى شهدى الششتاوى ، وعدت إلى مشاغلى ، وبعد فترة تريث قلت لأخى :

– سوف أعين فى خدمتى شابا فيه لماحية وسمات النبوغ المبكر ، وثقتى فيه كاملة ، وقد عاون الأميرة جويدان فى تهريب معظم مجوهراتها وأموالها بعيدا عن لجان الجرد أعينه وأطلب منه تقديم الدعم للمزارعين سرا .

عاد إلى هياجه ، قال :

– إياك وهذه الحماقة . العزبة والسراى تحت رقابة شديدة منذ اعلان الجمهورية فى ١٨ يونيو الماضى ، احفظ هذا التاريخ . الأميرة شويكار تثير الظنون حولها بسبب ترددها على الملحقين العسكريين الأجانب . لقد كان الأمير محمد عبد المنعم الوصى السابق على العرش يستعد لدعوة الانجليز للتدخل بتشجيع من زوجته الأميرة نسل شاه صديقة الأميرة شويكار ، ورد الرئيس جمال عبد الناصر بإلغاء الملكية من أساسها ومصادرة أموالنا .

عاد السعال إلىّ ربما من ضيقى . بصقت . هذه الخطة كنت أتمنى أنا نجاحها لنخلص من حكم أولئك الضباط الصغار الحمقى . لكننى كبت مشاعرى، لأنه كان فى مقدورى حماية عرش مليكى ، لكننى ضيعت كل شىء بغفلتى، بحماقاتى التى لاتعد ولا تحصى . الضابط المهزوم لا يحق له الكلام بعد هزيمته ، ونصيبه رصاصة يطلقها بنفسه على رأسه ، وأنا ضابط وأعرف الأصول العسكرية الحقة . فصمت . بلعت الكلام . من حقى أن أكتب ورقة أو مذكرات، ولكن قبل إطلاق الرصاصة، وحيث أنى لم ولن أطلقها على بالصمت . كتابة وصية أو مذكرات أيضا ليس من حقى .

أخى حمدى بك لم يلتحق بالعسكرية ولا يعرف أصولها ، كما أنه لم يشغل باله بالزراعة ، ولا يعرف رحيق الشجر ، ولا يعرف ذلك التراب الناعم الذى يهب على الأنوف ساعة جمع المحاصيل ، ولا يعرف ملمس الأرض المروية ، وملمس الأرض المتشققة العطشانة . استخدم خبراته المالية فى المضاربة فى البورصات فى الداخل والخارج ،. ثروته كلها أوراق وحسابات فى البنوك. و ها هو يضارب فى بورصة التاريخ ويلعب بأوراق ثمينة فى جعبته ويعمل مستشارا اقتصاديا لمجلس قيادة الثورة .

قال أخى موضحا :

– هذه ثورة ، تقلب الأوضاع ، فتختلط الطبقات بعضها ببعض أو تنفصل بعضها عن بعض ، وعملية الخلط والفصل تستمر لسنوات أقل من أصابع اليد الواحدة أو تستمر لعدة عقود ، وهذا يتوقف على قوة الدفع لدى القائمين عليها ، ثم تفرز قوى المجتمع الجديد قياداتها وصفوتها لقيادة الحياة. هذا ماحدث فى الثورة الفرنسية وكذلك فى الثورة البلشفية أيضا . وها هو الدور قد حل علينا بأسرع مما نتوقع وبعد أقل من عامين ، لنتقدم الصفوف ، ليس من أجل مصالحنا الفردية أو نواتنا، ولكن من أجل إقامة قاعدة صناعية فى البلد ، وبأموال الحكومة وليس بأموالنا وأيضا. أنت لا تدرى يا أخى قدر الأعمال المسندة إلىّ وضخامتها.

قلت فى حسرة :

– هذه يا أخى ليست أيامى ، أنا ياوران ملك مخلوع.

قال فى برود متعمد ، وكأنه يسعى لمضايقتى . وأنا لن أغفر له هذا التعنت معى . وكأنه يمتلك الحكمة ، قال :

– هذه ليست قضية أفراد أو نوات بعينها ، لكننى أتحدث عن حركة

التاريخ التى لا تتوقف دقيقة واحدة . هذه الأيام ربما ليست أيام اللواء عويس ياوران الملك المخلوع فاروق ، مايشغلنى هو مصير الأميرة جويدان وأبنائى وبناتى وأحفادى أيضا . كيف تعود الأيام لتصبح أيامهم هذه هى القضية. ما نفقده اليوم فى قسوة ، علينا استرداده غدا بعد سنوات طالت أم قصرت ، وبالطرق السلمية ووفقا لقوانين التاريخ أيضا .

راقتنى فكرته ، قلت :

– فهمت . ما نوزعه اليوم عليهم من أطيان قسرا ، نأخذه غدا برضاهم .

خالفنى الرأى ، قال :

– لا أقصد المسألة الزراعية ، أنا أتحدث عن حركة المجتمع . اذا كان من المحتم علينا ترك الأراضى للمعدمين ، فأمامنا الصناعة والتجارة وأعمال السمسرة وإدارة المصارف . معنا الخبرة .

هذه كلها أمور لاتهمنى ، قلت :

– أنا لايهمنى إلا سلامة أرضى من البوار . حتى إذا لم تعد لى فى حياتى .

رأيت الموت هذا الصباح ، دهمتنى الأزمة ، فهربت روحى ، وعجزت عن وضع الحبة تحت لسانى . قلت :

– أود القيام بعمل صالح قبل مماتى .

قال أخى :

الصلاح الآن فى الكُمُونْ .

١

أخى الأصغر يرانى كدودة . يحدثنى عن الكُمُون . يعاملنى معاملة القاصر عديم الأهلية وكأنه قد امتلك؛ الحكمة وأصبحت وقفا عليه . هه صدقت توقعاته ونجح فى بيع أطيانه منذ سنوات طوال وهرب أمواله خارج مصر وأشتغل بالأوراق المالية والمضاربات ، لكنى رفضت وقتها نصائحه عن وعى . رفضت بيع أطيانى وتحويلها إلى أوراق مالية ، وها هو يشق طريقه بنجاح فى العهد الجديد ، لكننى غير نادم عما فعلت ، فالربان لايغادر السفينة ساعة غرقها وقد بقيت مخلصا لمليكى . سألت صديقتى البريطانية مارجريت سنكلير قبل حريق القاهرة عن الجبر والمصير والاختيار ، فقالت لى : الاختيار الحر هو اسمى تطلعات الإنسان ، وقد اخترت، ولا زلت سعيدا باختياراتى . عيناى فى الصباح تطلان على أشجار المانجو والبرتقال ، ولى من الأرض اربعمائة فدان تكفينى . نظرت إلى أخى ، وقلت :

– هذه اختياراتى ولست نادما عليها .

فى لهجة ودية، قبل انصرافه ، قال :

– الصبر هو أصلح الأشياء هذه الأيام وقد وعدتنى بالتريث .

وبعدها أكمل مستعطفا ، قال :

– من أجل الأميرة جويدان .

كان يود أن يقول من أجلى ومن أجل مستقبلى ، لكنه أراد أن يثير نخوة الأبوة فىّ ، فأشار إلى ابنتى . قلت :

– سوف أفكر.

ضاقت نفسى ، قلت على الفور فى غضب :

– لا أعد بشىء . لا أعد بشىء ..

أخذت أكررها عدة مرات وفى كل مرة يعلو صوتى ، فانصرف أخى خوفا من اثارتى وأصابتى بأزمة جديدة .

كتبت لى مارجريت سنكلير فى مقدمة مذكراتها :

«عزيزى عويس ، من قوتك الجسدية أستمد طاقتى التى أبعثرها فى تأملاتى الروحية ودراساتى الفلسفية . تقاطيع الرجولة التى ترتسم على وجهك الصارم تأسرنى بهالتها المتوحشة . طبيعتك من فيض الطبيعة الغنية بالعواطف والصواعق والصحارى الحارقة والمحيطات الهادرة .

الجبال الشاهقة تظل مهجورة حتى يقف البشر أمامها فيكتشفون جبروتها، وهكذا أنت . اقتربت من عالمك رويدا رويدا وعلى مهل ، فابتلعتنى شعابك وعجزت عن تسلق سفحك وناضلت من أجل الوصول إلى القمة المقدسة».

فهمتنى هذه المرأة الغربية عن مصر . سعت إلى جذبى إلى عالمها الغنى، ولكننى توقفت عند جمال جسدها وتركت الولوج إلى جنتها . اكتفيت بالوقوف عند البوابة ولم أدعها تصحبنى إلى الداخل . وعندما فارقتنى ، وجدت نفسى واقفا بمفردى على كوة من الأطلال . ظللت مترددا بين صحبتها والبعاد عنها . دنياى كانت غنية ، وأعمى غناها عينى ، فاكتفيت من الغابة بشجرة واحدة .

ابنتى الأميرة جويدان من طينة مارجريت سنكلير ، الكتاب لايفارقها، ولها متع روحية ثرية ، وحدس بالأحداث قبل وقوعها ، وقد منحها الله حسن بصيرة منذ طفولتها .

أما زوجتى فتنام وتصحو وتقوم وتقعد وليس على لسانها سوى الهذيان بضرورة مواجهة العسكر بالقوة أو التآمر، ولا تدرك هذه المرأة أن المعركة قد حسمت لصالح العسكر وفاروق نفسه لايفكر فى العودة وقد غدر به الجميع .

الأميرة «علية سيف النصر» من طينة مارجريت سنكلير ولأسع لاكتسابها

هى وابنتى الأميرة جويدان إلى صفى والوقوف بقوة إلى جانب مزارعى عزبة عويس الغلابة .

أما عبد الواحد افندى وقطامش فقد صحبانى فى جولاتى المسائية وعرفا عشقى للفلاحة ولتربية الماشية، وظل احتقارهما للزراعة والمزارعين على حاله ، والمصيبة أنهما يودان تقليد الأفندية والمعيشة فى البندر بعيدا عن الأرض وخيراتها، وربما يسخران منى فى سرهما لأصرارى على المعيشة فى عزبة عويس بعيدا عن الزمالك أو جاردن سيتى .

والله لو طالتهما يدى فى هذه اللحظة لأفرغت فيهما رصاص مسدسى، فهذه كائنات مشوهة غير خليقة بالحياة، تستنشق هواء العزبة المعطر ، وتنعم بخيراتها وتأنف من الطين والتراب. يطمعان فى العمل فى المكاتب فى المدينة : كتبه أو سعاة. خيبهما الله .

من الغيظ ارتعشت يداى ، وأحسست بهبوط مفاجىء، أسرعت بتناول الجرس المعلق إلى صدرى ، ودققته بعنف ، ليلحق بى أبيس خادمى الأمين ، وطفرت دمعة على خدى ، خوفا من تأخر أبيس، فالموت يأتينى فى لحظات ويذهب عنى فى لحظات .

وتعلقت روحى بعلبة الدواء البعيدة عنى .

د . السيد أحمد باشا

(١١)

قبلت دعوة الدكتور محمود فوزى للعشاء . كنت لم أره منذ فترة طويلة فذهبت إليه فى شارع الهرم ، وفى جعبتى أسئلة كثيرة حول موعد بدء المفاوضات مع الإنجليز ، بعد أن أشيع أن حكومة المحافظين قد بدأت تتهرب من الدخول فى جولة جديدة بعد خسارتها الجولة الأولى بخصوص السودان وموافقة مصر على ضرورة منح السودانيين حق تقرير المصير .

وكان السفير البريطانى فى مصر رالف ستيفنسون قد أدلى بعدة تصريحات غامضة تشير إلى أن حكومته تتلكأ وأن الإستعمارى العجوز تشرشل يراهن على إنفجار فى القاهرة بين أعضاء مجلس قيادة الثورة .

صارحنى الدكتور محمود فوزى عن قرب استئناف المفاوضات مع الإنجليز وأن موعدها قد تحدد بصفة تقريبية فى الأيام القليلة الماضية ، والفضل فى ذلك يعود إلى أنشطة متعددة قام بها رجالنا داخل المعسكرات البريطانية فى القنال بقدر محسوب ، وقد وضع جمال عبد الناصر خطوطا حمراء لتلك العمليات لايسمح بتجاوزها ، خطف ضباط وجنود القاعدة دون المساس بسلامتهم . إجراء عمليات تخريبية داخل المعسكرات البريطانية والحصول على أكبر قدر من الوثائق

السرية ، وقد حصلت مصر على وثائق خطيرة للغاية تكشف عن نية تشرشل .

وأضاف الدكتور محمود فوزى قائلا :

- إن أشد ما أغضب جمال عبد الناصر من جماعة الإخوان المسلمين هو رفض الجماعة المشاركة فى العمليات الفدائية فى منطقة القنال ، وقد فشل صلاح سالم فى إقناعهم بضرورة الإسهام فى تلك العمليات ، ولكن للحقيقة والتاريخ قد أسهم شبابهم فى العمليات دون تعليمات من الجماعة . أما الماركسيون فيسهمون فى العمليات تحت قيادة مجموعات من الضباط وإن كانوا لايرحبون بالخطوط الحمراء التى وضعها جمال عبد الناصر ، كما يضايقهم تدخل أجهزة الأمن ومراقبتها .

جمال عبد الناصر يخطط لعمليات محدودة للضغط على الانجليز لبدء المفاوضات بينما الماركسيون يسعون للتغلغل بين الجماهير لإقامة قاعدة لنضال طويل الأمد . فلسفتان مختلفتان تؤدى إلى شد وجذب ، ولكن الخيوط كلها فى يد جمال عبد الناصر .

الدكتور محمود فوزى - بطبيعته - رجل حذر قليل الكلام ، وهو مهندس الدبلوماسية المصرية ، وأحسست أن حديثه يخفى شيئا لم يفصح عنه لى بعد ويقترب منه فى حذر .

ليس من المعقول أن يكشف لى الدكتور محمود فوزى عن الأبعاد السياسية للعمليات الفدائية فى القنال دون سبب قوى ، فأخبار تلك العمليات تثير حماس الناس ، وكأن الفدائيين سوف يخرجون الإنجليز ويحررون القاعدة فى حرب طويلة الأمد بينما هى فى حقيقتها عمليات محدودة .

انتظرت أن يفصح الدكتور محمود فوزى عن بغيته من دعوتى ، وفجأة أخطرنى بأن الرئيس جمال عبد الناصر ومعه بعض الضيوف سوف يحضرون .

رحبت .

لا يفتنى الآن أن هذا العشاء مرتب .

هى جلسة عمل إذن .

دخل جمال عبد الناصر وفى صحبته الكاتب الصحفى محمد حسنين هيكل

حيانا جمال عبد الناصر مبتسما . ووجه حديثه إلى الدكتور محمود فوزى قائلا :

– الدكتور السيد أحمد السيد أتعابه عالية ، إذا دفعت له وزارة الخارجية سوف أحيلكم جميعا إلى ديوان المحاسبة .

ضحكنا جميعا .

أدركت من الطريقة التى حيانى بها جمال عبد الناصر ، ومن لمعة عينيه ، والطريقة التى قطع بها غرفة الصالون وإتخاذه لجلسته ، أنه لم يطلع الدكتور محمود فوزى على إتصاله بى لسؤالى فى بعض الأمور .

تحدثنا حول المفاوضات مع الإنجليز ، وفجأة سألنى الدكتور فوزى ، قائلا:

– بعقلية المحامى الدولى . كيف ترتب أوراق هذه القضية ؟

قلت :

– أعمل على عزل عناصرها ، وأبين الأسباب التى تدعونى إلى ذلك . الجلاء دون قيد أو شرط . بعدها يمكن مناقشة مسألة الدفاع عن الشرق الأوسط وأركز على الجهود العربية فى الدفاع عن نفسها . أما قضية الصراع العربى الإسرائيلى فهى قضية مؤجلة تخص عدة بلدان عربية وليست مصر وحدها .

أضاف جمال عبد الناصر قائلا :

– أكثر مايشغلنى هذه الأيام هو عزل العوامل الداخلية عن سير المفاوضات فى الشهور القادمة .

وبعدها صمت .

لم يسأله أحد منا عن مقصده ، وكان من الواضح لنا أنه يقصد القوى السياسية القديمة المناوئة لحركة الجيش وجماعة الأخوان المسلمين والشيوعيين ، لكنه استطرد قائلا :

– محمد نجيب أصبح مشكلة حقيقية .

وفى هذا اللقاء تعرفت على محمد حسنين هيكل عن قرب .

زهية
(١٢)

طلبت منى الدكتورة أوديت قبل افطارها أن أتفرغ لتلبية طلبات الباشا فى غيابها . قلت : حاضر . طلبت منى أن أنتقل من غرفتى بالبدروم إلى غرفة الدادة الفرنسية فى الدور العلوى على مقربة من جناح الباشا . صمت . هذه هى أول مرة لا أقول فيها ، حاضر . نظرت إلىّ نظرة غريبة . نظرة قاسية . قالت لى غاضبة : ماذا بك يابنت ؟

خفت . خفضت رأسى وقلت لها : أنا يادكتورة لست وحدى . فى رقبتى طفل . طفل يعيط بالليل . يزعج الباشا . قالت لى : آه فهمت .

اعتقدت أنها اقتنعت بكلامى ، لكنها على الإفطار ، نادت علىّ وقالت :

– الطفل لن يضايق بابا .

قلت لها مستسلمة :

– تحت أمرك .

قلت لنفسى ، ربما الدادة الفرنسية تنوى الزواج ، وتود الاستقلال فى معيشتها ، فغرفة البدروم لها دورة مياه كاملة ، ومستقلة ، كنت ساذجة ولا أعرف

ماذا ينتظرنى من مصائب ؟ فرغت الدكتورة من قهوتها . كنت أرقبها من بعيد ، وهى تستعد للقيام ، قالت لى :

– زهية . من هذا الصباح مسئوليتك خدمة الباشا .

فهمت معنى الكلام ، استجمعت شجاعتى ، وسألتها :

– والعيادة ؟

ابتسمت لأول مرة هذا الصباح ، قالت لى فى حنية :

– خدمة الباشا فقط .

بكيت . سقطت دموعى رغما عنى . دموع ساخنة . مسحتها . قلت :

– خدمة الباشا على رأسى ، وخدمة حضرتك على رأسى . هل أنا قصرت؟

نادتنى أن أقترب منها . أعطتنى منديلا ، وطلبت منى أن أمسح دموعى . وضعت يدها على ظهرى ، وقربتنى منها . قالت :

– أنا خايفة عليك ياعبيطة .

وبعدها صارحتنى بما ينتظرنى ، قالت :

– من اليوم لا خروج أو وقوف فى الجنينة . فاهمة ؟

قلت وأنا أبكى سوء حظى :

– فاهمة .

هذه أمور تتعلق بظهور كرامة ابن سرحان السقا على مقربة من قصر الباشا . لمحته من بعيد ، فصارحت الدكتورة ، وقلت لها : إن كرامة عرف طريقى وهاهى المصائب تتوالى على رأسى . ليتنى مارأيته تلك العشية فى العتمة . ظهر

مرة أخرى بعد عامين ، فقلب حياتى . كرهته . هل يأخذ منى ابنى ؟

قالت الدكتورة : هذه اجراءات مؤقتة .

لعب الفأر فى عبى ، نسيت مسألة خروجى ، وذهابى إلى العيادة ، ومشاغلة المكوجى فى طريقى ، والتفت إلى مسألة أبوته لإبنى .

سألتها ضارعة :

– هل يأخذ منى إبنى ؟

قالت لى ضاحكة :

– يود أخذك أنت ، ألست زوجته ؟

نسيت أننى أقف فى حضرة الدكتورة أوديت ابنة أحمد باشا السيد فى المعادى ، وليس فى عزبة عويس ، وقلت لها :

– أخذه ربنا وحرمت عليه عيشته لو لمس شعرة منى .

قالت لى :

– لا تخافى . معك أكبر محام فى البلد . أحمد باشا السيد . سوف يدافع عنك وعن محمد نجيب .

وبعدها ضحكت ضحكة عالية من قلبها . وفهمت سبب ضحكتها . قال لى عم محمد الطباخ أن البلد هايجة والفرقة دبت بين أعضاء مجلس قيادة الثورة . عند استخراج شهادة ميلاد لإبنى ، حذرتنى الدكتورة أوديت من الجرى وراء الأكابر ، لكننى لم أصدقها . قلت لها : هذا نذر منى . قالت لى : النذر للأولياء . وليس للحكام . بكيت تحت قدميها . قلت لها : عيشتنا فى عزبة عويس كانت عذاب فى عذاب واللواء محمد نجيب خلصنا من عويس باشا والأميرة شويكار وابنتها .

قالت لى : أنت حرة . تركتنى على عماى وأستخرجت له شهادة ميلاد باسم محمد نجيب .

ياخوفى أن تأخذه الحكومة منى بسبب اسمه . طلبت منها الحماية . هى أختى وأمى وعزوتى . قالت لى :

– اسمعى الكلام . ابقى فوق ولن يعرف أحد طريقك .

قلت لها :

– حاضر . أسجن نفسى .

نزلت إلى البدروم وجمعت حاجياتى وحاجيات الطفل . وضعتها هى ولعب محمد نجيب فى عدة حقائب ، وانهمكت فى تنظيف الغرفة والحمام ، ودموعى تسيل على خدى .

جئت إلى هذه الشقة ، وجدتها نظيفة وأرضيتها تلمع ، لاتركها نظيفة .

كل غريب راحل . واذا كنت هذه المرة أصعد إلى الدور العلوى ، ففى المرة القادمة سوف أجد نفسى على الرصيف .

د . السيد أحمد باشا

(١٣)

صرخ الطفل صرخة فزعة ، فتركت مذكراتى ووضعت خفاً فى قدمى على عجل، وتوجهت إلى غرفة زهية ، بحثا عن مصدر الصراخ ، ووجدت الطفل فى عربته قريباً من الشرفة يدعك عينيه فى عصبية وقد أغرقته الشمس .

أدرت العربة وسحبتها بعيداً عن الأشعة الساقطة ومنطقة تجمعها .

ضـحك هززت العربة وأخذت أأرجحـه فى رفق ، فأجابنى الطـفل فى إمتنان : أغ . أغ .

ردهة واسعة ثم طرقة جانبية طويلة ، هما الفاصل بين غرفة مكتبى وبين غرفة زهية ، قطعتها فى لحظات لأجل الرضيع . دب النشاط فى جسدى، وانعش صراخه ذاكرتى. أعاد إلى أحاسيس الأبوة الغامضة. انحنيت على الطفل أناغشه.

– يامحمد يا نجيب .

والطفل يجاوبنى :

ـ أغ . أغ.

لم أدخل هذه الغرفة منذ ربع قرن أو يزيد. كانت مخصصة لأوديت فى طفولتها المبكرة وصباها قبل أن تستقل بجناح خاص فى الناحية الأخرى . فى العام الماضى نزلت بها «آن» الفرنسية التى أصبحت مسئولة عن ترتيب جناحى وتلبية حوائجى ونظافة ملابسى وكيها وكذلك مراسلاتى .

هاهى آن قد انتقلت إلى الدور السفلى على مقربة من الحديقة بناء على تعليمات غامضة من ابنتى – فافتقدت ايقاع حركاتها الرشيقة وحلو حوارها معى بالفرنسية، كانت مثل عصفور الجنة المغرد فى وحدتى .

أنوثة طاغية تنبعث من هذه الغرفة، تنم على أن قاطنتها امرأة ناضجة عركتها الأيام والسنين . جمال آن فيه مسحة حزن ، وفتنتها تكمن فى ضآلة حجمها وتناسق تقاطيعها ، أما زهية فأنوثتها طاغية ، وكل ما فيها يصرخ بالجنس العارم .

هكذا خلقها سبحانه وتعالى ، وهكذا جاء نصيبها فى هذه الدنيا . كل من يصادفها يطمع فيها .

تعبت من الانحناء على العربة . سحبتها إلى غرفة مكتبى ، وعدت إلى مذكراتى ، لكننى لم أخط شيئا يذكر . أصبح ذهنى مشتتا بين الرضيع القابع فى عربته مستسلما للمقادير وخوفى على ابنتى الدكتورة أوديت .

هذا الطفل فيه لماحية أمه وعنادها . عقد صداقة معى وبدأ يخصنى بنظرات ودودة تنطلق من عينين واسعتين كأنها دعوة للانحناء عليه والبقاء إلى جواره .

أغ . أغ . أغ.

هذه هى لغة التواصل بيننا . لغة صوتية بدائية تقول كل شىء، ولا تفصح عن شىء بذاته . لغة تقترب من لغة الحب وحديث العيون .

ابتسمت ، فابتسم. قلت فى طبقة رخيمة ، وكأننى أقف فى محكمةالعدل فى لاهاى :

– أووووووه .

ضحك الرضيع عاليا . ضرب الهواء براحتيه الصغيرتين عدة مرات .

هذا الرضيع فى مقدوره أن يشغلنى عن مذكراتى وواجبات يومى . بعد أن تواصل الحوار بيننا وأمتد حديثنا ، أفقت من خواطرى وتوجهت إلى شرفة الدرج الصغير التى تطل على قاعة الطعام، ناديت :

– زهية . فنجان قهوة مضبوط .

عدت إلى جلستى فى همة ، أراجع الدستور المؤقت وقانون حل الأحزاب، بعد تفاقم الأزمة بين نجيب وناصر ، فسوف يعود كلاهما إلى مواد هذين القانونين لتفسيرهما كل على هواه .

حانت منى نظرة إلى الرضيع وهو فى عربته . وجدته ساكنا . لوحت له بيدى قائلا :

– يامحمد يا نجيب .

أسندت رأسى بيدى ، حتى صعدت زهية بصينية القهوة ، ووجدت ابنها فى عربته على مقربة منى . قالت :

– ياندامة . أسفة يا باشا .

راقبتها وهى تدفع العربة أمامها وقد أعطتنى ظهرها. تأملت قوامها المشوق وهى تسير على أطراف أصابعها . أغمضت عينى ، وقلت لنفسى سبحان الخالق الوهاب .

د . السيد أحمد باشا

(١٤)

فور وقوع حركة الجيش ، توقع البعض إنفراجة فى المفاوضات بين مصر وانجلترا وحدوث ضغط من جانب الولايات المتحدة على حكومة تشرشل بسبب رغبة الولايات المتحدة فى إزاحة بريطانيا العظمى عن منطقة الشرق الأوسط . وكان من أشد المتحمسين لهذا الرأى البكباشى عبد المنعم أمين عضو مجلس قيادة الثورة وهو مهندس الاتصالات الخفية بين البلدين . غير أننى رفضت هذا الرأى كلية وأبديت ترددا فى قبوله أمام الرئيس جمال عبد الناصر . قلت :

– أن الولايات المتحدة سوف تطالب بثمن افدح فى مقابل ضغوطها على الحكومة البريطانية لترحل عن قناة السويس ، سألنى على الفور :

– ماهو ؟

قلت :

– الأحلاف ؟ هذا هو الشرك الجديد .

استمع لى ولمعت عيناه وبعد فترة سألنى :

– والحل ؟

قلت :

– الحياد .

قال :

– هذا ما يشغلنى منذ عدة أشهر . وهو ما دفعنى أخيرا إلى إرسال الدكتور محمود عزمى لرئاسة وفد مصر فى الأمم المتحدة .

كنت أعرف أن الكاتب الصحفى محمد حسنين هيكل قد دبر عدة لقاءات لجمال عبد الناصر مع كل من نجيب الهلالى باشا والدكتور محمد صلاح الدين باشا للتشاور معهما فى موضوع المباحثات المقبلة مع الانجليز ، لكنه فاتنى أنه قدم إلىّ الدكتور محمود عزمى . واستبشرت خيرا .

كنت أرى أن الجهود التى تبذلها مصر للحصول على السلاح من امريكا ضائعة فى الهواء ، وكان جمال عبد الناصر قد سألنى مرة بطريقة عفوية بعد انتخاب ايزنهاور عن رأيى . قلت :

– إن أمريكا سوف ترفض مد مصر بالسلاح بل ربما سوف تزيد من دعمها لإسرائيل بطريقة مجنونة .

سألنى مداعبا :

– يا دكتور أحمد ، هل هذا رأيك أم رأى الدكتورة أوديت وجماعتها ؟!.

قلت :

– هذا رأيى وأسبابه واضحة لى تماما .

قال :

– أكتب لى ورقة بالأسباب التى دعتك إلى تبنى هذا الرأى المتشائم .

قلت :

– حاضر .

وفى اليوم التالى ، دق جرس التليفون فى غرفتى مبكرا ، وفور قولى، آلو ، سألنى جمال عبد الناصر على الطرف الآخر من الخط قائلا :

– هل لازلت على رأيك الذى قلته لى أمس يا دكتور ؟

قلت مطمئنا :

– وفى كل لحظة تمر يزيد اقتناعى بهذا الرأى يا سيادة الرئيس .

قال :

– اردت أن أطمئن وأنا فى انتظار دراستك .

وانتهت محادثتنا الصباحية عند هذا الحدّ وعلى وعد منّى بإعداد تلك الورقة التى أطلق عليها جمال عبد الناصر مجاملا لى : دراسة ...

فى كل مرة التقيت جمال عبد الناصر على انفراد فى البيت عندى أو على حفل عشاء أو بدعوة منه فى مكتبه ، ناقشنى بعمق فى مسألة سياسية أو قانونية بعينها تشغله .

ويجيد جمال عبد الناصر الاستماع والتفكير ، ولا يفصح عن نيته من وراء هذا الانشغال بهذه القضية أو تلك ، ولذلك يضع محدثه دائما فى موضع الخبير وليس فى موضع الند أو الشريك مهما كانت استاذيته، كما أنه لايفصح أبدا عن رأيه فى قضية إلا قبل انتهاء المناقشة قائلا :

– هذا هو رأيى أيضا أو سوف أفكر فى الأمر أو لست متشائما إلى هذا الحد ، وغير ذلك من الأقوال الحذرة .

لكن مناقشاتنا لا تأخذ هذا العمق اذا جمعتنا جلسة مع رفاقه اعضاء مجلس قيادة الثورة، وربما اثنان من رفاقه فقط لهما القدرة على التعبير عن آرائهما فى فصاحة وطلاقة يحسدان عليها ، وهما جمال سالم وصلاح سالم، على الرغم من أنهما على طرفى نقيض فى مزاجهما ومشاربهما، وكاد مرة أن يشتبك معى جمال سالم بسبب عدم استماعه على نحو صحيح لجملة قلتها بسبب ضجة افتعلها أنور السادات لحظتها ، غير أن الرجل اعتذر بشدة فور أن أعدت عليه ما قلته . وجرى وراء أنور السادات وطرده، وأقسم إن عاد لضربه بالرصاص .

كان جمال سالم يسب ، ولكن لفت نظرى قوله له : يا ابن الجارية . وقد ضايقنى هذا السباب ، ورأيته تجريحا لأصحاب البشرة السمراء لكننى علمت وقتها أن هذه «الشتيمة» لها قصة أخرى يعرفونها فيما بينهم، لكنهم لا يفصحون عنها أمام الغرباء مثلى .

الدكتور يونس

(١٥)

عرفت بما حل بالدكتور شلبى القصاص من الصحف . «احتجاز الدكتور شلبى القصاص فى الداخلية لمدة ٢٤ ساعة على سبيل الخطأ والافراج عنه فور سماع المسئولين بنبأ القبض عليه » .

مصيبة أخرى تلتحق بأستاذ جامعة قضى عمره فى خدمة التعليم والترجمة وله العديد من المؤلفات الجادة .

ذهبت إليه . وكلى قلق .

قال لى الدكتور شلبى القصاص فى هدوء وهو يرشف قهوته : هى أربعة أيام كاملة وليست ٢٤ ساعة كما نشرت الصحف الثلاث . هى لحظات فاصلة بين الحرية وبين السجن يادكتور يونس ، مثل العتبة الفاصلة بين عالمين اذا عبرتها صادفك ما لم تصادفه خارجها ، والمأساة هى أنك لا تعرف لماذا دفعت لعبورها ، ولماذا أنت هنا ولست هناك ؟!.

والحكاية يا دكتور يونس أننى بعد يوم عمل شاق، توجهت إلى محلى

المفضل فى مصر الجديدة ، قرب الساعة الحادية عشرة ليلا ، لتناول زجاجتى بيرة دافئتين بعض الشىء ، كعادتى إذا أحسست بآلام الكلى .

وفى طريق عودتى الى البيت ، على مبعدة محطة مترو، سيرا على الأقدام، دهمتنى حاجة ملحة للتبول بسبب ماتناولته من البيرة ، فاقتربت متسللا الى حائط مهجور فى الظلام ، وأنا انظر خلفى وأمد البصر حولى، حتى إذا اطمأن قلبى لخلو المكان من صنف البشر ، تبولت، وفى لحظة شائكة ، وهى اللحظة التى تضبط فيها عاريا كما يقولون ، ربتت يد غليظة على كتفى ، ودعتنى لصعود عربة تقف على بعد .

أفرغت حاجتى، وقد ضاعت احتجاجاتى عبثا ، كشفت له عن شخصيتى . قلت : الدكتور شلبى القصاص . فما سمعت منهم، وقد أصبح الشخص اثنين وثلاثة وأربعة إلا كلمات نابية .

ولا أطيل عليك ، فعلى الرغم من تقدم الليل ، ربطوا لى عينى بغطاء أسود، وقبل أن تتحرك بنا العربة ، سألت من أحسست به يجلس إلى جوارى، قلت :

– إلى أين العزم ؟!

جاءنى صوت من مقدمة السيارة ، صوت هادىء لا تلونه نغمة غاضبة أو فرحة. صوت محايد تماما ، كتلك الأصوات التى بدأت أتعرف عليها لأول مرة فى حياتى فى الشهور الماضية . أجابنى الصوت من مقدمة العربة :

– بعد قليل سوف تعرف ، لا داعى للعجلة أو الشوشرة .

قلت لنفسى ، وقعت فى أيدى مجموعة ضالة من رجال المخابرات الجدد، وأن الأمر لن يتعدى دقائق ويتم الإفراج عنى بعد التحقق من شخصيتى .

لا أكتمك أننى ضحكت . تصور يا دكتور يونس أن عبثية الموقف بأكمله قد

دفعتنى إلى الضحك ، رأيتنى ممثلا فى مسرحية عبثية ، وندمت لأننى لم أتناول زجاجة بيرة ثالثة ورابعة لتلعب البيرة برأسى، وأتمتع بهذا المشهد . لكننى كنت قد تناولت زجاجتين بسبب الوعكة، والبيرة بالنسبة لى هى دواء لدرّ البول وأجدها تفوق الادوية الحديثة فى مزيتها. فهى مشروب مصرى عريق . مشروب عرفه قدماء المصريين ، وكان الفرعون يوزعه على الرعية مثل الخبز بالعدل. وقلت لنفسى وأنا فى حالة من الوجد : إذن هى لعبة جديدة من ألاعيبهم . ربما هى دعوة للاشتراك فى الوزارة .

وكان فتحى رضوان باشا قد روى لى بطريقته الساحرة، ملابسات تشكيل الوزارة الجديدة فى سبتمبر ١٩٥٢ وكيف كان الوزراء المدنيون المدعوون يتصببون عرقا وهم يقبلون المنصب أو يرفضونه ، ويغادرون مجلس قيادة الثورة وهم يتحسسون أعناقهم ، وتجرأت وسألت الجالس فى مقدمة العربة مباشرة، هذه المرة ، وقد ادركت أنه فى مركز القائد من هذه الجماعة الضالة ، قلت له مبتسما فى الظلام .

– إذن هو تغيير وزارى .

سمعت حركته الغاضبة قبل أن يأتينى صوته ، أخذ ينطق بكلمات لا يكملها ولكنها تدور فى معظمها حول الاعدام ورجال الانقلاب الأبرار .

وأقول لك يا دكتور يونس ، إننى كنت أغالب الضحك بصعوبة ، لأننى لم أدرك عن أى انقلاب يتحدث ، الانقلاب الحالى الجاثم على أنفاس البلد كالكابوس أم أن هناك انقلابا جديدا قد وقع من وراء ظهرى اثناء تجرعى البيرة. ولخطورة الأمر، استجمعت شجاعتى وسألت :

– هل وقع انقلاب جديد فى البلد ؟!.

فى هذه اللحظة لم يعد هناك مجال للأخذ والرد، وضع مسدس فى جنبى

وآخر صوب إلى جبهتى وكنت أحس بفوهته المعدنية الباردة على قورتى . قلت لنفسى : كلمة أخرى منى، ويلعلع صوت الرصاص ، وركنت إلى صمت غليظ ثقيل فى هذه العتمة المفروضة علىّ والسيارة تقترب من وسط البلد . دارت فى نفسى كل الهواجس ، من تولى منصب وزارى إلى اتهام بالخيانة ، ففى هذه الأيام التعيسة كل شىء أصبح جائزا . لن أطيل عليك . نزعوا عنى الغمامة ، بعد توقف العربة ، فوجدت نفسى فى غرفة واسعة عارية من كل شىء إلا من مائدة خشبية وعدة كراسى . آه. نسيت أن أقول إن اسخف مافى الأمر، أننى صعدت سلالم كثيرة، مغمض العينين بسبب الغمامة السوداء، تعثرت فى البداية عدة مرات، ثم توقفت عن الصعود، وتذكرت الطريقة التى يصعد بها الدكتور طه حسين سلالم الطابق الأول بكلية الآداب، منتصب القامة فى هدوء دون مساعدة ، وارهفت السمع إلى الصاعدين والهابطين حولى، وحولت وقع خطواتهم الى إيقاعات : تك. تك. دم. وصعدت السلالم وقد نحيت ذراعه عنى. منتصب القامة مثل الدكتور طه حسين دون صعوبة، وقد ضبطت ايقاع خطوتى فلا تصطدم قدمى بحافة السلمة ولا تسقط على فراغ فانزلق. بل اننى اسرعت الخطو ايضا وكأننى اتوجه الى موضع اعرفه . فسألنى من فى صحبتى :

– حضرتك جئت هنا من قبل ؟

قلت له فى زهو كاذب :

– نعم . فى صحبة أحد الوزراء .

صدقنى، لكنه لم ينزع عنى الغمامة ابن الحرام ، وتركنى فى عماى اصعد السلالم .

هه. بعدها فتشونى جيدا . ولم يكن فى جيوبى إلا محفظتى ومفكرة صغيرة بها أرقام تليفونات معارفى.

سألنى كبيرهم عن أية أوراق أحملها ، فقلت له مداعبا :

– ها أنا كما ترانى لا أحمل شيئا فى يدى .

نظر الى من تحت النظارة مبتسما ، فطلبت منه أن يعيد إلى محفظتى ومفكرتى، فالقى نظرة على المحفظة واعادها الى، ولكنه اخذ يتفحص المفكرة رقما رقما . قال لى وهو يقف فى ركن الغرفة وقد أخذ يبتعد عنى كلما قلب صفحة من المفكرة .

– تفضل يا دكتور شلبى بالجلوس. اننى اعتقد أن الأمر سوف يطول قليلا

وفى ود سألنى :

– ماهى قهوتك، سادة أو مضبوط ؟

قلت له ضاحكا :

– اننى فى هذه الساعة من الليل لا أشرب إلا كوبا أو كوبين من البيرة.

قال لى متأسفا :

– كنت أود تحقيق هذه الرغبة، ولكنك تعرف ...

وانتحى بعيدا عنى ، وأخذ يتابع فحص مفكرتى . ومن الغريب أننى لم أره يكتب رقما أو اسما وكأنه يخطها فى ذاكرته مباشرة .

بعد قليل سألنى :

– متى اتصلت برقم اليوزباشى محسن عبد الخالق آخر مرة ؟

قلت له وأنا أعصر ذاكرتى :

– منذ ثلاثة أو أربعة أيام .

سألنى :

– وهل تحدثت إلى اليوزباشى محسن عبد الخالق شخصيا ؟

قلت له :

– كلا . هذه علاقات عمل . وتحدثت لمن رد على التليفون . ولم يذكر لى اسمه وأنا من جانبى لم أسأله ؟

سألنى مدققا :

– متى تحدثت آخر مرة إلى اليوزباشى محسن عبد الخالق شخصيا؟

قلت له :

– منذ عام أو أكثر، ولا أذكر التاريخ .

سألنى بعدها عن مجموعة من الأسماء ، وأجبته على أسئلته كلها على النحو السابق .

بعدها غاب عنى ، انطلق الى ردهة واختفى وفى يده مفكرتى وجلست الى المائدة بمفردى متأملا، وقد لفت نظرى أنه سألنى عن أسماء بعينها من العاملين فى الجيش. وقلت لنفسى أنه سوف يتصل بهؤلاء القوم ويعود الىّ مرة أخرى ويتركنى لحال سبيلى. وبعد أكثر من نصف ساعة ، عاد الىّ ، وطلب منى مقابلة أحد المسئولين ، فسرت خلفه فى مبنى قديم وصعدت الى طابق آخر ، وفتح باب غرفة ، مكتب أنيق، فى آخره يقف البكباشى زكريا محيى الدين ، وقد عرفته نظرا للشبه بينه وبين خالد محيى الدين الذى كان تلميذا لى، قبل الانقلاب. رحب بى الرجل فى حرارة،، ودعانى الى الجلوس ، وترك مكتبه ، وجلس الى جوارى. قال لى فى ود ظاهر :

– أنت ضيف علينا لمدة يومين أو ثلاثة على الأكثر. ضيافتنا ليست مريحة ونأسف لذلك. وأرجو ألاّ تشغل نفسك كثيرا بهذا الأمر . وسوف أضع تحت أمرك

تليفونا خاصا ، وطبعا جميع التليفونات هنا مراقبة، فأرجو ألاّ تقلق احدا دون داع، وإذا تضايقت يا أخى، تعال الى هنا فى مكتبى، فأنا أقضى نهارى وليلى فى هذا المكتب كما ترى وقد اتصل النهار بالليل . وأنا هنا أود مصارحتك بأن اعتقالك اذا اردت أن تسمى استضافتنا لك اعتقالا ليست له علاقة بك يادكتور شلبى، لكنها تتعلق بهذه المفكرة الصغيرة التى كنت تحملها فى جيبك، فهذه المفكرة صيد ثمين للغاية، فكل الأسماء الواردة فيها تم اعتقالها منذ عدة أشهر بأحكام قضائية بتهمة الشروع فى انقلاب ، وعلى كل حال إذا اردت مغادرتنا الليلة، فأنا أسمح لك بالخروج، ولكن ذلك سوف يعرضك الى متاعب كثيرة فيما بعد ، وأنا أرجو صادقا اعفاءك من هذه المتاعب فمجلس قيادة الثورة يكن احتراما كبيرا لأساتذة الجامعة ، فهم حملة النهضة فى هذا البلد، وإذا كانت هناك مصاعب فذلك مرجعه الظروف غير الطبيعية التى نعيشها وقد زاد الأعداء من أنشطتهم .

كان يتحدث إلىّ يا دكتور يونس فى صدق وأظهر لى أنه يعمل لمصلحتى الشخصية، فقلت لنفسى، لأستكمل الرواية العبثية ، على أن أصدر قرارا أفضل فيه البقاء عن الذهاب، أى أعتقل نفسى بنفسى، وأدركت أننى إذا خرجت فى هذه الساعات سوف أكون معتقلا بالمخبرين الذين لن يفارقونى لحظة واحدة، فأسبب لمن حولى وهم كثر متاعب كثيرة، فاينما حللت سوف نسخر من رجال الانقلاب ومن سياساتهم الحمقاء، ففضلت البقاء برغبتى .

وكان الرجل كريما معى، فجهزت لى غرفة بسيطة، بها مذياع. وقدمت لى ملابس نظيفة، وفى الصباح جاءنى الافطار وصحف الصباح والمجلات، وفى الساعة الحادية عشرة وصلتنى الصحف الأجنبية أيضا .

نسيت يادكتور يونس أن أخبرك بأنهم قدموا لى ورقا مصقلا وأقلاما من تلك الأنواع الفاخرة التى أحرص على استعمالها، وكأنهم يخبروننى أنهم على

معرفة بعاداتي أيضا. وقلت لنفسى إقامة جبرية فى فندق من الدرجة العاشرة لمدة يومين أو ثلاثة . وطلبت زوجتي وأخبرتها أنى فى مهمة يتعذر على الافصاح عنها فى التليفون، وربما أتغيب أسبوعا. وعزمت على الاقامة بينهم وتحت أعينهم برغبتى ، وكل شىء فى هذه الأيام فداء للوطن ، كما يدعون .

جاءتنى فى البداية الجرائد الأنجليزية، فالتهمتها دوت تذمر، فهذه نعمة من النعم فى تلك الساعة، فأنا لاصبر لى على قراءة صحف الانقلاب أو تلك الصحف التى اتخذت النفاق سبيلا لها. وبعد أن فرغت منها، قدم الى واحد وهمس فى أذنى متسائلا : ألا تود الجرائد الفرنسية ؟ قلت له سعيدا : ونعم بالله. أرم بها فورا.، احسست به وكأنه كان يراقبنى، وينتظر فراغى من الجرائد الأنجليزية ليلقى على بقوله، واستربت فى أمره ، وقد أصبحت شكوك تساورنى، فهذه ألاعيب ساذجة، والخطورة أنك لاتعرف الطريق التى تقود إليه مثل هذه الألاعيب، واقتنعت أن فى الأمر شيئا خطيرا يتعلق بهم، ولا يفصحون عنه .

وراودنى إحساس خفى، أنهم يتشككون فى شخصيتى ، فربما أنا لست الدكتور شلبى القصاص ، وابتسمت. ونهلت من الجرائد الفرنسية حتى أتيت عليها ، ومن حسن حظى كانت مليئة بالدراسات حول مصر بين الملك فاروق ورجال الانقلاب وفيها تغطية كاملة للصراعات الكامنة والخفية عنا، وعلمت منها أن هناك صراعا على وشك الانفجار بين البكباشى جمال عبد الناصر وبين اللواء محمد نجيب ، كما أن هناك انقسامات فى الحركة اليسارية ، فالمسجونون أو المعتقلون منهم يؤيدون الانقلاب، بينما يعارضه المطلق سراحهم ، وأنه قد جرى تهريب منشور من السجن الحربى، عرف باسم بيان السجن الحربى، وأدركت من قراءتى لهذه الصحف أن البلد هائجة، والأغرب من ذلك أننى قرأت ملخصا لقضية اطلقت عليها إحدى الصحف قضية المدفعية وأنه قد حكم على المشتركين فيها بالسجن

ولمدد طويلة، وكان من بينهم اليوزباشى محسن عبد الخالق الذى أشرت إليه، وكان رقم تليفون مكتبه مسجلا فى مفكرتى، وأحسست بأنهم يعتبروننى عضوا فى هذا التنظيم المعارض .

تفتحت أمامى فجأة أبواب الجحيم وكان علىّ أن أسدها بابا وراء باب، قبل استدعائى والتحقيق معى، فرميت الصحف جانبا، وقد ركبتنى الهموم، وفى مثل تلك اللحظات العبثية، وربما من قلة الحركة تعاودنى آلام الكلى، فطلبت زجاجتين من البيرة أو السماح لى بالخروج لفترة وجيزة والعودة بعدها . وقلت لنفسى إذا كانوا يتشككون فى شخصيتى ، فليتحققوا من عاداتى، وهى معروفة وليست خافية على أحد. فأنا لا أخفى نزواتى ولا أطمع فى قيادة هذا البلد .

وكانت مفاجأة لى، أنه فى موعد الغداء، وصلنى طعام من عند الحاتى ومعه زجاجتان من البيرة، وسألت نفسى: هل يتمتع رفاقنا الذين قبض عليهم الأسبوع الماضى بهذه المعاملة السخية ؟ وقررت أن أستفسر عن احوالهم فى أول مقابلة لى مع زكريا محيى الدين، وأن أطلب منه الإفراج عن زميلنا الدكتور عوض ساويرس فهو على حد علمى وقناعتى من المتحمسين لليبرالية وليست له ارتباطات ماركسية مثل زميلنا محمود أمين، وقلت لنفسى، هذا واجب اخلاقى ، ولا أخفى عليك أننى قدمت اسهامات يعتد بها فى ترجمة العديد من الكتب والدراسات إلى القائمين بالأمور فى الشهور الماضية . ما علينا، بعد يومين، قيل لى أن استعد لمقابلة البكباشى زكريا محيى الدين. استقبلنى الرجل مبتسما ، وتحادثنا حول عدة أمور عامة، فى البداية، ثم طلبت منه الافراج عن الدكتور عوض ساويرس، قلت له : هذا رجل بشر بالثورة فى محاضراته ودراساته، ومن كبار الليبراليين فى مصر . استمع لى وسألنى عن علاقاته بالطلبة، فقلت له : هى علاقات استاذ الجامعة بطلبته، وكما يجب أن تكون فى مثاليتها .

طمأننى قائلا، إن الافراج عن الدكتور عوض ساويرس بمفرده دون زملاء له سوف يسىء إلى سمعته، وسوف يظن البعض أنه قد قدم التماسات أو

اعترافات على الآخرين، ولهذا فمن الأفضل أن يتم الافراج عن الجميع بعد عدة أشهر أقل من ثلاثة. وربما فى الأسابيع القادمة أيضا. قال لى : نحن نحافظ على سمعة الناس، واساتذة الجامعة هم عماد البلد فى مواجهة معركة التحرير والتنمية. وهذه ظروف استثنائية، وفى الخفاء تدور معركة بين اطراف عديدة لتطويق حركة الجيش بمزاعم مختلفة وطرق ملتوية، وفى نهاية حديثه أخبرنى أن الرئيس جمال عبد الناصر يود مقابلتى . قلت له البكباشى جمال عبد الناصر، أعاد على قوله مؤكدا على كلمة رئيس، ثم أضاف قائلا : الرئيس جمال عبد الناصر هو مفجر الثورة والقائد الحقيقى لتنظيم الضباط الأحرار. وفجأة سألنى عدة أسئلة لا رابط بينها، فسألنى، عن عزبة عويس، وعما اذا كنت اتردد عليها. فأجبته بأن مديرية المنوفية ليست فيها عزبة بهذا الاسم الغريب . ضحك قائلا لى : لماذا ذهبت بعيدا يا دكتور شلبى ؟ عزبة عويس فى مديرية الجيزة . قلت له : لم أسمع بهذا الاسم من قبل.، بعدها مباشرة سألنى عن الترزى الذى يفصل لى بدلى . تعجبت من السؤال وبانت الدهشة على وجهى ثم ضحكت ضحكة عالية، وقلت مستفسرا : هل أنا هنا للافصاح عن اسم الترزى الخاص بى. خد ياسيدى هو ترزى بسيط فى باب الخلق يفصل لى بدلى منذ كنت طالبا فى الجامعة وحتى أحلت على المعاش منذ عامين. حتى فى سنوات بعثتى فى باريس كنت أفصل عنده إحتياجاتى من الملابس وآخذها معى إلى مدينة النور، ضحك قائلا :

إذن موضة هذه البدلة تعود إلى ثلاثين عاما مضت، قلت له مصححا: كلا. هذه الموضة تعود إلى أكثر من نصف قرن ، هو لم يتطور وأنا لم أغير مزاجى . قال مبتسما: إذن أنت من اتباع الرئيس جمال عبد الناصر. هو أيضا لم يغير الترزى منذ كان ملازما فى الجيش. رجال البروتوكول يطلبون منه تبديل موضة ملابسه الواسعة فيزجرهم. تحسست ملابسى. ووضعت يدى فى جيبى. جذبت حافة البنطلون، قلت له : نعم. هذه البدلة واسعة وتريحنى. سألنى هل تعرف

مزارعا يدعى عباس أبو حميدة ؟ ثم أضاف قائلا : مزارع بسيط أمى، قلت له : أنا من المنوفية وتربطنى علاقات مع أهلى وأقاربى وليس بينهم واحد يسمى بهذا الاسم. أما أصدقائى فهم من المثقفين الفقراء الذين يترددون على المقاهى والبارات ولا تشغلهم المسألة الزراعية وقانون الاصلاح الزراعى. وبعدها تريثت وقررت وضع حد لهذه المسرحية الكافكاوية فقلت : أنا استاذ للغة الفرنسية وعندى درجة علمية فى علم المناهج أيضا وأشرفت على مئات من رسائل الدكتوراه، وأدرك أن هذه الأسئلة تخفى وراءها قضية مهمة تشغل العاملين هنا ، وليس من المعقول أن أعتقل هنا لمدة يومين لسؤالى عن الترزى الذى يخيط لى ملابسى وعن مزارع يدعى «عباس أبو زيطة» فقاطعنى مصححا الاسم قائلا : عباس أبو حميدة .

وبانت الحدة فى صوتى ، وتحرك طقم الأسنان فى فمى، فتناثر رذاذ مع كلماتى وقد علا صوتى، قلت : لماذا لا تصارحوننى بالحقيقة ؟ فأنا لا أخفى شيئا، وعلى استعداد لمعاونتكم بدلا من هذه الأسئلة الغامضة ، واعتقال استاذ جامعى .. وعلى هذا النحو فيه إساءة لنظام الحكم ويثير شماتة الأعداء. قال فى هدوء : للأسف ليس فى مقدورك معاونتنا . فأنت لست طرفا فيما نبحث عنه وإن كنت مشاركا بالصدفة فيما جرى ويجرى . وعلى كل حال قد تم القبض على ترزى الأمراء خالد القويسنى وتم ضبط آلة طابعة لديه وآلاف المنشورات. أليس هو الترزى الذى يفصل لسيادتكم البدل ؟ لم أكن قد أخبرته باسم الترزى واكتفيت بالقول بأنه فى باب الخلق . وتعجبت. وقد أحسست برأسى تدور، وقلت لنفسى :إن الأكمة تخفى وراءها أحداثا جساما، وإن الحلقة تضيق حولى فى كل ثانية، وربما أصبح زعيما لانقلاب لا أعرف عنه شيئا أو عن صاحبه «عباس أبو حميدة» الذى يبحثون عنه. فى هذه اللحظة قررت أن أحتمى بالصمت، فكل جملة تخرج من فمى، تفتح علىّ أبوابا لا قبل لى بها، قلت : اتمنى من الله معاونتكم فى حل هذه الألغاز، وأنا على الرغم من تحليلى لمئات من التراجيديات والأعمال المسرحية

والروايات البوليسية لم تصادفنى عقدة مثل هذه العقدة المربكة، وكأننى أرى فى هذه الأحداث ما يطلق عليه الجريمة الكاملة. وهى لا تتوفر إلا فى التراجيديات الأغريقية التى يرسمها القدر .

وقد أردت بهذا الحديث أن أعود إلى مهنتى الأصلية فى دراسة الأدب لأستمد منها شجاعة وقدرة على الفهم .

وبعدها أحسست بغريزتى بأن حديثه إلى قد فرغ، فطلبت منه مفكرتى، فقام الى مكتبه وأعاد الى مفكرة جديدة مع مفكرتى ، وطلب منى التخلص من أرقام التليفونات التى تتعلق برجال الجيش، فهذه أرقام سرية. وكان يتعين علىّ ألاّ أدونها، واتهم اليوزباشى محسن عبد الخالق بالإهمال لأنه لم ينبهنى إلى ذلك. فى هذه اللحظة ضحكت. غالبتنى ضحكة كادت تقضى على، فسألنى فى أدب شديد عما يضحكنى. راوغته، لأنه لم يكن من حسن الأدب، أن أطلعه على المثل الشعبى القائل : اذا كان اصبعك عسكريا اقطعه. حقيقة ، القرب من هؤلاء القوم لا يجر إلا المصائب .

لن أطيل عليك، توجهت بعدها لمقابلة البكباشى جمال عبد الناصر، وقد رحب بى ترحيبا حارا، وأشاد بالخدمات التى قدمتها عن طريق الترجمة، وطلب منى متابعة العمل مع وزارة الإرشاد القومى، ولما اعتذرت بسبب كبر سنى، ورغبتى فى التأليف، قال لى مباشرة إنه يتفهم دوافعى. كنت أنتظر منه الاعتذار عما وقع لى وصادفنى فى الأيام الماضية، لكنه لم يعتذر .

كان يجلس أمامى مباشرة بعيدا عن مكتبه ، وربما أراد بذلك التبسط معى، وأن جلستنا بين أصدقاء وليست بين زعيم وقائد ثورة وبين أستاذ جامعة على المعاش .

قال لى : إن الانجليز قد صعدوا من هجومهم على الثورة، وقد أضحت البلد مليئة بالمنشورات المعادية من كافة الجبهات، حتى اللواء محمد نجيب، وقع فى أحابيل رجال الأحزاب القدامى، وقد سار على هذا النهج بعض اليساريين، وفى

الصحافة الأجنبية حملة منظمة ضد الثورة ، والأحزاب الشيوعية المصرية أضحت تشن حملات ضارية فى الخارج وقد وقعت فى الفخ، ونسيت طرد الملك وتطبيق قانون الاصلاح الزراعى. ألجمت لسانى عن عمد، فالمقام ليس مقام مناقشة حول الديمقراطية والسماح بحرية تكوين الأحزاب وحرية الصحافة، وما يهمنى هو الخروج من هذه المسرحية العبثية، فشغلت نفسى فى تأمل مكتبه البسيط، والطريقة التى يتحدث بها، وهو يدخن بشراهة، سيجارة بعد سيجارة، ولما عطست من سحابة الدخان توقف عن التدخين على الفور، دون أن يشعرنى.

طلب منى بعدها أن أرشح له عدة شخصيات من بين المعيدين والطلبة الذين ألمس فيهم النبوغ والإخلاص والاهتمام بالقضايا العامة لتكوين نواة طيبة من المترجمين. قلت له أقسام اللغة الفرنسية مليئة بالمواهب، لكن الترجمة خبرة فى المقام الأول وتتطلب دربة طويلة، كما أنها تعتمد على التخصص الدقيق أيضا، ولهذا فانا أعتقد أن الأمر يحتاج إلى أساتذة ومجموعة من الشباب، أساتذة قانون وعلوم سياسية وفى الذرة والطبيعة والرياضيات وغير ذلك إلى جانب الطلبة الموهوبين فى تلك الأقسام، وليس فقط فى أقسام اللغة الفرنسية .

تأمل قولى وأخذ يهز ساقيه، ويمد يده إلى علبة السجائر ويسحبها دون أن يتناول سيجارة حتى أخجلنى. وبعدها طلب منى تزكية عدة أساتذة فى اللغتين الانجليزية والفرنسية. وهنا انتهزتها فرصة. قلت له فى سرعة ، بالنسبة للغة الانجليزية لا أجد خيرا من الأستاذ عوض ساويرس أما فى اللغة الفرنسية، فلا يوجد خير من الأستاذ عبد الوهاب الضانى. صمت فترة من الوقت. وبعدها ارتسمت على وجهه ابتسامة. قال : أنا اقدر الزمالة وأعرف الواجب. فهل ترشيح الدكتور عوض ساويرس لأنه فى المعتقل أم للمصلحة العامة . قلت فى حزم وحماس : أنا أتحدث من أجل الصالح العام . الدكتور عوض ساويرس كفاءة ورجل صاحب مبادىء. قال : لكنه يصغر من شأن حركتنا فى كل مناسبة. قلت له مندفعا : هذه وشايات. نظر فى عينى فى غضب قائلا : أنا لا استمع الى وشايات

قلت له وقد علا صوتى : هل شكك أحد فى كفاءاته العلمية واخلاصه ؟ اجابنى : كلا قلت وكأننى انهى الحديث : نظم الحكم محل خلاف بين الناس منذ الخليقة. والخلاف حولها لايصح أن يحرم احدا من خدمة بلده . قال على الفور : اقنعتنى. معك حق. فهذه بلدنا جميعا .

وبعدها اعلننى بأن الدكتور عوض ساويرس سوف يتم الافراج عنه بعد ثلاثة أشهر وأنه سوف يستقبله بنفسه. قلت له فى سرور : حسنا تفعل ياسيادة الرئيس. بان السرور على وجهه، وكأنه كان ينتظر منى مناداته بلقب الرئيس، وطلب لى فنجانا آخر من القهوة، قال : هل تعرف يادكتور شلبى لماذا ابتسمت فور قدومك؟ ذلك لأننى تذكرت واحدا من معارفى يشبهك الخالق الناطق، ولن اخبرك عن مهنته حتى لاتغضب،وطنى مخلص، ولكن اخلاصه للأفكار الماركسية ملك عليه كيانه، وتبحث عنه قوات الأمن هذه الأيام، ويراودنى هاجس بأنه أضحى يؤم الأماكن العامة ويجرى اللقاءات السياسية معتمدا على هذا الشبه، ويبدو أنه كان على علاقة بالترزى الخاص بك ، وأخذ يرتدى الملابس التى ترتديها ، قلت له على الفور : أنا على استعداد لتبديل ملابسى . ضحك منى. قال مبتسما: أنا لا أدعوك للتخفى أو التنكر، فأنت علامة فى المجتمع، ولكن أطلب منك الحذر. وأصارحك بأن قوات الأمن نجحت فى محاصرته، ولكنه أقنع رئيس القوة، بأنه الدكتور شلبى القصاص . وكان فى صحبته رجل لايتحدث إلا الفرنسية ، وزعم أنه ضيف من افريقيا على الحكومة، ورفيقه لم يكن إلا ازهريا من النوبة ترك الأزهر وارتمى فى أحضان الحركات الماركسية. ولما وصلتنى القصة، أمرت بمجازاة رئيس القوة، فقد كان عليه أن يكون حصيفا وواسع الحيلة .

قلت لنفسى يادكتور يونس، أصبح لى قرين هذه الأيام، وسألت عن هذا القرين. فقال لى الرئيس جمال عبد الناصر، هو مزارع بسيط من عزبة عويس يدعى عباس أبو حميدة.

وتسألنى يا استاذ يونس، لماذا لم أعد أخرج وأتردد على أماكنى المفضلة ؟ أنا لا أدرى الآن، هل أنا الدكتور شلبى القصاص، أم عباس أبو حميدة مزارع عزبة عويس ؟ لدرجة أننى فكرت عدة مرات أن ارتدى جلبابا واتوجه إلى عزبة عويس للتأكد من هذه القصة بنفسى، غير أننى تخوفت من مغبة هذه الحماقة وخفت القبض على هذه المرة بدعوى أننى عباس أبو حميدة ولست الدكتور شلبى القصاص. إننى أخشى الآن الخروج من الدار، وأود أن أعلق يافطة على صدرى عليها : أنا الدكتور شلبى القصاص ولست عباس أبو حميدة، أنت تعرف أننى لم أكن فى يوم من الأيام من المتحمسين لأدب كافكا السوداوى أو أديب دعاة العبث الفرنسيين، ولكن بعدما جرى لى، أحس بأننى أعيش قصة عبثية من الألف إلى الياء .

د. يونس

(١٦)

اتصلت بى زوجة الدكتور شلبى القصاص، فى الصباح الباكر، وطلبت منى معاونتها، وأنها قد خصتنى بالسؤال، لأنها تعتقد أننى أقرب الناس إلى قلب زوجها .كان صوتها يأتينى عبر السماعة مرتعشا، وأحسست أنها تود أن تفضى إلىّ بما يزعجها، لكنها تتردد .

قلت لها مطمئنا : الدكتور شلبى القصاص أستاذ لى، وصديق عزيز، وأنا لن أتردد لحظة واحدة فى معاونته، ولا داعى للانزعاج بالمرة .

غاب صوتها عنى ، وتوقفت عن الكلام . ادركت أنها تفكر فى اختيار مدخل مناسب لحديثها معى، وأنها تحدثنى فى غيبة زوجها .

قلت لها : لعل الأمر ليس خطيرا !!

قالت لى : بل جد خطير يا دكتور يونس .

بعدها أجهشت بالبكاء، وصمت أنا من جانبى لحظات قليلة ، حتى تتماسك، وقد أدركت أن الأمر يتعلق بتلك الأيام الثلاثة التى أمضاها فى الاعتقال، قالت لى: الدكتور شلبى قد تغير كثيرا فى الأيام الماضية، وأنه .. ثم توقفت ثانية

قلت لها : لعله مرهق قليلا من العمل .

ويبدو أنها استجمعت شجاعتها مرة واحدة، والقت علىّ بما يقلقها دفعة واحدة، فقالت : الدكتور شلبى القصاص اشترى جلابية وكوفية وبالطو وأخذ ينزل بهذه الملابس الى المدينة متخفيا. وإذا رأيته يادكتور يونس فى هذه الهيئة الجديدة لن تعرفه .

ما توقعته قد حدث، ولم يعد لدى ما أفضى به إليها، فقلت لها ، سوف التقي بالدكتور شلبى بعد غد، وهذه مسألة بسيطة، ولا يصح أن تشغلها.

قالت لى غاضبة : كيف يا دكتور ؟ هذه ليست قضية بدلة أم جلابية، هذه محاولة للتخفى، وكأنه مطلوب القبض عليه أو فار من العدالة .

قلت لها ضاحكا : كلا . هذه مبالغة .

اعتذرت عن ازعاجها لى، وكررت عليها قولى أننى سوف أقدم لزيارتهم بعد غد، لعلها تطمئن قليلا .

وانتهت مكالمتنا .

غالبنى ندم، كان يتعين على أن أكون أكثر حنكة وحصافة بعد رؤيتى للدكتور شلبى القصاص فى المرة السابقة، فقد كان الرجل يعانى من أزمة حقيقية بعدما جرى له .

كان يتحدث الى ويحرك يديه وجسده كله، ولا يستقر فى موضعه إلا دقائق معدودات ويقوم متنقلا بين وسط الغرفة والشرفة ويلقى ببصره على الطريق، ومن حين إلى آخر ينادى على البواب من الشرفة بصوت جهورى عال لأسباب تافهة، وكأنه يعلن الجيران عن وجوده فى شقته .

كان ذلك كله واضحا لى ، لكننى لم أناقشه أو أقاطعه، وقد امتنعت عن تخفيف الأمر عليه أو التهوين مما جرى له، مقنعا نفسى بأن ما وقع له من حقه أن يفسره كما يشاء، كما أننى أعد من زمرة تلاميذه وليس من حقى مراجعته أو تصحيح تصوراته .

اعتكف الدكتور شلبى القصاص فى منزله يوما أو يومين وبعدها انطلق فى المدينة بحثا عن قرينه عباس أبو حميدة أو منتحلا شخصيته كى يوفر له نوعا من الحماية. لم يطق البقاء فى المنزل فخرج إلى الدنيا الواسعة .

أخبرنى فى المرة السابقة، قبل مفارقتى له، أنه قد فقد القدرة على الدهشة أو المرح بعدما سمع ، ليس بسبب الاعتقال أو الحجز ، لكن بسبب تلك القصة الفكاهية عن مزارع عزبة عويس، عباس أبو حميدة. قال لى عدة مرات إنه فقد القدرة على الدهشة والمرح لكننى لم التفت إلى قوله، وأرجعته إلى غرابة قصة «عباس أبو حميدة» ولم التفت إلى الضيق الذى حل بصديقى من مغزى هذه القصة خاصة عندما قال لى، هذا فلاح من عصر الفراعنة أعوزته الحيلة فارتدى ملابسى وانتحل شخصيتى، ليتنى كنت مزارعا مثله، وليس استاذا فى الجامعة .

فاتنى فى حديثه ذلك كله، فاتنى التقاط النقاط المهمة فى حديثه ، قلب رفيقى الدكتور شلبى القصاص يعرف هذه اللحظات الدهشة وداخله الفرح ، وهو يقوم بمهمته متنقلا من موضع إلى آخر فى المدينة، مرتديا زى «عباس أبو حميدة» مسببا دهشة لأجهزة الأمن، فعباس أبو حميدة لن يفوته تبديل ملابسه بعد الإعلان عن احتجاز الدكتور شلبى القصاص، وبعد القبض على رفيقه ترزى الأمراء خالد القويسنى .

فاتنى معنى الكلام ولمت نفسى .

وأكثر ما ضايقنى أننى أخذت أتناول المسألة وكأننى أرسين لوبين أو شرلوك هولمز، بينما المسألة تبدو لزوجته وكأن زوجها قد أصيب بلوثة عقلية .

لأبكر بلقائه ولا أنتظر موعدنا السابق .

د. أوديت

(١٧)

رُحِّل خالد القويسنى الى سجن طره تمهيدا لمحاكمته .

لم يعترف على أحد وادعى أنه يحرر المنشورات ويطبعها ويوزعها بنفسه وقدم دفاعا سياسيا يبرر به فعلته .

أخذ الرجل على عاتقه العبء كله .

ذهبت إلى صديقتى سونيا دون موعد طلبا لمعاونة زوجها فى الاتصال بخالد القويسنى فى المعتقل، ووجدتها فى حالة مزاجية سيئة للغاية لأسباب شخصية، واشتكت لى من زوجها عباس الوهيدى . قالت :

- عباس طلق السياسة وتفرغ للعب القمار ولضربى . ابنتنا الطفلة لم تسلم من صراخه حتى رغبها .

كانت مظاهر الضرب غير واضحة عليها ، لكن اخبار ادمانه القمار كانت تصلنى من حين إلى آخر ولا أعجب لها، فقد وقع عباس الوهيدى فريسة للحظة تاريخية معقدة لا قبل له بالتصدى لها أو حتى فهمها بعقلانية وهو الضابط المتحمس .

سونيا يهودية مصرية ، اشهرت اسلامها للزواج منه وقبلت التخلى عن العمل السياسى، وكان ذلك شرطه الوحيد ، وعاشت كربة بيت لعدة سنوات ثم ضجرت من القيام بدورها وحنت للعمل السياسى.

ومن الغريب أن سونيا عاودها الحنين إلى العمل بعد الانقلاب أما زوجها فقد اعتبر نفسه قد أدى المهمة التاريخية نيابة عنها أيضا بطرد الملك واعتزل السياسة وهمومها .

قلت لها مباشرة .

– أنا فى حاجة إلى مساعدة عباس .

قالت ساخطة :

– عباس نهارا فى قهوة الضباط فى المنيرة، وليلا أمام موائد القمار فى بيوت أصحابه من الضباط. عباس لا فائدة منه .

ثم أضافت :

– أنوى الطلاق والسفر إلى فرنسا . لى اقارب هناك . لا فائدة من المعيشة معه. سقطت فى الشهر الماضى حتى لا ازيد اعبائى وكفانى طفلة واحدة منه .

أخذتنى على غرة. سونيا الفتاة الجميلة التى هامت بعباس الوهيدى الضابط القوى الوسيم زلق اللسان تتحدث عن الطلاق . يا لها دنيا عجيبة .

هى صديقتى لسنوات عديدة مضت، ويؤسفنى ما آل إليه حالها، وتضايقت من نفسى لأننى انقطعت عنها لفترة طويلة، وجئت إليها فى ساعة كدر وليس عندى وقت للدردشة أو الحديث . قلت :

– لنا رفيق فى سجن طرة فى الحبس الانفرادى وأود ارسال رسالة له عاجلة وعباس سوف يجد وسيلة لمساعدتنا .

قالت :

– صدقينى. عباس لافائدة منه . ولو صارحته بهذا الأمر ربما تهور وأبلغ عنا أو ضربنى علقة ساخنة . عباس أدمن القمار، ثروتنا تتسرب من بين يديه كل ليلة. عباس تغير .

سونيا لاتكذب على، ولا تدعى هذه الأمور لتهرب منى ، طول عمرها انسانة جادة . سألتها .

– وصل به الحال إلى هذه الدرجة ؟

اجابتنى ، قائلة :

– نعم . فى الحضيض . اصابه مرض عقلى . يزعم أنه يلعب القمار لينقذ رقبته من حبل المشنقة . حادثة القبض على ضباط المدفعية اصابته بصدمة. أصبح شخصية مستهترة. توقف عن قراءة الصحف.

سألتها :

– والحل ؟

اجابتنى قائلة :

– سوف اتكفل أنا بهذه الرسالة .

كنت أسألها عن زوجها ، وقد شغلتنى حالتها ، وقد بدأت أرى على وجهها علامات القنوط واليأس، وبدا لى جسدها مترهلا قليلا ، ويميل إلى النحافة، وقد فقدت نضارتها ورونقها، بعد أن فقدت كثيرا من وزنها .

قالت :

– ابنة مأمور سجن طرة صديقة لى . سوف أدس الرسالة فى فردة حمام

«محشية» محروقة وإلى جوارها وزة كبيرة. وسوف يسرق المخبرون الوزة ويتركون له فردة الحمام .. ما اسمه ؟

اجبتها . قلت :

– خالد القويسنى .

سألتنى . قالت :

– لا تقلقى . احكى لى شيئا عنه .

قلت :

– رفيق عجوز . وقد تعرض لتعذيب شديد . عمره حوالى ستين عاما، ترزى . قضيته معقدة وقد اعترف بالتهمة لكنه لم يعترف على أحد .

قالت :

– مسكين. سوف أرسل له ايضا ملابس داخلية ونقودا .

حذرتها من خطورة الاتصال به مباشرة . قالت :

– لا تخافى . هى صديقتى .

ناولتها الرسالة ، ووعدتها بزيارة أخرى للحديث والدردشة ..

خالد القويسنى

(١٨)

استدعانى مأمور السجن وطلب منى الجلوس، اعتذرت له بسبب تسلخات جسدى، واستندت بيدى الى كرسى وظللت واقفا منحنيا ، اهتز فى وقفتى بسبب الرعشة وقد لفحنى هواء بارد بينما درجة حرارتى مرتفعة للغاية .

قال حضرة المأمور :

– لك طرد هنا .

قلت :

– شكرا .

سألنى فى ود :

– لك طلبات ؟

قلت :

– أطلب تحويلى إلى العيادة. جسدى كله تسلخات وليس فى قدرتى تنظيف جروحى.

طلب منى أن أخلع هدومى. رفعت يدى، لكننى اهتززت وأشرفت على السقوط .

قال ساخطا :

- خلاص . انتظر .

نادى على عسكرى ، وطلب منه استدعاء اثنين من التمرجية من العيادة .

كنت أسمعه وكأنه يخاطب نفسه وأن الأمر لايخصنى ودارت بى الدنيا فأغمضت عينى .

سمعت ضجة أقدام. قال المأمور .

- اسندوه واخلعوا له الجلابية .

فتحت عينى. وجدت اثنين من التمرجية. خلعوا لى الجلابية وكانت قد لصقت بجروحى فصرخت من الألم، زادت رعشتى وأنا أحس بأن جلدى كله قد اشتعلت فيه النيران .

قال المأمور :

- طيب أحولك عيادة .

قلت :

- شكرا .

طلب منهم لفى ببطانية وعرضى على الطبيب غدا بعد تنظيف وتطهير جروحى .

بعدها قال :

- هذا الطرد لك .

وطلب من عسكرى فتح الطرد أمامه . قال :

- وزة باكملها وفردة حمام محشية وعدة تفاحات وعيش. والله لو أكلت من الوزة وأنت عندك حمى لمت .

قال :

- ثمانى تفاحات . احتفظ لك بها فى مكتبى . يكفيك تفاحتان كل يوم .

قال مؤنبا لى :

- تفاح ووزة وفردة حمام وخمسة جنيهات أمانات . أنت رئيس التنظيم يا رجل ياعجوز. والله معهم حق اذا كسروا عظمك .

صمت .

قال :

- انت مهم قوى .

قلت :

- أنا ترزى بلدى وأفرنجى .

سألنى :

- تفصل بدلة ؟

قلت :

.. نعم .

طلب من تمرجى احضار نقالة، فجرى أحدهما خارجا ، وبقى العسكرى والتمرجى الاخر يسندانى خوفا من وقوعى .

قال المأمور :

- التفاح فيه شفاء إن شاء الله .

وبعدها أكمل قائلا :

- المريض لايجوز شنقه وفقا للشرع، وإن شاء الله نشنقك بعد ما تخف .

صمت ولم أعلق على قوله .

عاد التمرجى ومعه النقالة . فردها على الأرض . قال المأمور :

- خدوه أعطوه حقنة مسكنة، وبعدها تعالوا خدوا الوزة .

وأكمل موجها الحديث الى : قال :

- وأنت يا رجل ياعجوز . كفاك فردة حمام وتفاحة الليلة .

حملونى الى العيادة .

عرونى وغسلوا جراحى وطهروها وغطوا جسدى كله بالشاش والقطن

سألنى تمرجى :

- تحب تبقى فى العيادة تحت الملاحظة .

رفضت، فضلت العودة إلى زنزانتى .

شاورت إلى أحد التمرجية، أحسست بطيبة قلبه ، وطلبت منه أن يقرب أذنه منى . قلت :

- وصيتى يا خال . اذا مت . تمر على عنابر الشيوعيين ، تقل لهم خالد القويسنى ترزى الأمراء مات فى السجن، هذه وصية .

هز الرجل رأسه ، قال :

- حاضر ياولد عمى .

من اجابته ادركت أن حياتى فى خطر وأن الموت ينتظرنى . كنت أحس بالحرص فى يده وهو يدعك تسلخات جسدى بالمطهرات وكان يشاركنى ألمى إذا صرخت أو تأوهت، فيرفع يده عنى على الفور.

وفجـــأة وصل الطبيب. ســـأل عنى وفحصنى، دق على صـــدرى، قاس لى الضغط.

طلبت أبل ريقى بكوب من الماء ورفض. قال :

- سوف أعطيك «جلوكوز» أولا .

يقلبونى كقطعة القماش وإذا داست أصابعهم فى التسلخات صرخت واهتز جســـدى كله .

قال الطبيب :

- قلبك سليم تماما . أنت لاتدخن ؟

قلت :

- لا أدخن ولا أشرب الشاى والقهوة إلا مرتين فى اليوم .

ثم أكملت قائلا :

- ليس لى كيف معين .

علق التمرجى الذى كان يفعص فى جسدى دون رحمة وأرى الشر فى عينيه قائلا :

- الرجل نطق يا دكتور .

زجره الطبيب بنظرة قاسية ، شخط فيه ، قال :

– جلوكوز .

غرزوا إبرة فى ذراعى وتدفق السائل فى جسدى ، وفى كل لحظة مع انسياب السائل ترد فى الروح وتزول غشاوة عينى وأحس بقليل من الدفء وتفارقنى الرعشة . تذكرت الطرد. قلت لنفسى هذا الطرد فيه رسالة من الرفاق، سرحت وخمنت طويلا. من يرسل لى تفاحا بدل الحلاوة الطحينية والجبنة القريش؟

هذ الطرد ليس من زوجتى أو من معارفى فى الحارة ، فورقة النقود كانت جديدة، وأحياء القلعة وسوق السلاح والسيدة نفيسة ليست بها ورقة جديدة مثل تلك الورقة، كانت تخشخش فى يد المأمور. لها صوت . معارفى من التجار يحتكمون على نقود كثيرة ، لكنها نقود قديمة ، يجمعونها من الزبائن الصغار وقد لطختها الكتابات والشعارات ولوثها زيت الفول والطعمية، أما تلك الورقة فهى صادرة عن البنك لتوها ، وأهالى القلعة وسوق السلاح والسيدة نفيسة لايتعاملون مع البنوك، ولا يعرفون النحاسة الصفراء.

ربت الطبيب على خدى، قال :

– هه . اين أنت ؟

اجبته قائلا :

– افكر فى العيال .

قال :

– طيب.

سحب ابرة الجلوكوز من ذراعى . قال :

– هات يدك الأخرى . حقنة بنسلين .

تنبهت . قلت رافضا :

– لا. عندى حساسية ضد البنسلين . أموت .

سألنى فى استنكار ، قال :

– ماذا ؟

كانت الحقنة فى يده جاهزة ، والتمرجى الشرير يشد يدى . قلت : حساسية .

تراجع الطبيب الى الخلف ، سألنى وهو يضحك، قال :

– انت شيوعى ولا اخوان ولا مخدرات ؟

اجبته ، قلت :

– أنا من مؤيدى الثورة ، الثورة الحقيقية .

قال ساخرا منى :

– والله انت قاتل. قلبك حديد ، عيناك غامضتان، لسانك مثل المنشار.

عدلت نفسى. قلت – أنا ترزى. زبائنى بهوات مثل حضرتك . إن شاء الله بدلة الفرح من يدى. من يد أحسن مقصدار . على الموضة.

ضحك .

أكملت ، قائلا :

– محلى ٩ شارع طنطاوى فى القلعة ، وبيتى ..

قاطعنى، قال :

– اخرس .

صمت على مضض . كنت أود ذكر عنوانى للتمرجى الطيب القلب، ربما يتطوع بزيارة جماعتى، وقررت أن أتصرف .

قال الطبيب – أنت خطر إذا بقيت فى العيادة لابد من حراسة قوية.

قلت :

– أفضل الموت على فرشتى فى زنزانتى .

قال :

– غدا ندبر لك «حقن» أخرى غير البنسلين .

قلت :

– شكرا.

تفكيرى كله فى الطرد. حملنى التمرجية والعساكر الى زنزانتى على النقالة، وقد اختلطت على المسالك وأحسست بكبر السجن وتعدد عنابره .

قرب زنزانتى وضعوا النقالة على الأرض. قمت قلت :

– أنا جائع،أود فردة الحمام والتفاحة ورغيف العيش وحبة خيار.

جرى عسكرى ومفتاح زنزانتى فى يده فى ردهة طويلة واختفى بعدها ،.

وبعد دقائق عاد لنا وفى يده بقية الطرد. نظرت الى فردة الحمام وجدتها تقلصت. كشت. الجناحان والوركان لا وجود لهما، اسنانه مفروسة فى ظهرها وقد اختفت نسيرة الصدر. تعجبت لهذه الدناءة، وهذه السرعة.

قلت له ساخرا :

– بالهنا والشفا .

زمجر. نظر الى غاضبا. قلت له مهدئا :

– الوزة بأكملها لك .

قال :

– آه .

فتح الزنزانة ، وبينما أدخل ، قلت بيتى فى سوق السلاح ٣ زقاق رفاعى ، خمسون قرشا غدا من الأمانات ، دفعنى . أغلق الباب على واطل من الطاقة كررت عليه العنوان . قال : طيب .

قلت :

– بلغ الزملاء فى عنبر الشيوعيين .

قاطعنى ، قال :

– زميلى .

قلت من خلف الطاقة :

– له خمسون قرشا هو الآخر .

قال :

اتفقنا .

وأغلق الطاقة . فاظلمت الزنزانة . الساعة تقارب الرابعة أو الخامسة والدنيا نهار خارج الزنزانة ، لكنها معتمة فى الداخل ، واعتادت عيناى على عتمتها ، واكتشفت طاقة عالية مفتوحة يتسلل منها شعاع من الضوء . حزمة صغيرة تنعكس على الحائط ولا تسقط على الأرض .

جلست على فرشتى دون أن أرتمى ، وقد ضايقنى أن يعود العسكرى المتوحش مرة أخرى ويرقبنى من الطاقة وأنا أقضم قضمة أو قضمتين من التفاحة فيسمم بدنى بنظراته الدنيئة .

انتظرت برهة . ذهب إلى غير رجعة . فقلت لنفسى ، جرى ليأخذ نصيبه من الوزة قبل أن يلتهمها زملاؤه .

التفاحة فى يدى أقضمها ويدى الأخرى أضعها على فردة الحمام التى اختفى ربعها أو نصفها فى أقل من دقيقة وقد صدت نفسى عنها لكن بى شوق لتمزيقها ومعرفة ما بداخلها .

تركت التفاحة والتفت إلى فردة الحمام أفكها من الرباط . فتلة فرنسية ندوخ عليها نحن الترزية هذه الأيام . فتلة رقيقة ومتينة . قلت لنفسى ضاحكا : هذه الفتلة تليق بترزى محترم .

غاصت أصابعى فى الفريك الدسم . تناولت عدة حبات منه . عيناى تقلبان فى الفريك بحثا عن رسالة من الرفاق .

وجدت بغيتى .

رسالة مكتوبة على ورق بفرة . ورقتان ملفوفتان . باكو ورق بفرة . بقية الفتلة ملفوفة وفى نهايتها سن قلم رصاص . أدوات اتصال كاملة لاختراق حاجز العزلة والاتصال بالرفاق .

سن القلم الرصاص وورق البفرة أثمن شىء فى السجون .

قمت من جلستى ووضعت سن القلم فى الركن المظلم من الزنزانة . أما ورق البفرة فقد دسسته فى شق فى جدار الزنزانة .

درت بعينى على الرسالة على وجه السرعة .

كان قيامى وقعودى قد أرهقنى ، جلست أنظر إلى الرسالة أقرأ ذات الكلمات مرة واثنين ولا أشبع . ورقتان فقط .

هذا هو السجن . جرحى غائر تحت تسلخات الجلد وضيقى شديد ، لكننى لن أترك نفسى فريسة للظنون وإلا قضيت على نفسى بنفسى . والحقيقة سوف تظهر عاجلا أم آجلا .

لن أكف عن طلب تحقيق فى سبب وقوعى على هذا النحو المضحك . خيانة أم أهمال ؟

ينصحوننى بالصبر ، ولكننى لا أقوى .

غدا أبدأ فى كتابة رسائل، والاتصال بالزملاء فى العنابر السفلية بعد سماع النداءات وكلمات الترحيب من المسجونين الليلة .

الليلة ليست بى همة ، وفى حاجة إلى راحة ، ولن أعدم وسيلة غدا فى معرفة عنابر الرفاق .

جمعت بقايا الطعام ولففتها فى منديل . حافظت عليها . بقية التفاحة . قطعة عظم . لقمة عيش . هذه نعم لا يجوز التفريط فيها ، فالدنيا غدارة ، وما يتعفف الواحد عنه اليوم ربما يضطر لأكله غدا

فردت طولى فى حذر. رقدت على جنبى . تركت نفسى لزوجتى وابنائى وأحفادى يأتون الىّ فى أحلام يقظتى . هذا هو عالمى الصغير . عالمى الحميم بعد العمل السياسى .

فى وحدتى أراهم كما لم أرهم من قبل ، ونحيت عنى التفكير فيماينتظرنى حتى لا أفسد إقامتى وأحطم أعصابى ، فما وقع قد وقع ..

د . السيد أحمد باشا

(١٩)

لا يخفى عنى أن مجموعة من السياسيين القدامى من رجال الأحزاب ينتقدوننى بسبب صلتى بجمال عبدالناصر ، على الرغم من أننى لا أشغل منصبا رسميا ، بل يتهمنى بعضهم أيضا بأننى أوفر حماية لابنتى أوديت من جراء هذه الصلة .

يدعون أننى تخليت عن استقلاليتى ، وتنكرت لمبادئى وأصبحت مؤيدا لحركة الجيش ، ومدافعا عن عمليات البطش بالقوى السياسية المعارضة .

أغلقت مفكرتى وسرحت .

لا يعلمون أن جمال عبدالناصر عرض على منصبا وزاريا أو مستشارا لكننى رفضت كل عروضه وأوضحت له أن دراساتى تشغلنى عن المناصب وأن مكتبى له شهرة واسعة فى الأوساط القانونية الدولية ، ولى دخل كبير من القضايا والاستشارات فى قضايا الحدود وتنازع القوانين ، وأننى قد أحلت نفسى إلى المعاش تقريبا كى أتفرغ للتأليف وأقتصر فى عملى حاليا على تقديم المشورة فى القضايا الكبرى فقط .

ولا أذهب إلى مكتبى إلا لساعات قليلة فى الشهر .

قال لى جمال عبدالناصر :

- يا دكتور أحمد أنت تتناول أتعابك بالدولار والجنيه الاسترلينى وأنا ليس عندى لك سوى الجنيه المصرى .

أحجمت عن اطلاعه عن تنازلى عن مكافأتى عن المحاضرات فى جامعة فؤاد منذ إحالتى على المعاش ، لكنه أوضح لى بطريقة غير مباشرة ، أنه لا يوافقنى على مسلكى ففيه شبهة اساءة لأساتذة أفاضل فى فروع أخرى من العلم يعيشون على مرتباتهم من الجامعة .

أحسست فى تلك اللحظة أنه يعرف عنى أكثر مما ينبغى ، وضايقنى ذلك كثيرا .

أدركت أن عيونا ترصد حركاتى وأقوالى وأننى أفقد حريتى شيئا فشيئا .

التقيت بالمهندس سيد بك مرعى العضو المنتدب للجنة العليا للإصلاح الزراعى صدفة عصر اليوم فى النادى .

لم أره منذ فترة طويلة ، فدعوته إلى مائدتى ، فاقبل .

جلستنا سويا تثير حفيظة قدامى السياسيين . نحن الاثنان ، سيد بك مرعى وأنا متهمان بالنفعية .

هو من الشخصيات التى سوف يتوقف عندها المؤرخون طويلا ، فقد انسلخ عن الحزب السعدى وابتعد عن رئيسه إبراهيم عبدالهادى باشا ، وشغل نفسه بتطبيق قانون الإصلاح الزراعى ، بل ويعمل إلى جانب قائد الجناح جمال سالم وهو واحد من أعنف الناس مزاجا ، وهذه حنكة سياسية .

سيد مرعى واحد من أربع شخصيات بارزة من العهد الملكى انحازت إلى حركة الجيش . اثنان من السياسيين ، هما فتحى رضوان بك والمهندس سيد بك مرعى ، واثنان من رجال القضاء هما الدكتور عبدالرزاق السنهورى باشا رئيس مجلس الدولة والمستشار سليمان بك حافظ .

لكل واحد من هؤلاء أسبابه الخاصة لانحيازه إلى حركة الجيش والتى تختلف عن أسباب زميله ، بل إنهم من جماعات مختلفة فى المشارب ، لكن يجمعهم هدف واحد ، هو العداء للوفد .

يطبق المهندس سيد مرعى قانون الاصلاح الزراعى بطريقة فريدة ، لم تعرفها الحركات الاصلاحية من قبل ، وبدأ تطبيق القانون على معارفه من الباشوات والأعيان وليس على صغار الملاك ، فاكتسب ثقة جمال عبدالناصر .

سألته :

– كيف تتم عملية مصادرة أطيان الأعيان فى الريف دون احتكاكات مسلحة فيما عدا حادثة عدلى لملوم فى الصعيد ؟

روى لى أنه توجه إلى البدراوى عاشور فى عزبته ، وأقنعه بضرورة تطبيق القانون والحكومة جادة فى تنفيذه ، بينما البدراوى عاشور يضرب كفا بكف ولا يصدق أذنيه .

أنقذ سيد مرعى بحكمته رقاب طبقة بأكملها وعطل قوانين التاريخ إذا صح هذا القول : فقد أجل الصراع الطبقى إلى حين ، وسحب البساط من تحت أقدام المزارعين الثوريين .

هذه لحظة تاريخية ، وضعت فيها الظروف رجلا مثل سيد مرعى إلى جانب قائد الجناح جمال سالم ، حيث يطبق قانون الإصلاح فى مصر بالخطابات وليس بالدبابات .

كتبت فى مفكرتى :

المهندس سيد مرعى سوف يلعب أدوارا متعددة فى المراحل السياسية المقبلة . وقد وضع بصمته على قانون الإصلاح الزراعى .

هو سياسى بالفطرة ، ولهذا يتهمه أعداؤه بالانتهازية .

أغلقت مفكرتى .

أبن زهية يلاعب نفسه فى عربته فى الطابق الأول ، ويصلنى صوته قمت وألقيت نظرة على الدرج . رأيته فى عربته . ناديت على زهية . قلت :

– فنجان قهوة مضبوط .

خرجت من المطبخ نشطة ممشوقة القوام . قالت :

– حاضر يا باشا .

وظلت واقفة وهى ترفع رأسها وتتطلع إلى فالتقت نظراتنا . وبعدها عادت إلى المطبخ ، وتابعتها بعينى . رميت عينى على جسدها واستقرتا على ظهرها ومؤخرتها . زهية لها حضور قوى فى البيت ، هذه ليست شغالة عادية ، لكن ربة البيت . جسدها الأنثوى الفائر المشدود يجبرنى على البقاء فى الطابق الأول بمراقبتها سرا فى أحيان كثيرة ، أو النظر إليها من وقفتى فى شرفة الطابق الثانى .

لا تطلب أجازة أو تتخلف عن طلب ، بينما آن تغادرنا فور أن تنتهى من عملها ، تذهب إلى صديقات وأصدقاء لها فى المدينة أو فى النادى ، أما الدادات فمن غرف النوم إلى المطبخ .

أعادت زهية العافية لى ، فأصبحت أنزل الدرج مسرعا . لا أتلكأ أو أستند إلى الداربزين ، من أجل رؤيتها أو الحديث إليها .

تناولت منها فنجان القهوة . قلت لها :

- تسلم يداك يا زهية .

قالت مبتسمة :

- بالصحة يا باشا .

تعلقت عيناى بها حتى غابت ، وظل وقع خطواتها فى مسامعى ، وقد لفحتنى بعطر أنثوى ظل بعضه حولى فى الهواء واحسه فى داخلى .

حمادة أبو جبل

(٢٠)

خلعت هدمتى ، ووضعت على جسدى ملابس الخروج ، وطلبت من «ستهم» أن تستعد للذهاب معى إلى طبيب أمراض جلدية متخصص . قلت لها . طبيب أمراض جلدية يا امرأة .

قبلت يدى . انحنت عليها . قالت . الله يبارك فيك يا عمدة .

فى اليومين الماضيين ، أعملت فكرى ، ووجدت من الصواب ، مداواتها من الهرش ، ومن تلك الرائحة التى تقتلها فى النهار وفى الليل ، وتمنع عنها النوم .

انتقل إلى قلقها . وخفت على نفسى من الهرش ، وخفت أن تصاب ابنتنا بالمرض فتضحى مصيبة ، ويقال عائلة «أبو جبل» ضربها الجرب أو الحساسية . كلهم يهرشون . ونصبح «مضحكة» فى العزبة والمديرية .

قلت لنفسى . هذه نذالة تبلغ حد القتل وليست من الدين فى شىء ، فأنا قادر على مداواتها ، ومن حسن الفطن تحسين العلاقات مع عائلة أبى حميدة بعد أن أصبحت أيام العموديّة معدودة ، والبلد هائجة ، وليس لها كبير، بعد أن هاجم البكباشى جمال عبد الناصر اللواء محمد نجيب فى العياط أمام الميكروفونات علانية .

كلما قرصتنى ناموسة ،، أو حطت على وجهى ذبابة ، هرشت . قلت . هذه حساسية ، أو الجرب . وضعت مرآة الحلاقة المكسورة فى جيبى وقد شغلتنى الحساسية .

طلب منى اليوزباشى شهدى الششتاوى تزويد مديرية التحرير بالمزارعين فجمعت له عشرات من المتعطلين وعمال التراحيل ، فشحنهم فى عربات لورى تابعة للحاج عمران ، وانقطعت أخبارهم عنى .

من لهجة اليوزباشى شهدى الششتاوى ، وطريقته ، أدركت أنه يعد لشىء فى الخفاء ، ترك الأقوياء أصحاب المهن والخبرة ، واختار أصحاب الأصوات العالية ، واللسان الطويل ، والفصاحة ، وكأنه يطلبهم للزعيق فى مديرية التحرير وليس للعمل .

قلت فى نفسى : حركة الجيش غاوية متكلمين ، والواد حسان ابن «أبو طاقية» خير من يخطب ويهيج الناس ، الكلام يجرى على لسانه مثل العسل .

اختارهم من المترددين على هيئة التحرير ، واستبعد منهم الإخوان المسلمين . قلت فى نفسى . معه حق .

الواد حسان أبو طاقية لا يكف عن الكلام والخطابة ، ولا يعيبه إلا الهرش تحت باطه . هذا داء فيه ، وفى عائلة «أبو طاقية» كلها . قلت ، لعله يهرش الآن فى مديرية التحرير ، وربما انتقلت العدوى منه إلى اليوزباشى شهدى الششتاوى . فضحكت . حلمى أن أراه هو الآخر يهرش تحت باطه فتهتز الدبابير على كتفيه .

والله خسارتك يا عباس يا «أبو حميدة» . فهذه أمور لا يفهمها غيرك بعد أن اختلط الشامى بالمغربى . والله لو عدت إلى العزبة لأخفيتك عن الملازم أول حسن طلعت والحكومة كلها . أضعك فى «نينى» العين من جوه .

أنت تفهم من الهرش إلى السياسة العليا . جئت بدواء من وراء ظهرى لستهم ، طابت من الهرش .

وقفت فى دار العمودية انتظر ستهم . تغسل المسكينة نفسها من البثور وتبعد عنها تلك الرائحة .

الطبيب سوف يفعص فى جسدها . يسألها . يعريها . لن أدخل معها . يكفينى أننى آخذها إلى طبيب متخصص فى الأمراض الجلدية .

أرسلت الغفير لإحضار عربة تاكسى ومقاولتها .

تضايقت . لمت نفسى لأننى لم اشتر سيارة صغيرة لتنقلاتى مثل المعلم عمران .

نسيت أن أنبه على الغفير أن تكون العربة وصاحبها غريبين عن خط عزبة عويس – البدرشين . أود عربة من الجيزة ، والجيزة واسعة . ولن يقول أحد إن العمدة «حمادة أبو جبل» أخذ جماعته إلى ميدان الجيزة .

ناديت على غفير عجوز ، «وفطمته» ، وطلبت منه أن يلحق بزميله . ولا يعودان إلا فى عربة تاكسى فاضية بعد مقاولة صاحبها الغريب عن الخط .

أنا أعرف أصحاب عربات التاكسى التى تعمل على خط عزبة عويس – البدرشين الجيزة . إذا ركبت مع واحد منهم بعد نصف ساعة تأتينى التليفونات من البدرشين تستفسر منى ، عما فعلت فى مديرية الجيزة ، وكيف حال الحكومة ، وإذا اشتريت هدمة أو قطعة قماش لابنتى ، سألنى الغرباء عن الأخبار السارة وهل تم كتب كتابها ؟

كلهم ملاعين . والله المعلم عمران معه حق ، ينصحنى بالمعيشة فى المديرية أو على الأقل فى شارع الهرم ، بعيدا عن عيون الناس .

سمعت صوت التاكسى . جاء ت ستهم متلفحة بالسواد . على عتبة القاعة الخارجية للمندرة ، عويضة أبو حسنين واقف كالتمثال . يصدر فحيحا خافتا من صدره . خشخشة فى صدره مثل خشخشة ورق الشجر اليابس . فى جلابيته طقطقة وكأن الفيران تقضم عظامه ، غالبنى الضحك . قال :

– السدة الشتوية قضت على الزرعة يا حضرة العمدة .

انقطع نفسه . صمت . لكن الخشخشة والطقطقة استمرتا . زادتا . منظره منظر موتى . يقف كخيال المآته . يلتصق بالأرض كقول الغفير خفيف العقل . قلت لنفسى . قبل أن أدلف إلى التاكسى :

– الرجل تاه عقله .

أشرت إلى واحد من العقلاء . قلت :

– ما فات سوف تصلحه الأيام . أدخل «عويضة أبو حسنين» إلى المندرة . بالقوة . أطلب له لقمة ساخنة ترمه .

لم أسمع منه إلا جملة واحدة . قالها بوضوح . قال :

– اللون الأخضر ضاع من عينى يا حضرة العمدة .

كنت أجلس إلى جوار السائق . وستهم بمفردها فى الكرسى الخلفى . رأيتها فى المرآة تهز رأسها فى قرف . تغطى وجهها بحبرة ثقيلة لا تكشف إلا عن عينيها الواسعتين . رأيت هزة رأسها تحت الحبرة . رأيت الغضب فى عينيها . تقول لى بعينيها . متردد دائما يا عمدة . لا تحسم ولا تبت . لا تهش ولا تنش . احترق البرسيم وضاع اللون الأخضر ليس من عزبة عويس فقط ، ولكن من عيون الناس أيضا .

غدا يهتف المزارعون بحياة الملك فاروق والأميرة شويكار وهى تشغل لهم

وابور المياه . هؤلاء مزارعون أبا عن جد جد ، وعبد فى أرض مزروعة خير من مالك أرض محروقة .

لا تحادثنى ولا أحادثها أمام السائق الغريب ، لكن حوارنا الصامت لا ينقطع لحظة واحدة كالمحبين . أرى جانب وجهها ، وفى مرات عينيها . جانب وجهها أراه تحت الحبزة ، فأعرف قولها ، وغمازة الحسن تهتز .

معها حق والف حق . فطنة هذه المرأة من فطنة ولد عمها «عباس أبو حميدة» حذرتنى كثيرا من مغبة الانتظار أو الاعتماد على عمران فى مشاركته لى على وابور مياه جديد للعزبة . قالت . هذا رجل مكائد ، وربما يسعى لشراء أرض الفلاحين برخص التراب . قالت . هذا تاجر ومقاول . الزراعة ليست فى دمه . لم يرث عن جده وأبيه الزراعة ، لكنه ورث عنهما التجارة والسمسرة والمقاولات .

حديثها يطاردنى . على الجانبين حدائق عالية والأرض مزروعة حتى ميت عقبة والكيت كات بينما عزبة عويس هى البقعة المحروقة الوحيدة فى هذه الخضرة.

من حسن الحظ ، عزبة عويس ليست على الطريق ، ولكنها منزوية وغائبة بعيدا عن المسئولين ، ولا يراها أو يحس بها إلا من تكون وجهته البدرشين أو العياط .

كلما توغل التاكسى فى طريق الأهرام فى اتجاه الجيزة ، اشتد أريج الخضرة مع نسمات الشتاء الرطبة ، فتلصق بأنفى . الأوراق تتراقص على أشعة الشمس الذاهبة الهاربة ، أما ورائى فى عزبة عويس فقد ضاع اللون الأخضر ، وتصاعدت الأتربة والعفرة من الحقول .

نحيت عنى حديث الحقول ، والتفت إلى الخلف أود محادثتها لكننى أحجمت ، فمن العيب أن تخرج امرأة صوتها أمام غريب . كنت أود سؤالها لماذا

لم تصحب معها امرأة وتعفيني من مهمة ثقيلة على النفس ، وأنا أرى الغريب وهو يفعص فى لحمها بالحق وبالباطل ؟!

هل كان ينقصني أيضا هذه الأيام مرضها وتعكير مزاجي :

بعد مداواتها الليلة أحسم موضوع الوابور . أجمع المزارعين وأعلنهم بأنى سوف أشترى واحدا من أجلهم . وحشة البرسيم التى احترقت عليها العوض والبرسيم يصبح فى حشته الثانية والثالثة .

أعفتني ستهم من الدخول معها إلى الطبيب . قلت . كلك فطنة يا بنت الناس . .

أبيع ربع قيراط واشترى الوابور .

ستهم

(٢١)

حضرة العمدة باله مشغول بأحوال العزبة ، قلت فى نفسى : أعفيه من الدخول معي إلى الطبيب . أشرت له بهزة من رأسي ، فبقى فى موضعه جالسا ، وقمت مع الممرضة .

كنت قد دققت فى الكتابة المكتوبة على الحائط ، حتى فككت الحروف ولضمتها مرة أخرى .أستاذ أمراض جلدية وتناسلية . تناسلية تعنى «الخلفة» ، والحمل ولوازمه . قلت . جاء الفرج .

أسأله بالمرة عن انقطاع الخلفة وتوقف حملى .

فحص الطبيب قدمى وتحت الركبتين والأبطين كما كشفت على الدكتورة صباح منذ عامين فى بيت ولد عمي «عباس أبو حميدة» . فقلت . العلم كله واحد والدواء . الذى سوف يكتبه فيه الشفاء كما طيبنى دواء الدكتورة صباح . والله وحشتني ووحشت العزبة الدكتورة صباح .

كان فى نفسى أرسل لها فهيمة لكنها امرأة مكشوفة وتكسيف .

قال الدكتور :

– هذه حساسية وعلاجها بسيط .

مددت رأسى أبوس يده . سحبها . قلت :

– بارك الله فيك وفى علمك ومن علمك .

دكتور أمير . لم يقل جرب ، والجرب لا علاج له كتب لى الروشتة . تناولتها منه وأنا أحس أن الهرش ضاع . قلت :

– بنتى الوحيدة عروسة يا دكتور ، وأنا قطعت الخلف من خمسة عشر عاما .

نظر . لم يكشف على بطنى . سألنى :

– من ولدك فى المرة السابقة ؟!

قلت :

– الداية . أحسن داية فى البر .

قال :

– ربما توقفت الخلفة بسبب الولادة السابقة .

قلت :

– والعمل يا دكتور ؟ زوجى عمدة ، وقلبه يحن إلى ولد .

قال :

– أنصح بزيارة طبيب نساء .

قلت :

– البركة فى حضرتك . تناسلية فى عرف الفلاحين – لا مؤاخذة – تعنى

خلفة . ضحك . كتب شيئا . قال :

– خذى هذه ورقة تحويل إلى طبيب نساء فى العمارة ، فى الدور الخامس

أمسكت الروشتة ووضعتها على ورقة التحويل . كلها كلام أفرنجى ، استراح قلبى . خرجت إلى «حمادة أبو جبل» . قال :

– إن شاء الله خير .

قلت :

– الدكتور حولنى إلى طبيب أمراض نساء فى الدور الخامس .

قال :

– لا بأس . نزوره بالمرة .

الورقتان فى يدى ، وصعدنا السلالم .

إذا حاول الدخول معى . سأقول له :

– يا عيب الشوم . هذا دكتور أمراض نساء يا عمدة . من حسن حظى ، تركنى أدخل بمفردى . قال :

– إن شاء الله بالشفاء يا ستهم .

أدارى سرى . قلت :

– ان شاء الله .

يوزباشى شهدى الشتاوى

(٢٢)

هناك قلة من البشر لا يمكن التنبؤ بتصرفاتها البتة . أناس من نوعية خاصة .

كل الناس تسعى وتكدح لمصلحتها الخاصة فيما عدا تلك القلة . حساباتهم غريبة ، وربما أيضا لا حسابات لهم ، وتصرفاتهم نابعة من الطيش أو الغرور الكامن فى نفوسهم .

رد لى عبدالقوى بك عزيز الشبكة ، وطلب فسخ خطوبتى لابنته بعد عام من خطبتنا .

كنت قد منحتها حليا ومجوهرات ردها إلىّ كاملة غير منقوصة .

عبدالقوى بك عزيز من أقطاب حزب الوفد الذين لحقهم التطهير ، وكان دفاعه عن مصطفى النحاس فى كل مناسبة سببا للتخلص منه ، نصحته كثيرا بتخفيف حده نقده لحركة الجيش دون فائدة . سعى إلى التهلكة بإرادته .

تعرفت على ابنته نبيلة فى الجامعة ، بهرتنى شخصيتها ، وهزنى جمالها ، وجمعتنا عدة جلسات فى البوفيه وفى الأنشطة الجامعية ، وكان حماسها لحركة الجيش وطرد الملك واضحا .

كنت قد سجلت نفسى طالبا بالدراسات العليا وأتردد على الجامعة بصفة منتظمة ، للعمل والدراسة ، وتعلق قلبى بها .

عندما عرضت الأمر على الرئيس جمال عبدالناصر ، تمنى لى كل سعادة، لكنه نصحنى أن تكون حفلة خطبتنا عائلية ، وقال ضاحكا :

– الحب والزواج لادخل لهما بالسياسة ، لكننى لا أقدر على الوجود فى حفل كل المدعوين فيه من الوفديين .

كان فى مقدورى بعدها التوسط لوالدها بعد خروجه من الحكومة فى التطهير بسبب دفاعه عن الوفد ، لكن الرجل ، طلب فسخ الخطبة وأقنع ابنته بوجهة نظره .

وصارحتنى نبيلة بعد فسخ الخطبة بعدة أسابيع أن سبب غضب والدها منى ، شهادتى على زملائى فى قضية المدفعية ، قالت لى :

– هذه ليست أخلاق الفرسان .

هزت كتفيها ، ورمتنى بنظرة فيها من الاحتقار أكثر من اللوم أو العتاب ، وغادرتنى .

ذهبت .

أحسست براحة لذهابها ، زواجى منها كان كفيلا بالإساءة إلى سمعتى وربما عرضنى إلى متاعب عديدة فى الجيش .

ضجة باب الحديد الصباحية قد بلغت ذروتها وتأتينى عبر النوافذ هتافات بحياة قائد الثورة ومفجرها جمال عبدالناصر . طنين الميدان وشوشات فى أذنى ترسم لى صورة نهارى .

تأييد الشعب لقائد الثورة أراه ، فى العيون الحية . أسمعه فى دب

الخطوات ، أما الأصوات الحقودة فأراها على الأوراق ، فأستمد قوتى الروحية من الناس .

دق جرس التليفون . رفعت السماعة . قلت :

– أفندم . يوزباشى شهدى الششتاوى .

جاءنى صوت الرئيس جمال عبدالناصر يسألنى :

– أين أنت ؟ طلبتك منذ ساعة لم أجدك .

قلت والعرق يقطر منى :

– كنت فى حملة إزالة شعارات معادية ظهرت على الحيطان .

قال :

– أترك مهمة إزالة الشعارات إلى وزارة الداخلية . هذه مسئولية زكريا محيى الدين ، ما يهمنى هو معرفة أبعاد هذا التصعيد من جانب الجماعات اليسارية ، وهل هناك تنسيق بين الجماعات اليسارية وبين الإخوان المسلمين من جانب وبين محمد نجيب من جانب آخر .

أمرنى . قال :

– لا أريد تحالفا بين محمد نجيب وبين هذه الجماعات فى هذه المرحلة .

أضاف موضحا :

– بدأت هذه الجماعات تمد خيوطها إلى محمد نجيب من وراء مجلس قيادة الثورة بدعوى الدفاع عن الديموقراطية . أذهب إلى المطلق سراحهم من اليساريين ، وحذرهم من مغبة هذه الاتصالات . ساومهم على الإفراج عن بعض القيادات بوقف تحالفهم مع محمد نجيب . تابع زيارات عبدالقادر عوده المحامى

لقيادات الإخوان فى السجون وشجعه على إعادة التعاون مع مجلس قيادة الثورة مرة أخرى .

أجبت وأنا واقف :

– حاضر .أفندم .

أنتهت المكالمة لكننى ظللت واقفا . كنت مرهقا . فقد بدأت حملة إزالة الشعارات فى الثانية بعد منتصف الليل . شعارات معادية على الحيطان ولا ينفع الماء فى إزالتها . كلها تندد باعدام خميس والبقرى . كنا نحك الجير أو نلون الحيطان باللون الأزرق ، فنفسد مظهر البيوت ، ونلوث المدينة بهذا اللون الكئيب .

قرب الظهر ، جاءتنى ورقة صغيرة بعدة تكليفات جديدة من الرئيس جمال عبدالناصر . وضع دوريس لوران سكرتيرة الدكتور السيد أحمد باشا تحت مراقبة دقيقة . تضييق الخناق على الدكتورة أوديت ابنة الدكتور السيد أحمد لدفعها إلى السفر إلى الخارج ، وتدبير منحة لها ، رفع الرقابة مؤقتا عن «عباس أبو حميدة» مزارع عزبة عويس ، وتدبير لقاءات سياسية له مع اليوزباشى أنور عرفة .

رأيت إلى يسارى مجموعة من المقشات والجرادل من بقايا حملة إزالة الشعارات . طلبت إخراجها بسرعة .

بعد ساعتين ، دق جرس التليفون . على الخط الرئيس جمال عبدالناصر ،

قلت: أفندم . تم وضع دوريس تحت الرقابة . كل ورقة تخطها . كل كلمة تخرج من فمها ، سوف تكون تحت أيدينا .

توقفت عن الحديث مترددا . صدرت عنى همهمات غير واضحة . سألنى الرئيس جمال عبدالناصر فى ضيق :

– تم وقف عمليات المطاردة » لعباس أبو حميدة »؟!

قلت فى صوت متردد :

– أفندم . رفض اليوزباشى حمدى النحاس رئيس وحدة مكافحة الشيوعية فى الداخلية وقف عمليات البحث والتحرى عنه . قال إنه سوف يقبض عليه حيا أو ميتا لخطورته .

قال الرئيس جمال عبدالناصر فى غضب شديد :

–.بطرد حمدى النحاس من وزارة الداخلية قبل عصر اليوم . أود تقارير يومية عن تطور المشاورات واللقاءات بين أنور عرفة و «عباس أبو حميدة» .

قلت :

– حاضر . أفندم .

اتصلت باليوزباشى أنور عرفة فى الاسماعيلية ، وطلبت منه العودة إلى القاهرة على وجه السرعة للقيام بمهمة عاجلة بأمر من الرئيس .

الرئيس جمال عبدالناصر يثق فى حنكة أنور عرفة السياسية ، بعد أن نجح فى التغلغل فى أوساط اليساريين حتى حصل على محاضر اللجنة المركزية لتنظيم متطرف .

فى مرات كثيرة يحدثنى أنور عرفة عن مزايا الديمقراطية وضرورة السماح لليساريين بالعمل العلنى إلى درجة أنه يثير توجساتى فى إخلاصه لنا .

عقدت اجتماعا سريا لمجموعة من ضباط الشرطة العسكرية ومجموعة خاصة من ضباط المباحث لوضع خطة لإجبار الدكتور أوديت على السفر إلى الخارج فى بعثة أو مهمة طبية .

كان أثقل عمل على قلبى اليوم ، هو إبلاغ وكيل وزارة الداخلية بقرار الرئيس جمال عبدالناصر بضرورة التخلص من اليوزباشى حمدى النحاس قبل

عصر اليوم . ورويت له ما جرى ، فقال الرجل :

– أرسله إلى إدارة المرور بمديرية القاهرة .

استرحت .

سألنى الرئيس جمال عبدالناصر بطريقة عفوية أمس ، قال :

– ماذا جرى لعباس الوهيدى ؟ ما يصلنى عنه من تقارير لا يروقنى . هذا ضابط كفء وسمعته كانت طيبة للغاية ، لماذا أدمن لعب القمار على هذا النحو ؟

قلت :

– لا أعرف يا سيادة الرئيس .

لمعت عيناه ، وفى لهجة أبوية ، قال :

– هذا واحد من رجالنا ، وواجبنا الحفاظ عليه .

قلت :

– حاضر يا سيادة الرئيس .

كنت قد توجهت إلى مجلس قيادة الثورة فى الجزيرة ، وكان المجلس مجتمعا ، فأنتظرت ولما علم الرئيس جمال عبدالناصر بوجودى هناك ، دعانى إلى مقابلته .

قلت له ، حاضر ، وتوقف حديثنا عند هذا الحد . قلتها ، وليس فى ذهنى خطة معينة أو وسيلة معينة للحفاظ على عباس الوهيدى .

الرئيس جمال عبدالناصر لا يرمى بالكلام جزافا ، بل يقصد به شيئا معينا ، فهل يطلب منى وضعه تحت الرقابة ؟

عباس الوهيدى ليس صديقا لى ، على الرغم من خدمتنا فى سلاح المدفعية

قلت فى صوت متردد :

– أفندم . رفض اليوزباشى حمدى النحاس رئيس وحدة مكافحة الشيوعية فى الداخلية وقف عمليات البحث والتحرى عنه . قال إنه سوف يقبض عليه حيا أو ميتا لخطورته .

قال الرئيس جمال عبدالناصر فى غضب شديد :

– يطرد حمدى النحاس من وزارة الداخلية قبل عصر اليوم . أود تقارير يومية عن تطور المشاورات واللقاءات بين أنور عرفة و «عباس أبو حميدة» .

قلت :

– حاضر . أفندم .

اتصلت باليوزباشى أنور عرفة فى الاسماعيلية ، وطلبت منه العودة إلى القاهرة على وجه السرعة للقيام بمهمة عاجلة بأمر من الرئيس .

الرئيس جمال عبدالناصر يثق فى حنكة أنور عرفة السياسية ، بعد أن نجح فى التغلغل فى أوساط اليساريين حتى حصل على محاضر اللجنة المركزية لتنظيم متطرف .

فى مرات كثيرة يحدثنى أنور عرفة عن مزايا الديمقراطية وضرورة السماح لليساريين بالعمل العلنى إلى درجة أنه يثير توجساتى فى إخلاصه لنا .

عقدت اجتماعا سريا لمجموعة من ضباط الشرطة العسكرية ومجموعة خاصة من ضباط المباحث لوضع خطة لإجبار الدكتور أوديت على السفر إلى الخارج فى بعثة أو مهمة طبية .

كان أثقل عمل على قلبى اليوم ، هو إبلاغ وكيل وزارة الداخلية بقرار الرئيس جمال عبدالناصر بضرورة التخلص من اليوزباشى حمدى النحاس قبل

عصر اليوم . ورويت له ما جرى ، فقال الرجل :

– أرسله إلى إدارة المرور بمديرية القاهرة .

استرحت .

سألنى الرئيس جمال عبدالناصر بطريقة عفوية أمس ، قال :

– ماذا جرى لعباس الوهيدى ؟ ما يصلنى عنه من تقارير لا يروقنى . هذا ضابط كفء وسمعته كانت طيبة للغاية ، لماذا أدمن لعب القمار على هذا النحو ؟

قلت :

– لا أعرف يا سيادة الرئيس .

لمعت عيناه ، وفى لهجة أبوية ، قال :

– هذا واحد من رجالنا ، وواجبنا الحفاظ عليه .

قلت :

– حاضر يا سيادة الرئيس .

كنت قد توجهت إلى مجلس قيادة الثورة فى الجزيرة ، وكان المجلس مجتمعا ، فانتظرت ولما علم الرئيس جمال عبدالناصر بوجودى هناك ، دعانى إلى مقابلته .

قلت له ، حاضر ، وتوقف حديثنا عند هذا الحد . قلتها ، وليس فى ذهنى خطة معينة أو وسيلة معينة للحفاظ على عباس الوهيدى .

الرئيس جمال عبدالناصر لا يرمى بالكلام جزافا ، بل يقصد به شيئا معينا ، فهل يطلب منى وضعه تحت الرقابة ؟

عباس الوهيدى ليس صديقا لى ، على الرغم من خدمتنا فى سلاح المدفعية

سويا فى السابق . وكان زواجه من يهودية مصرية أو متمصرة ينفرنى منه . كنت أقول لنفسى دائما ، ألم يجد غير هذه الفتاة ليتزوجها ، غير أننى لما تقدمت لخطبة نبيلة بعد معرفتى بمكانة والدها فى حزب الوفد ، ومعارضته لحركة الجيش أدركت أن أمور الحياة لا يمكن قياسها بالمسطرة .

وكان من حسن حظى أن والدها هو الذى طلب فسخ خطبتنا ، فأعفانى من الحرج . فاذا كانت المشاعر الإنسانية لا علاقة لها بالسياسة ، فالمصلحة الشخصية تجبر الانسان على حسن الاختيار ، والتضحية أيضا ، وهذا ما كنت آخذه على عباس الوهيدى . وها هو يدمن لعب القمار بعد حب سونيا وزواجها . هذه شخصية هشة ، كسرها سهل ، والعيب فيها .

تابعت أعمال يومى ، وصورة نبيلة التى فقدتها أمامى ، غير أننى كلما تذكرت سونيا زوجة عباس الوهيدى ، تخلصت من صورة نبيلة ، نحيتها عنى ، وضعتها داخل الدرج .

عباس أبو حميدة

(٢٣)

قطعت هروبى وظهرت فى الأماكن العامة ، واتصل بى اليوزباشى أنور عرفة ومساعده اليوزباشى شهدى الشستاوى ، وطلبا منى اجراء مشاورات حول عدة قضايا .

تريثت ، حتى أعرف رأى الرفاق المعتقلين ، وجاءت موافقة مشروطة على طلب جمال عبدالناصر ، وأولها الإفراج عن المعتقلين .

قال لى اليوزباشى أنور عرفة :

- لقد حلت قضية السودان ، وفقا لحق تقرير المصير ، ومع الاستعدادات للمباحثات مع الانجليز يجب ترتيب البيت من الداخل .

قلت له غاضبا :

- فشلت حركة الجيش فى معالجة قضية السودان بحكمة .

قال لى مسلما برأيى :

- أوافقك . كانت سياسات صلاح سالم معيبة من أساسها . استند إلى

شراء الذمم وترك أصحاب المبادىء ، لقد نفر السودانيون منا . لقد ضاع السودان والقضية الآن هى قضية جلاء الانجليز . السفير البريطانى يتلكأ ، وتشرشل يراهن على انفجار الموقف الداخلى قبل بدء المباحثات .

قلت له :

– موقفنا واضح فى قضية الجلاء ، ولا خلافات بيننا . لكن المشكلة بيننا وبين حركة الجيش هى تلك الاعتقالات المستمرة وذلك الجو الإرهابى الذى يزرعه الضباط فى الحياة السياسية واندفاعهم كل يوم للقضاء على مظاهر الديمقراطية .

قال لى :

– هذا هو موضوعنا . والمطلوب وقف المنشورات المعادية والكتابة على الحيطان .

قلت له :

– هذه مطالبنا . لم تجد مكانا لها فى الصحف ، ظهرت على الحيطان .

قال لى :

– الرئيس جمال عبدالناصر يطالب بالاتفاق على القضايا الرئيسية .

قلت له :

– لا اتفاق قبل الإفراج عن جميع المعتقلين ووقف عمليات التكدير والتجويع فى المعتقلات .

قال لى :

– نحن فى مرحلة التحضير للاتفاق . ولك حرية الحركة وزيارة المعتقلين ، والمهم هو وقف الحملات المعادية للثورة فى الداخل وفى الخارج .

قلت له :

– الاعتقالات شملت أعضاء اللجنة المركزية ورؤساء المناطق وحركة المقاومة الحالية لا يمكن لأحد وقفها وأرجو أن تصدقنى إذا قلت إننى أعارض التوسع فى كتابة الشعارات على الحيطان ، لكننى لا أعرف من هم المسئولون عنها فى القاهرة .

قال لى غاضبا :

– ليس فى القاهرة فقط ، ولكن فى طنطا والمنصورة وبنى سويف وغيرها .

قلت له مهدئا :

– هذه الشعارات تدين إعدام خميس والبقرى وهذا موقفنا الثابت .

قال لى فى خبث :

– لقد أيدتم اعدامهما فى السابق. وهذه المعارضة لأسباب انتهازية حاليا.

قلت له :

– أخطأ بعض الرفاق فى وقتها .

لم أشأ أن أتوسع معه فى هذه المسألة الحرجة ، فموقف بعض الرفاق المخزى فيها أصبح معروفا .

قال لى :

– وما رأيكم فى قانون الإصلاح الزراعى ؟!

قلت على الفور :

– نؤيده بشدة ونطالب بتوفير مقومات نجاحه .

قال لى :

– لكنكم تشككون فيه .

وقدم لى نشرة داخلية تنتقد القانون بشدة ، وترى أنه ألقى على المزارعين بأعباء لا طاقة لهم بها . وكنت أعرف تلك النشرة ، وصاحبها ، لكننى تناولتها منه وألقيت عليها نظرة عابرة ، وقلت له :

– هذه نشرة داخلية من أوراق اللجنة المركزية ، وليست منشورا .

قال لى :

– هذه النشرة أغضبت الرئيس جمال عبدالناصر ، وقال ، حتى الجماعات اليسارية تتنكر لمبادئها فى سبيل مواقف تكتيكية .

قلت له :

– هذه دراسة سرية للغاية ، لا تلزم أحدا ، و ...

قاطعنى ، قال :

– ومكاسب العمال .

قلت له :

– تقل كثيرا عما يحقق مصالح الطبقة العاملة ، لكننا لا نرفضها ، بل نتمسك بها بشدة ، ونطالب بحرية النقابات والسماح بإنشاء اتحاد عام للعمال .

قال لى :

– اتفقنا .

قلت له :

– إننى فى حاجة لعدة أيام لمعرفة رأى الرفاق فى المعتقلات .

قال لى :

– إعمل ما تراه ، وأنا من جانبى سوف أعرض مسألة الإفراج عن بعض المعتقلين على الرئيس جمال عبدالناصر .

انتهى اللقاء بيننا على هذا النحو ، وانتقلت إلى السكنى فى المنيرة ، فى شقة صغيرة بصفة موقتة ، وأمنت شبكة اتصالات قوية مع الأخوة الهاربين ، وبدأت فى التردد على المعتقلين .

للاعتقال ملابساته وكذلك للهروب مقتضياته وكلها تنعكس على اتخاذ القرار ، وبدأت تتجمع لدى اقتراحات متفرقة ، وكان أشد الاقتراحات تطرفا هى اقتراحات المثقفين ، أما العمال والمزارعون ، فقد وضعوا بيانا أطلقوا عليه بيان السجن الحربى لتأييد حركة الجيش .

عقد هذا البيان مهمتى قبل أن تبدأ ، حيث انقسم الرفاق إلى شيع وفرق إلى حد تبادل الاتهامات بالخيانة ، وشاع انقسامنا فى الأوساط السياسية .

جريت من معتقل إلى معتقل ، وكانت الصورة أمامى كئيبة ، وأدركت أننا على وشك الوقوع فى كمين أعده لنا جمال عبدالناصر فى براعة ، وإذا كانت جماعة الاخوان المسلمين قد تجاوزت حركة الانقسام التى أعدها لها جمال عبدالناصر فى أواخر العام الماضى ، فها هو يمارس معهم لعبته المفضلة ، فقد طلب من عبدالقادر عودة المحامى زيارة المعتقلين واقناعهم بالتخلص من حسن الهضيبى لتحسين العلاقات مع مجلس قيادة الثورة .

دفعنى اليوزباشى أنور عرفة إلى لقاء اليوزباشى شهدى الششتاوى ، وقال لى :

– هذا الرجل مقرب من الرئيس جمال عبدالناصر .

لكننى ترددت ، وفى أول لقاء لى مع اليوزباشى شهدى الششتاوى ، قلت :

– خالد القويسنى اعترف بالتهمة ، لماذا التعذيب ؟

قال وهو يضخم صوته :

– المضبوطات : مطبعة ومنشورات .

قلت له :

– ألم نطبع منشورات الضباط الأحرار من قبل وكل ما جاء فى المنشورات نتناقش على أساسه ، لماذا التعذيب ، والرجل عجوز ؟! وطالبت بالإفراج عنه .

لم يعدنى بشىء ، وقد تأكدت أن مداركه السياسية بسيطة ، ولا يفرق بين العمل السياسى ومستلزمات الأمن العادية ، وكانت خبرتى معه فى عزبة عويس مريرة ، كما أننى قطعت اتصالاتى معه بعد اقتحامه لعيادة الدكتورة أوديت ، واقتصرت فى اتصالاتى على اليوزباشى أنور عرفة وكان يكثر من التردد على مقهى الضباط فى المنيرة ، وفى كل مرة كنت أثير معه قضية خالد القويسنى ولا يعدنى بشىء .

مسكين خالد القويسنى . سقط فى كمين وهو الرجل الحريص بسبب إهمال مسئول الأمن ، وقد فجرت عملية القبض عليه على هذا النحو موجة من الشك بين الرفاق وحتى طالتنى الاتهامات .

أرى الشك فى العيون القلقة ، والتساؤلات الجارحة على الألسنة واتجاوز عنها بصعوبة .

العمل السرى يوطد المعرفة بين الرفاق إلى درجة الأخوة ، كما أنه يثير العداوات بسبب خلافات الرأى والتخوفات الحقيقية والوهمية .

تغاضيت عن الاتهامات التى يوجهها إلىّ بعض الرفاق ، فعصبية خالد

القويسنى أفدح ، شال القضية على كتفيه ولم يعترف على أحد .

أرسلت إلى الدكتورة أوديت أطلب منها إجراء تحقيق مع الرفيق الذى كلف بنقل المطبعة والمنشورات وكذب علينا ، وادعى نقلها ، لكنها رفضت . أرسلت لى تقول ، أن ذلك سوف يزيد من ضراوة الحملة التى نتعرض لها من جانب التنظيمات المعادية .

حذرتها من مغبة تجاهل قضية خالد القويسنى فهو سوف يقيم الدنيا ولن يقعدها من أجل إظهار براءته ، وهذا ما فعله الرجل ، فقد نجح فى الاتصال بالرفاق فى سجن طره ، وأبلغهم بقضيته ، وطلب الرفاق سرعة التحقيق .

وأرسلت لى الدكتورة أوديت تطلب منى سرعة التصرف ، وتهدئة الرفاق المعتقلين وامتصاص غضبهم .

وهكذا وجدت نفسى أعود إلى نقطة الصفر من جديد ... إلى أعباء ثقيلة على النفس ، خاصة أن الرفيق عبده ، أضحى يحمل الرفاق مسئولية القبض عليه هو الآخر ...

يوزباشى
شهدى الشتاوى

(٢٤)

هبطت على شقة الزمالك التى يلعبون فيها القمار قرب الساعة العاشرة ليلا ، فوجدتهم منهمكين فى اللعب فى صمت .

كنت فى ملابسى المدنية ، لكننى من قبيل الحرص تمنطقت «بطبنجتى» ، وأخفيتها داخل سترتى .

كانوا يلعبون الورق فى انتباه قاتل ، وتركزت عيناى على يوزباشى عباس الوهيدى ، وكان أسعدهم حظا فى اللعب .

الصمت يغرق المكان ، وكأن ألسنتهم قد توقفت ، بينما أيديهم لا تكف عن الحركة ، وقد تركزت حواسهم على أوراق اللعب إلى درجة أن بعضهم لم يحس بى أو بوجودى .

دعانى عباس الوهيدى إلى اللعب ، قال :

- جرب حظك الليلة معنا .

هززت له رأسى ضاحكا . كنت أود كسر الصمت ، فقلت :

- لا أتقن لعب الورق .

قال أحدهم :

- لا أحد فى العالم يتقن اللعب ، إنه الحظ .

كرر عباس الوهيدى دعوته ، قال :

- تعال ، أجلس . الجميع يلعبون الورق الليلة .

تراجعت خطوة إلى الخلف مبتعدا عن مائدة اللعب ، وصببت لى كأسا وجلست بمفردى فى ركن من الغرفة . أرقب وجوه بعضهم ، ملامحهم جامدة ، ولكن عيونهم يقظة ، حدقاتهم تدور فى حركة سريعة ، ثم تثبت على المائدة ، بينما الذين يولوننى ظهورهم ، أكتافهم ، وحركة الذراع الأيمن ، تعبر عن اللهفة والضيق فى نفوسهم .

شاركتهم حمى القمار من جلستى ، حتى أننى فى بعض الأحيان كنت أقوم لأرمى نظرة سريعة على الورق .

عرض علىّ أحدهم أن يقرضنى نقودا لأشاركهم ، فرفضت متعللا بعدم معرفتى بفنون الورق . قال أحدهم :

- لا تخف ، جرب .

قال عباس الوهيدى معلقا :

- فسحت خطوبتك . جرب حظك فى اللعب .

ضحكت .

أحسست بأن حمى اللعب قد خفت حدتها ، وبدأت الكلمات تجرى على ألسنتهم بعد ذلك الصمت الكئيب ، وإن كان قد ضايقنى إشارتهم إلى فسخ خطوبتى .

عاد الصمت مرة أخرى يلفنا ، واشتدت حمى اللعب ، كنت أدرك ذلك من هزات اكتفاهم واستغراقهم .

قطع عباس الوهيدى الصمت فجأة ، قال :

– اسمع يا شهدى . كلنا نقامر الليلة . نحن بنقودنا ، وهم بمستقبل البلد.

قال ملازم أول عبدالرؤوف زناتى :

– نحن هنا فى ساعة متعة ، لا دخل لنا بالسياسة .

أجابه يوزباشى عباس الوهيدى ضاحكا :

– يبدو أن الشرطة العسكرية آخر من تعلم .

كان الحديث موجها لى ، لا أعرف مغزاه ، فقد أتيت لمعرفة أحوال عباس الوهيدى وإيجاد طريقة لإنقاذه من هذه الهوة التى ألقى بنفسه فى قاعها .

كلماتهم غامضة ، وإن كانت تشير فى مجملها إلى الصراع بين جمال عبدالناصر وبين محمد نجيب ، وقررت البقاء لمعرفة ما يضمرون ، غير أن الصمت عاد يلفنا مرة ثانية . حمى القمار أقوى من السياسة بل أقوى من كل شىء خارج أوراق اللعب .

أدركت أن إنقاذ عباس الوهيدى من أزمته وعشقه اللعب أبعد من نجوم السماء ، إنه حالة من الجرى وراء الحظ بصفة دائمة ، حالة من عدم الانتماء .

أقلقنى قول عباس الوهيدى وهو يضحك : يبدو أن الشرطة العسكرية آخر

من تعلم . هل حدث شىء ؟ أم أنها السخرية المرة من كل شىء .

قررت القيام والتوجه إلى مقر عملى ، تمنيت لهم حظا سعيدا فى سهرتهم وودعتهم ، متسللا كما جئت ، فلا وقت لديهم للقيام ، أو مد الأيدى أو للتحية ، فقطار الحظ دائما فى عجلة .

كان مجلس قيادة الثورة قد بدأ اجتماعه قرب الظهر ، وتوقعت عند وصولى إلى الشرطة العسكرية ، أن نكون قد أبلغنا بالتكليفات أو القرارات التى تتعلق بعملنا .

لكننى وجدت اليوزباشى أنور عرفة فى مكتبه ، والشرطة العسكرية فى حالة استنفار كامل .

سألنى اليوزباشى أنور عرفة :

– أين كنت ؟ بحثت عنك فى كل مكان .

أجبته ، قائلا :

– كنت فى جلسة قمار مع مجموعة من كبار الضباط فى الزمالك .

قال مستنكرا :

– هل هذا وقته ؟

تغاضيت عن نقده لى ، ولم أشأ أن أخبره أن الرئيس جمال عبدالناصر قد أبدى اهتماما أمس باليوزباشى عباس الوهيدى .قال أنور عرفة :

– اللواء محمد نجيب استقال من كافة مناصبه ، ومجلس قيادة الثورة فى اجتماع دائم .

دارت بى الدنيا . هذه معركة لسنا على استعداد لها . اللواء محمد نجيب

هو رمز الثورة وحب الناس له لا حدود له . معركتنا هذه المرة مع الناس ، ومهمتنا أن نزيل حب الناس له من القلوب للحفاظ على الثورة .

قال أنور عرفة :

– لعب اللواء محمد نجيب أوراقه فى براعة . مهمتنا صعبة ، صعبة للغاية . فقد سرب اللواء محمد نجيب صورة من الاستقالة إلى الشارع المصرى ليدخل القوى السياسية المعارضة لحركة الجيش فى الصراع القائم بينه وبين مجلس قيادة الثورة .

مد لى اليوزباشى أنور عرفة يده بصورة من الاستقالة .

كنت فى طريقى من الزمالك إلى الشرطة العسكرية بباب الحديد قد وضعت تصورا لتقرير حول زيارتى لمجموعة الضباط ، فنحيت كل ذلك جانبا ، وأيقنت أن صورة من هذه الاستقالة كانت فى متناول أيديهم وهم يلعبون القمار .

خدعونى .

أحسست بضيق شديد من نفسى ، ارتميت على مقعدى أجمع شتات أفكارى .

قال اليوزباشى أنور عرفة :

– مهمتنا فى الساعات القادمة اكتساب كافة القوى السياسية إلى جانب مجلس قيادة الثورة . وهذه مهمة صعبة .

كنت مشغولا بالانتقام من اليوزباشى عباس الوهيدى على وجه الخصوص بسبب خديعته لى ، وتذكرت قول نسيبى السابق عبدالقوى عزيز غاضبا ذات مرة ، فى اللحظات التاريخية لا يمكن خلق قيادة من فراغ ، والوفد هو القيادة الطبيعية

لهذه الأمة ، الناس لهم مشارب وأهواء مختلفة ، ولا يمكن إجبارهم على حب زعيم دون آخر .

أحسست بعجزى ، وكدت أصرح بما يدور فى ذهنى أمام اليوزباشى أنور عرفة لكننى أحجمت خوفا من إثارة الشكوك حولى فى هذه الساعات .

قال اليوزباشى أنورعرفة :

– ليس من المنتظر قبول هذه الاستقالة قبل ٢٤ ساعة .

وكانت هذه المسألة قد غابت عنى ، وفى كل لحظة يتأكد لى عجزى عن الإحاطة بجوانب الموقف ، ربما من التعب ، وربما بسبب كراهيتى للمناورات السياسية .

غادرنى اليوزباشى أنور عرفة متوجها لمجلس قيادة الثورة ، وتركنى فريسة لمخاوفى ...

عباس أبو حميدة

(٢٥)

فور سماعى بالنبأ ، نزلت إلى مقهى الضباط بالمنيرة ، ذلك المقهى الذى يضم المفصولين والمطرودين من الجيش ، والذى يؤمه الموتورون وخربو الذمم أيضا من الضباط .

لا حديث لهم سوى استقالة محمد نجيب .

اثنان من كبار الضباط المفصولين الذين تربطهم علاقات بجماعة الإخوان المسلمين فى أيديهم صورة من الاستقالة .

سحابات الدخان فى هذا المكان قاتلة لمزارع مثلى ، فهذه المقهى واسعة من الداخل ، لكن ليس لها منافذ تهوية كافية ، ويربطها بالطريق مدخل ضيق .

أطيب موضع فى هذه المقهى ، هو القريب من «النصبة» حيث توجد عدة نوافذ متقابلة ، ولهذا يتحلق الزبائن فى الداخل ويتزاحمون حول موائد الدرجة الأولى كما يطلقون عليها . ففى ليل الشتاء البارد يعم الدفء المنبعث من المواقد إلى جانب تيار من الهواء المنعش .

أول من يتزاحم على هذه الموائد فى بلادة ، الضباط المفصولون لأسباب مالية ، أما المنطقة عديمة التهوية والتى يطلق عليها «عنق الزجاجة» فلا تضم إلا الضباط من أصحاب الرأى .

شاع اسم «عنق الزجاجة» على المقهى وصاحبها وهو واحد من كبار الضباط الذين فصلوا بعد حركة الجيش بسبب قوة شخصيته وتمسكه بالتقاليد العسكرية رجل قليل الكلام ، ويشاع عنه أنه ذهب إلى جمال عبدالناصر شاكيا من رئيس الأركان ، قال له :

– هذا الرجل ينفر الضباط منه .

فأجابه عبد الناصر ، قائلا :

– ليست لنا مصلحة فى أن يتعلق الضباط به .

ولما شاعت هذه القصة ، تربصت به جماعة عبدالحكيم عامر حتى ترك الجيش بعد أن رفض الالتحاق بوظيفة مدنية ، فأثار حفيظة جمال عبدالناصر .

من يتردد على هذه المقهى من الهالكين . تأخذه دوامة الاحباط ، ويغرق فى الثرثرة أو الدمينو . من يدخلها ضائع فى متاهات اليأس أو السخط وتسرق عمره الساعات المفقودة .

منذ أول مرة قدمت فيها إلى هذا المقهى ، أدركت أن ما يدور فيها ليس بعيدا عن عيون وآذان جمال عبدالناصر ، وعلمت أنه قد وافق على افتتاحها لتكون تجمعا للساخطين من الضباط بعيدا عن رجال الأحزاب ونواديهم ، وبعيدا أيضا عن نادى الضباط . انتقاداتهم له لا تقلقه ، فمصيرها سحب الدخان .

بدأت دوائر الضباط تذوب وتتشكل من جديد . من يجلس قرب النصبة غير موقعه ، واقترب من عنق الزجاجة ، وتوجه من يجلس قرب الباب إلى الداخل عملية فرز بين الضباط أساسها : الرتب . أسلحة الجيش . العقائد .

جلست أتصور خريطة العمل السياسى ، هذه الساعات ، بعد أن وضع محمد نجيب الجميع فى وضع حرج للغاية ، وعلى جميع القوى أن تختار بين جمال ونجيب فى الساعات المقبلة ، فور الإعلان عن الاستقالة .

القوى السياسية التقليدية سوف تساند محمد نجيب بكل قوة ، هذه حقيقة واضحة ، فالوفد لا يسره توزيع أراضى الباشوات والأعيان على المزارعين ، كما أنه يخشى من تهور الضباط بعد قوانين حل الأحزاب والقبض على زعمائه والتهديد بمحاكمتهم ، والقوى السياسية المتمثلة فى أحزاب الأقليات تراهن على الأنجليز وقوى الاحتلال فى التخلص من حركة الجيش ، والأخوان المسلمون غاضبون من جمال عبدالناصر وكمال الدين حسين ويعتقدون أن جمال عبدالناصر قد خدعهم وسرق الثورة منهم ، ووضعهم فى المعتقلات بعد أن وجه إليهم تهمة الخيانة لينفرد بالسلطة دونهم .

الحيرة على الوجوه .

جلست فى انتظار رفيق لى ، نحن أيضا موقفنا يتسم بالاضطراب وعدم الوضوح ، فنحن نؤيد حركة الجيش كحركة ثورية وندين اجراءات القمع ، أما الجماعات اليسارية المعارضة لنا ، فترى حركة الجيش حركة قمع عسكرية مرتبطة بالاستعمار .

جاء رفيقى ، قال .

– سوف نصدر بيانا نحلل فيه الأوضاع .

هؤلاء المثقفون لهم ولع بإصدار البيانات السياسية الغامضة . سألته وعلى وجهى ابتسامة ، قلت :

– وماذا بعد ؟

سألنى فى دهشة ، قال :

– ماذا تقصد يا رفيق ؟

أجبته ، قلت :

– اللواء محمد نجيب له شعبية كبيرة فى الشارع السياسى . رجل محبوب من الناس ، وسوف تخرج مظاهرات ضخمة . فما موقفنا ؟

قال :

– لن نتخلف عن المظاهرات . سوف نطالب بالديمقراطية . نحن مع الشعب .

سألته . قلت :

– متى يعلن مجلس قيادة الثورة قبول الاستقالة ؟

أجابنى ، قال :

– بين ساعة وأخرى وربما غدا .

قلت :

– لن يفوت جمال عبدالناصر التخلص من خالد محيى الدين كما تخلص من يوسف صديق .

قال :

– هذا وارد .

قلت :

– المعتقلون يؤيدون حركة الجيش ، خالد القويسنى الذى عذب حتى الموت

يؤيد قانون الاصلاح الزراعى ، ويخشى من عودة حكم الباشوات مرة أخرى .

قال :

– مجلس قيادة الثورة فى اجتماعات مستمرة . جمال عبدالناصر أضحى ظهره إلى الحائط ، وهو بين نارين : قبول استقالة محمد نجيب والدخول فى معركة مع الشارع أو تسليمه السلطة كاملة .

أخشى أن تفلت الأمور إلى حد وقوع صراعات مسلحة بين أسلحة الجيش مجموعات الضباط لا حديث لها إلا حول ثورة الفرسان . قلت :

– الحذر واجب . ويجب أخذ رأى المعتقلين فى الاعتبار .

قال :

– طيب .

تركنى وقام . تركنى لمخاوفى . المعتقلون منا لا يشككون فى أهداف حركة الجيش ، ويرون أنها حركة شعبية ثورية ، والجيش فى بلدان العالم المتخلف هو طليعة الشعب ، أما أولئك المنظرون فيحلقون ويصلون إلى أبعاد لا تخطر ببال المزارعين والعمال منا ، وأنا مزارع أدرك معنى توزيع الأرض على الفلاحين ، والغاء الألقاب ، ومصادرة مجوهرات وأموال أسرة محمد على باشا .

هواء عزبة عويس تغير بعد حركة الجيش . كلمات الناس تبدلت . نظرات عيونهم عرفت التطلع . هاماتهم أصبحت مرفوعة وقد سقطت اليد التى كانت تجلدهم بالسوط وتسوقهم إلى العمل كالعبيد .

زوجة الشهيد عكاشة أصبحت تجرى على خمسة فدادين من أملاك اللواء عويس . عويضة أبوحسنين الذى كان يدور فى العزبة كالأحمق فى السابق وهو يهتف : عاش الملك . أصبح لا يفارق الأرض التى حصل عليها .

هذه علاقات اجتماعية جديدة.بفضل حركة الجيش ، ومحمد نجيب هو رمز هذه التغيرات ، والبسطاء من الناس لا يعرفون أن وراء حركة الجيش جمال عبدالناصر .

إذا تولى اللواء محمد نجيب السلطة سوف يسلم قيادة البلد إلى الأحزاب ويوقف المد الثورى لحركة الجيش وربما يعيد الأرض التى وزعت على المزارعين إلى أصحابها ، ويعيد النظر فى قانون العمل .

هذه يدى لا تعرف إلا طين الأرض فى دورتها ، وهى عطشى وهى مروية ، وهى جرداء وهى مخضرة . دورة تأخذنى معها وأقيس بها الزمان .

انشقاق الحركات اليسارية وخلافاتهم حول المسائل النظرية آفة قديمة ، وأرى بوادر الانشقاق بين صفوفنا ، ولا أود أن أزيد شقة الخلاف بين المعتقلين وبين المطلق سراحهم .

خالد القويسنى فى سجن طره ، وعبده فى السجن الحربى ، سوف يتزعمان حملة لتأييد حركة الجيش وجمال عبدالناصر ضد محمد نجيب .

كنت حذرا فى حديثى مع الرفيق الذى قدم إلىّ ، لفت نظره إلى ضرورة أخذ رأى المعتقلين ، وقد فهم الرجل رسالتى ، وإن كنت قد لمست فى عينيه عدم الاقتناع بكلامى .

مسألة القبض على خالد القويسنى لا تزال تلقى بظلالها علينا جميعا . جميعنا يتحرك فى حذر ، ياليت الدكتورة أوديت كانت قد بتت فيها قبل هذه الأحداث ، لكننا الآن أكثر قدرة على الحركة دون حساسيات من بعضنا البعض .

أرى الوجوه حولى فى المرايا وقد انحرفت أشكالها فبدت أكثر صرامة وجهامة ومثيرة للسخرية أيضا . كلماتهم متوترة وفيها ترقب أما من لهم ارتباطات

بجماعة الاخوان المسلمين فالفرحة على وجوههم ، وموقفهم أكثر تحديدا من الآخرين ، ويعلنونها بصراحة : تأييد اللواء محمد نجيب دون قيد أو شرط .

قيادات « الاخوان المسلمين » وراء القضبان ، وهذه محاولة للضغط على جمال عبدالناصر للإفراج عنهم ، ولهذا فالتحالف بينهم وبين محمد نجيب لن يدوم طويلا ، وسوف يسعى جمال عبدالناصر لاكتسابهم إلى جانبه فى معركته مع نجيب .

غادرت المقهى وفى حلقى غصة ، فالأرض غير ثابتة تحت أقدامنا وقد سرقتنا السكين وأغلب قياداتنا وراء القضبان . وتوجهت إلى مقابلة بعض القيادات العمالية التى أثق فى تقييمها للأمور .

الأميرة جويدان

(٢٦)

تركت سيارتى أمام الجامعة الأمريكية ، وأخذت عربة تاكسى إلى قصر الأميرة علية سيف النصر فى الزمالك . موعدها معى حل لأخذ جوازات سفر العائلة .

أول مرة أزورها فى قصرها . كنت أرفض دعواتها بسبب علاقتها بأبى التي شاعت . وأرى أنها تسخر منى بدعوتها لى . وأعتقد أنها تعمد إلى إهانتى .

لكن ها هى الأيام تغيرت . أصبحت الأميرة علية سيف النصر صديقتى بل صديقتى الوحيدة فى هذه الدنيا .

بل ليت أبى تعود إليه صحته ويعود إلى رفقتها أو الزواج منها بعد أن سممت والدتى حياته بسبب جنونها المتقطع . لكن هيهات أن تعود إليه صحته ، وقد أقعده الشلل الذى لابراء منه .

تغيرت الأيام . أصبحت أزور قريبتى متسللة مثل اللصوص ، بسبب الرقابة المفروضة علينا . ولماذا ؟ بسبب حماقات والدتى التى تسعى لإعادة الملك فاروق بأعمالها الصبيانية الطائشة . لا تعرف أن هذه مسائل تطير فيها رقاب .

الأميرة علية سيف النصر ، ربطت نفسها برجال الانقلاب من أول لحظة ، وأنقذت نفسها من الحيرة ، بين القديم الذى لم تلمسه جيدا بسبب غربتها فى باريس لسنوات طويلة ، وبين الجديد . قالت لى :

– لى علاقات طيبة مع عضو بمجلس قيادة الثورة ، تليفون منى وتنتهى . هذه مسألة بسيطة . مسألة انسانية .

حدثتنى عنه قالت :

– رجل مهذب . مرهف الإحساس . يتمنى إشارة منى .

ماذا قدمت له ؟ الثمن باهظ ومثير . لكن حماسها إلى سفر والدى يدل على أنها قد نفضت يدها منه ، وأنها قد ربطت نفسها بهذا الجنرال الذى دخل حياتها أخيرا . تصفه بأنه رقيق ، وأعضاء مجلس القيادة الذين رأيت صورهم أو استمعت إلى إحاديثهم يتميزون بالغلظة والخشونة ، وأقربهم إلى قلبى اللواء محمد نجيب ، لكنه لن يغامر بسمعته ويقع فى غرام أميرة سابقة فى عمر ابنته .

القصر هادىء . بى رغبة فى التجول فى ردهاته . أسير على سجادة . كيف كان والدى يتجول هنا لما كان فى عز عافيته وعظمته ؟ ليلة الانقلاب كان هنا، وخرج معها إلى مبنى القيادة ، وقبض عليهما ، وكانت فضيحة مدوية ، قبض عليهما وهما مخموران .

استمع إليها ورأسى يموج بالأفكار المتضاربة ، ترتدى روبا وكأنها خارجة من الحمام لتوها وتستعد لاستكمال زينتها . تشبه الزهرة البرية فى صراحة تقاطيعها . أنوثة صاخبة .

الروب عليها يكشف أكثر مما يخفى من فتنتها . إذا غرق أبى فى فتنتها معه حق . أمى ذاتها إذا رأتها فى هذا الروب لهامت بها عشقا وجنونا . ملكة

جمال . مجالها التمثيل وليس الترجمة . لكنها اختارت التمثيل فى الحياة وشغل وقتها بالرجال . هذا هو المقعد الذى جلس عليه والدى . حافته مذهبة . وربما يجلس عليه عضو مجلس قيادة الثورة هذه الأيام . الرجال لا يتركون أثرا بعد قيامهم ، ربما هى قلة خبرتى بالرجال .

سبعة جوازات سفر ، ثلاثة للعائلة وأربعة للحاشية . أنجزت فى أيام ما عجز عنه عمى حمدى بك فى أسابيع . جوازات سفر خضراء . غاب عنها اللون الأحمر . نحن الآن ننتسب إلى الشعب الذى يتحدثون عنه كثيرا فى خطبهم . فرحة السفر لا يقلل منها اللون الأخضر .

حدثتنى . قالت : طلبت من صديقى الكولونيل سفر اللواء عويس وزوجته وابنته . صمت برهة وقال : سفر اللواء عويس ليس ممنوعا . كانت سمعته طيبة فى الجيش قبل الثورة . أما سفر الأميرة شويكار ففى حاجة إلى اذن من وزارة الداخلية . بعد يوم واحد أرسل لى باقة ورد ومعها كلمة رقيقة يعتذر فيها عن القدوم بسبب مشاغل طارئة . وفى اليوم الثالث قدم فى العشية ليقضى السهرة معى وكانت جوازات السفر فى حقيبته .

غمزت بعينها لى . قالت : هذا الكولونيل ملك مشاعرى . أحبه .

مبالغة من الأميرة علية سيف النصر ، لتقنعنى بأنها قطعت حبال الود مع أبى . لا عليها . محاولة مكشوفة .

حدثتنى . قالت : فور عودتى من باريس عودة نهائية . استقبلنى جلالته . تحدث إلى فترة من الوقت ، وقال لى : أنت ياسمو الأميرة امرأة جميلة جدا . وقوية الشكيمة . وأنا أمرت بعودة كل الممتلكات الخاصة بك . العرش فى حاجة إلى الاقوياء من الرجال والنساء . أما أولئك الضعفاء الذين لا يزالون يتحدثون

التركية وينعزلون عن شعبى لا فائدة منهم . قلت . أنا فداء للعرش . قال جلالته أعرف .

توقفت الأميرة علية سيف النصر . انشغلت بتسوية الروب ، ومدت قدمها فانحرف الروب عن فخذها . قالت : اطراء جلالته أسعدنى . جعلنى أحس فى حضرته بأنى فارس من العصور الوسطى . هذه أول مرة يمتدحنى فيها رجل بقوله أننى قوية الشكيمة . إذا قال لى فاروق ساعتها أننى جذابة أو مثيرة ما كان لتهتز لى شعرة .لكن امرأة قوية ، هذا اطراء خاص بى . مديح لاتفوز به امرأة أخرى من جلالته ويبدو أن جلالته أحس بفرحتى ، وقد بانت على وجهى ، فابتسم وكأنه يقول لى إنه خبير بنفوس النساء ، وإنه قد لمس فرحتى . كشفنى .

قالت : أعاد لى فاروق الأطيان كافة التى استولى عليها الملك فؤاد . وقد ساعدنى اللواء عويس فى استرجاعها من براثن الخاصة الملكية ورجال السراى . لكننى عندما عايشت القصر وتعرفت على أحوال البلاد أدركت أن الثورة قادمة قادمة . وفى آخر يوم . بذلت آخر محاولة لإنقاذ العرش والقضاء على الفتنة فى مهدها . كان اللواء عويس يجلس هنا إلى جوارى على هذه الأريكة لما شاعت أخبار تحركات الضباط حول القيادة العامة . دعا اللواء عويس القيادات إلى اجتماع عاجل، وقدت سيارته بنفسى ، بينما شغل نفسه فى اعداد الخطط، وأخذ يرسم مداخل المنطقة ومواقع المعسكرات . سرت بأقصى سرعة. وعلى مقربة من مبنى القيادة العامة وبينما هو يترجل من سيارته أحاط بنا جنود مسلحون ، تعلقت به ومثلت دور العشيقة، ففى هذه الساعات تطير رقاب.تعرف علينا الضباط. قال أحدهم . اللواء عويس فى صحبة الأميرة علية . وصدرت الأوامر باعتقالنا . وبين الأخذ والرد تمكنت من تمزيق الورقة التى أعدها اللواء عويس فى العربة . وقال لى عنها . فى هذه الورقة انقاذ العرش. ورأيت أن فى هذه الورقة اعدامنا. مزقتها .

أول مرة استمع إلى هذه القصة من فم الأميرة علية سيف النصر ، وبعد أن شاعت فى أوساطنا وكذلك فى عزبة عويس . تجاوزت والدتى عن سقطة والدى واقتنعت بأنه قدم لقصر الأميرة علية سيف النصر لإعداد خطة لمقاومة الانقلاب لكن النصر لم يحالفه .

كنت أود أن أسألها سؤالا بريئا . ماذا كان يفعل أبى هنا قرب منتصف الليل عندما شاعت أخبار الانقلاب ؟ السؤال على لسانى . لكننى صمت – وضعت لسانى تحت شفتى وضغطت عليه . لا لشىء إلا لأثبت لقريبتى أننى كبرت . نضجت . أصبحت أعرف أمور الحياة .

قامت لتحضر شيئا من العصائر . الروب يحيط جسدها الملفوف ويبرز ثنياته واستدارته . فخذها الأيسر يبدو جليا خارج الروب ، ولما عادت تركت الروب منحسرا عن فخذها ، قالت : اللواء عويس كان متيما بى فى البداية . لكن لقاءاتنا كانت تنتهى دائما بالشجار . بسبب خشونته وغلظته . ولما وقعت فى غرامه مارجريت سنكلير البريطانية التى هامت به إلى حد الجنون ، تحول عنى وصرنا أصدقاء ، أنا لم أحقد عليه أو أغار وهو من جانبه لم يكرهنى ، بل كان يزورنى طلبا للراحة ، وليس للمتعة . فقد وجد فى صحبته لمارجريت متعته .

نظرت فى عينى والتفتت إلى بكل جسمها . قالت : هذه علاقات انسانية . نحن بشر ، أرجو عدم اساءة الظن باللواء عويس .

أردت أن أثبت لها نضجى . معرفتى . قلت : والدى كان فى حاجة إلى قلب حنون . سممت والدتى حياته. عذبته .

ضحكت عاليا . هه، لازلت ساذجة «عيلّة». قالت : هذه كلمات فتاة صغيرة. تنظر الى الحياة بنظرة أحادية . ماجرى بين اللواء عويس وبينى أو بين اللواء عويس ومارجريت سنكلير البريطانية ليس له علاقة بالأميرة شويكار من قريب

أو بعيد. حتى اذا كان سعيدا معها لسارت الأمور فى طريقها المرسوم. هذه أمور تتعلق بروحينا وبجسدينا وبالأفلاك والنجوم . تعلمت فى مصر فى أقل من عام ، مالم استوعبه فى باريس فى خمسة عشر عاما . الفرق بين المرأة وبين الرجل . أن المرأة الناضجة قلبها يتسع لأكثر من رجل فى وقت واحد فى حين رحمها لايتسع إلا لذكر واحد ، أما الرجل فقلبه لايتسع إلا لامرأة واحدة ، وربما تكون أمه، أو جارة له فى صباه ، أما جسده ففيه متسع لنساء الأرض ، وهذه نعمة الله على البشر .

فلسفتها فى الحياة غريبة . ابتسمت نصف ابتسامة. حتى لاتتهمنى بالسذاجة . اذا عارضتها أدنت أبى، وإذا ايدتها فى قولها ظهرت بأننى أوافقها على مالا أود. ركنت إلى الصمت . بينما بدت لى وكأنها شلال هادر بالحياة، والصدق أيضا ، قالت : أود كتابة رواية . عنوانها «الرجل يحب مرة واحدة». ربما أنا المرأة التى يحبها الكولونيل ولم يتزوجها بعد . معى يجد راحته بعيدا عن عناء مجلس قيادة الثورة . لكن علاقتنا لاتسير فى يسر دوما ، فكثيرا ما تنشب بيننا مناقشات عنيفة ، وأذكره بأن مجوهراتى وأموالى السائلة وسنداتى ورثتها والدتى عن عائلتها فى تركيا ، ولا توجد حكمة قانونية فى مصادرتها إلى جانب مصادرة الأراضى الزراعية . الصحيح هو مصادرة الأموال التى اكتسبها أصحابها بطرق ملتوية داخل مصر .

يقول لى : هذه تغيرات اجتماعية . الأطيان والأموال قوة . والثورة تسعى لإعادة القوة للناس بعيدا عن العائلة المالكة والأحزاب .

لأنه يحبنى ساعدنى فى تهريب الجزء الاكبر من مجوهراتى وأموالى إلى الخارج .

أنا نجحت أيضا فى تهريب مجوهراتى بعيدا عن عيون لجان الجرد ، لكن

ليس بواسطة كولونيل، بل بواسطة شاب صغير وقع فى غرامى . وجدت نفسى أقبله وأرتمى عليه وأجلس على ركبتيه كلما سمح لى بتهريب قطعة . قلت : هربت معظم مجوهراتى بواسطة شاب فى لجنة الجرد ، يحبنى لكننى أتهرب منه . سألتنى : يحبك وتهربين منه ؟ قلت نعم . قالت : الأنثى لاتهرب من ذكر يحبها إلا فى حالتين . تخافه أو تقرف منه . قلت : شاب لطيف لكنه ليس من طبقتنا . والده سقا العزبة ، ومات فى السجن بتهمة لا أعرفها ، وفاتنى أن أعزيه فى وفاة والده عند الجرد . ضحكت ، قالت : فهمت . قصة رومانسية . جناينى يقع فى حب أميرة .

طلبت منى البقاء للغداء بسبب قدوم الكولونيل فهذه فرصة للتعرف على واحد من الحكام . رفضت دعوتها بشدة . ففى بقائى مضايقة لعاشقين .

ألحت على متعللة بأسباب أنثوية . قالت : لست فى أيامى الحميدة هذه اللحظة. هذه أول مرة يزورنى وتفصل بيننا الطبيعة الحمقاء . الرجال مهما علت مراتبهم أصحاب نزوات . ووجودى سوف يضفى على جلستهم رومانسية محببة .

فجأة رن الهاتف قال لها الكولونيل إنه يعتذر عن عدم الحضور بسبب استقالة اللواء محمد نجيب . ونصحها بعدم مغادرة القصر . قلت : الثورات تاكل أبناءها . قالت : إننى أخشى على حبيبى أكثر من خشيتى على اللواء محمد نجيب حبيبى تطارده الاشاعات .

تخاف عليه . كان خوفها واضحا ، تخلصت من حبها لوالدى ، رمته وراء ظهرها . الخوف فى عينيها. لا تمثيل ولا ادعاء. ضمت ساقيها وفردت الروب عليها . غطت فخذها العارى ، انكمشت. قلت. صفحة جديدة مثل الولادة الصعبة ، راق قولى لها . أخذت تردده. مثل الولادة الصعبة ، أكملت ضاحكة . قالت ، لو تولت النساء الحكم لانصلح حال العالم .

انشغلت عنى بأشياء صغيرة. توجهت إلى الطباخ وزودته بأوامرها الجديدة عادت إلى. كررت دعوتها لى بالبقاء . قامت توجهت الى الناحية الثانية من القصر. اختليت بنفسى دقائق. سألت نفسى : هل أنا المرأة التى يحملها «كرامة» فى قلبه طوال العمر ؟! اذا تحقق ذلك إذن لتغير مسار حياتى وحياته أيضا .

ندمت لأننى هربت واختفيت عندما رأيته يبحث عنى فى أروقة الجامعة الأمريكية ، خفت من مقابلته، لاقرفا منه . حديثه لى لايضايقنى . هو شاب ظريف. لماذا أهرب منه ؟ قلقت . أود القيام والقعود . هل هذا هو الحبّ ؟ الأميرة علية سيف النصر لا تستقر فى موضع . هى أيضا أصابها الارتباك بسبب تغيب الكولونيل .

كلانا وقعنا فى الحب . هى فى حب كولونيل . متزوج. وله أولاد فى قمة السلطة ، وأنا فى حب فتى فقير . تلميذ .

أصابتنا لعنة التشرد نحن الأميرات فى أقل من عامين ، وبمعدل أسرع مما وقع لأميرات أسرة السلطان عبد الحميد .

لم تكن بى رغبة فى اجترار الكلام المعاد ، وضعت جوازات السفر فى حقيبتى وأنا أحس بالقرف من نفسى ومن علية ، ويغمرنى أحساس بأنها امرأة فاجرة لا تعرف الحب ، وحديثها كله أكلاشيهات فارغة مثل احاسيسها المزيفة. وعندما جاء ت لتودعنى أحسست بأن هذه المرأة المستهترة تصلح لدور قوادة أو جاسوسة فى فيلم أمريكى، وربما فى الحياة أيضا ، وأسرعت بالهرب منها .

كـــرامة

(٢٧)

اتخذت لى ركنا بعيدا عن ضجة الطلبة وحفلات سمرهم التى لاتنتهى فى المدينة الجامعية ، وقد شدتنى رواية «عودة الروح» بطرافتها من صفحاتها الأولى .

كلما تقدمت فى القراءة يلاحقنى هاجس ، ويفسد على متعتى ، وزعت حركة الجيش أراضى اللواء عويس على أم حبيبة و«عويضة أبو حسنين» ، فبارت. فى الحول القادم لن تجد العزبة نقطة لبن أو قطعة جبنة أو قمع زبدة.

يافرحة ما تمت يا أم حبيبة. ويا فرحتك يا حمادة أبو جبل . عمدة فى عزبة عطشانة . والله لو كان عباس أبو حميدة حرا طليقا لوجد حلا لمشكلة وابور المياه و ...

ها هى مشاغل عزبة عويس تلاحقنى وتفسد على وحدتى .

سنية ابنة الجيران فى رواية «عودة الروح» هى زهية مع الفارق الزمنى، فعودة الروح شاغلها ثورة ١٩١٩، أما زهية فهى ابنة حركة الجيش سنة ١٩٥٢ .

ضربات سوط اللواء عويس ملتصقة بذراعى وظهرى، كدمات زرقاء حقيقة لا تؤلمنى بعد عامين، لكنها غائرة فى لحمى . مغروسة كالدبابيس . لها وهج حار يلفحنى فيعذبنى . ولا يخفف علىّ لهيبها سوى قبلات الأميرة جويدان . قبلاتها لاتفارقنى .

اذا تحدثت الى فتاة فى الجامعة تأملت شفتيها وبروز صدرها ، وطريقة سيرها، فأرى فارقا بين الأميرة جويدان وبين البنات كافة . أما زهية فهى من طينة أخرى ، جسدها صيغ من طين عزبة عويس ، قوام البنات فى الجامعة يشبه قوام زهية . صدورهن تشبه صدر زهية . مشيتهن تشبه مشية زهية ، حتى فى جلستهن يجلسن وقد فتحن أوراكهن، أما الأميرة جويدان فى جلوسها تضم ساقيها. واذا سارت ، سارت على خط مستقيم . تنتقل من خطوة إلى أخرى فى خفة ولا تخب . هؤلاء بنات مصر . من طين مصر . أما الأميرة جويدان فجنية من أرض أخرى وسماء أخرى. نداهة نادت علىّ تبعتها. ثم عادت إلى طبيعتها وتركتنى فى العراء .

ماذا أفعل بأيامى وساعات ليلى الطويلة ؟ اذا جلست جاء ت جلستى مقلقلة مثل حجر الطوب السائب، وإذا دبيت على الأرض كان دبيبى خاويا .

الساعة عقاربها بطيئة. بطيئة، وليل الشتاء يحل مبكرا وزمنى راكد مثل مياه الرياح فى عزبة عويس ، لا تجف تماما ولا تتدفق ، زمن لا طعم له .

حومت حول قصر أحمد السيد باشا فى الشهر الماضى، فلم أسمع غناء زهية ولم أسمع صراخ رضيع ، ربما تركت هى الأخرى الجنين وهربت . النساء كلهن شياطين صغيرة .

هل تذكرنى زهية فى ساعات يومها أو ليلها ، أو حتى فى الدقائق التى ترضع فيها الوليد ؟!.

لا، أعرف . لا أعرف. اذا كانت تذكرنى لسعت إلى الاتصال بى ولن تعدم وسيلة، لكنها اختفت وانقطعت اخبارها ، قيل إن الدكتورة أوديت ابنة احمد السيد باشا وقعت الكشف عليها فى دار «عباس أبو حميدة» قبل حركة الجيش بعدة أشهر ثم صحبتها معها .

يوزباشى شهدى الششتاوى يقول لى زهية فى قصر الدكتور أحمد السيد باشا، واذا كنت أحبها أذهب إليها .

زهية اختطفت وعلى انقاذها من الأسر. أطالب بعودتها الى عزبة عويس ، لكننى لى أعلن أبوتى للرضيع فهذه مسئولية . اقطاعيان يختطفان فلاحة ويجبرانها على الخدمة فى قصرهما. عنوان لابأس به . لكننى إذا أقدمت على هذه الفعلة لأسأت إلى «عباس أبو حميدة» ، فالدكتورة أوديت كانت هاربة عنده من البوليس، وضيفة «عباس أبو حميدة» هى ضيفة عزبة عويس وضيفتى أنا أيضا .

الدكتور أحمد السيد باشا يحاضر طلبة الدراسات العليا فى كلية الحقوق . اتودد له . أقف فى طريقه حتى يدعونى إلى قصره .

حركة غير عادية وأصوات هامسة تعلو رويدا رويدا مشيرة إلى اسم اللواء محمد نجيب ، لا أعرف مصدر هذه الهمهمات وهل هى قادمة من شرفات الطوابق العليا أم من الفناء ؟!.

أغلقت الرواية ، ثم عدت ففتحتها، لكننى سرحت عنها متسائلا : أين اليوزباشى شهدى الششتاوى فى هذه اللحظات ؟!.

لابد أن الأرض سوف تنشق عن هذا الرجل فى هذه الساعة ليرقب هذه الأصوات فى لؤم .

دبيب الأرجل يتزايد فى كل الأدوار ، وحركة هابطة وصاعدة على الدرج وكأن حريقا قد شب. بدأت فى تمييز الأصوات وفرز بعضها وأنا قابع فى جلستى كالميت لا أتزحزح. استقالة محمد نجيب .

إذن هو خلاف بين القائمين على حركة الجيش . انقلاب مثل انقلابات سوريا العسكرية . من هو البطل الجديد ؟ إنه البكباشى جمال عبد الناصر ، فقد سمعت اليوزباشى شهدى الششتاوى يردد هذا الاسم أمامى فى عزبة عويس فى كل مناسبة أثناء جرد ممتلكات اللواء عويس فى العام الماضى .

اقتحم طالب وحدتى يسألنى

- اين الوفديون ؟

نظرت بعينين سارحتين وأجبته :

– لا أدرى .

قال لى وكأنه قد كشف هويتى :

– أنت شيوعى .

ثم أضاف فى ثقة، قائلا :

– تقرأ «رأس المال» !!

رفعت الكتاب وأطلعته على غلافه، قلت :

– رواية «عودة الروح» .

صاح فى لهجة خطابية :

– هاهى روح الشعب تعود إليه ، يسقط العسكر .قم ، تعال معى.

لكننى ظللت فى جلستى ، وقد ازداد تشبثى بالمقعد ، وقبضت على الكتاب الذى لم يعد ذهنى قادرا على متابعة صفحاته . فتركنى . وأدركت لحظتها أن عملية فرز تدور بين الطلبة وفقا لانتماءاتهم السياسية فى المبنى وسرعان ما أجد نفسى معزولا، لكننى تابعت جلستى .

فى الشهر الماضى تظاهر الإخوان المسلمون ضد قوات الجيش أمام الجامعة وحرقوا سيارات الجيش وقبض عليهم بعدها، وهذه المرة من يؤيد من ؟.

لا أعرف !! لكننى أعرف شيئا واحدا ، اذا كانت زهية حية ، سوف تحمل ابنها أو ابنتها على كتفها وتندفع فى الطرقات كالمجنونة وهى تهتف بحياة اللواء محمد نجيب

إنها تعشقه .

د. يونس

(٢٨)

أمضيت عشيتى وجزءا كبيرا من الليل فى القراءة . لم يزعجنى رنين تليفون، فمنذ فصلى من الجامعة قلت المكالمات التى أتلقاها، كما أننى أحرص أيضا على عدم الإساءة إلى أحد بمكالمة من جانبى .

طوفت فى رحاب واسعة من المتعة الروحية راضيا بعزلتى ، فهى أخف وطأة من الاعتقال ، ولما غلبنى النعاس نمت نوما هادئا.

فى الصباح توجهت إلى باب الشقة الخارجى ، وسحبت صحف الصباح من تحت عقب الباب . نصفها داخل الشقة ونصفها فى الخارج ، هكذا دوما يضعها البواب ، وكأنه يبخل على بدفعها كلها تحت الباب ، فيجبرنى على الانحناء عليها وتسليكها صحيفة وراء صحيفة . حركة اعتدت عليها فى صباحى المبكر ، وأقوم بها فى معظم الأحيان ، وأنا نصف نائم .

كانت الصحف مقلوبة، عدلتها فى لحظة قيامى لأنتصب، وأتوجه إلى قاعة المكتب ، وفى تلك اللحظة الخاطفة التى فردت فيها قامتى ، لمحت عنوانا على صحيفة الأخبار باللون الأحمر : استقالة محمد نجيب .

سرت عدة خطوات وتوقفت . ألقيت بالصحف الثلاث على السجادة . رميت بها واحدة وراء الأخرى ، معدولة ، ورميت عليها نظرة واحدة ، نظرة شاملة ، كنظرة قائد الأوركسترا ، الذى يقرأ نغمات الآلات الموسيقية المختلفة فى نظرة واحدة .

هززت يدى وحركتها كحركات المايسترو ، واللحن الرئيسى فى رأسى : استقالة محمد نجيب .

والنغمات المصاحبة من جميع مناصبه ، وغير ذلك من العناوين الفرعية .

تعلمت عزف الكمان فى صباى المبكر ووددت دراسة التأليف الموسيقى والقيادة ، لكننى اتجهت إلى الأدب ، فالشعر صنو الموسيقى .

ضحكت من نفسى . قلت : هه. البلد فى حيص بيص .

تركت الصحف على الأرض فى موضعها مكتفيا بالعناوين الرئيسية وقد صدت نفسى عن قراءة بيان مجلس قيادة الثورة ، وجدته طويلا دون داع، اكتفيت بقراءة العناوين، أما تفاصيل المؤتمر الصحفى لصلاح سالم فقد وجدتها مسفة وعبرت عليها بعينى .

توجهت إلى المطبخ لإعداد فنجان قهوة، حتى استوعب مايجرى حولى بعين يقظة .

منذ ٢٣ يوليو ٥٢ جرت مياه كثيرة فى النهر، كما يقولون، ها هى العاصفة تهب على حركة الجيش من داخلها وليس من خارجها كما تدعى سلطات الأمن ، وشر البلية ما يضحك .

أزمة سياسية لايعلم إلا الله مداها. باستقالة محمد نجيب سقط شعار : الاتحاد. النظام . العمل . شعار ساذج من شعارات الجوالة ولا يصلح لمدرسة ابتدائية ، فما بالنا ببلد كمصر هدها الفقر والجهل والمرض ، ونهبها الباشوات، وقوات الاحتلال لاتزال تربض على ترابها.

قلت لنفسى : صراع بين لواء وبين مجموعة بكباشية ويوزباشية ، ولا شأن لنا بهم ، فنحن لم نخترهم ، ولم ننتخبهم .

فارت القهوة ، صببتها .

ليست بى رغبة فى العودة إلى مجموعة الصحف المرمية هناك ، فلم تكن الأنشطة السياسية يوما من اهتماماتى. فهذه ساحة لها فرسانها ، وتفاصيلها لاتروقنى وليس بى فضول لمعرفتها . قرأت العناوين ، فأحطت واكتفيت .

الساعة السابعة صباحا ، ولابد أن خبر الاستقالة نقلته الإذاعة الآن فى نشراتها الصباحية ويرن فى الطرقات . لكننى لن أفتح المذياع ويكفينى من حركة الجيش المباركة أنها فصلتنى من الجامعة واعتقلت زملاء أفاضل دون جريرة، ومنحت الترقيات لأساتذة تحيط بهم الشبهات مثل الدكتور زهدى أمين .

لا أتشفى من أحد، واللهم أهدنا جميعا ، فهذه لحظات خطر .

موعدى مع الدكتور شلبى القصاص فى الساعة العاشرة فى جروبى. فهل أعتذر له وأوفر عليه مشقة النزول الى وسط المدينة . فى هذا الصباح العاصف ؟

يقولون فى الجامعة إن الدكتور شلبى القصاص فيه شىء لله ، وإنه فى شبابه كان يقرأ الكف والطالع، لكننى لم الحق به فى شبابه ، ولم أدركه إلا استاذا وقورا، وإن كان حديثه لايخلو من الملح والنوادر والنكات الذكية الموحية فى غير فجاجة . هذه هى لعنة الدكتور شلبى القصاص على القائمين بالحكم .

رن جرس التليفون. أحسست بأن محدثى على الجانب الآخر ، هو الدكتور شلبى القصاص ، وصدق حدسى . حقيقة فيه شىء لله .

جاء نى صوته عفيا يملأ سماعة التليفون . قال :

– موعدنا فى جروبى . مع السلامة .

صوته رائق. فيه خشونة وفرحة. فرحة ليس لها علاقة بالشماتة. ، فرحة

تشبه الفرحة بطلوع الفجر أو ظهور القمر فى ليلة صافية خالية من السحب .

الشماتة من طباع بسطاء الناس، ليست من خصال صفوة القوم .

أخذت أعد نفسى للخروج، وبى شوق لمعرفة رأيه ، فكلام هذا الرجل حكمة، وله من العلم والانشغال بالسياسة ما يمكنه من التحليل السليم.

أين لى بالدكتورة أوديت هذه الساعات ، لسمعت منها تحليلا يكشف مايجرى وراء الكواليس، تحليلا يشفى غليلى .

ألقيت نظرة على الشقة قبل خروجي، وكانت زوجة البواب قد نظفتها أمس، لم اعتد اقامة حفلات فى بيتى. لكن الوحدة أصبحت ضارة فى هذه الأيام . هذه الأيام القلقة .

لست ساذجا لأظن أن الدكتورة أوديت مشغولة بى هذه الأيام التى هى منغمسة فيها فى دهاليز العمل السياسى السرى والعلنى، لكننى أطمع فى صداقتها .

يقلقنى عجـــزى عن التواصل مع الناس ، وقطعت أولى خـطواتى على أمل أن ألقى بنفسى. فى خضـــم المقاهى ، لكننى كنت أصـــاب بالضجر ســـريعا .

الضجر والملل آفتان تصيبان المستقلين من الناس . المستقلون يأخذون السياسة بقدر ، لا يرمون بأنفسهم فى أتون الصراعات، ولا يربطون نواتهم بجماعة من الجماعات، لهذا يجد المستقل نفسه وحيدا فى الأزمات، دائما يقف على الضفة الخالية من الناس، يقف هناك كشمس منيرة أو كخيال المآتة .

هو فى جانب، والناس فى جانب آخر .

وجدت المصعد مشغولا، لم أصبر على الانتظار، فتوجهت نحو الدرج ونزلت . فى البداية فى بطء، الطربوش مثبت على رأسى، وأحس بتمايل جسدى

مع دوران الدرج، ثم اسرعت شيئا فشيئا ، وأنا أمر على أبواب الشقق المغلقة والمواربة أبوابها .

الشقق المغلقة قلاع محصنة ، رأيت خادمات، أطفالا صغارا ، فتيات، نساءً ، رجالا، يقفون أو ينزلون أو يصعدون أو مشغولين .

أقطع الطوابق دورا دورا . لا يرهقنى النزول ، ولا يضايقنى انشغال الناس عنى .

بين الطابق الخامس والسادس، كانت فتاة تقف فى انتظار المصعد، التفتت إلى قالت :

– صباح الخير يا دكتور .

قلت :

– صباح الخير .

ربما هى طالبة فى الجامعة. نزلت. هذه حريتى، أما رفيقنا الدكتور عوض ساويرس، فهو فى زنزانة ضيقة، لا يتاح له سوى القيام والقعود، لا يمتلك إلا مايدور فى رأسه، أما حرية جسده ، فهى رهينة.

كان النيل أمامى مباشرة، قطعت مدخل العمارة متمهلا، وأنا أقول لنفسى، ولسوف تتبعك هذه المدينة إلى آخر العمر ، وفى هذه الشوارع نفسها تتسكع .

على باب العمارة وأنا أتجه الى كوبرى قصر النيل ، لمحت سيارة فى داخلها امرأة، لمحت جانبا من وجهها ، ثم عبرتنى السيارة، فرأيت رأسها من الخلف .

هل هى الدكتورة أوديت، أم أحلام يقظتى ؟

تابعت طريقى، كانت المظاهرات تهدر قادمة على كوبرى قصر النيل ، فضبطت خطواتى لالتقى بها فور عبورها الكوبرى .

غالبتنى ابتسامة وأنا أرى الدكتور شلبى القصاص يعبر الطريق ، لمحته من جلستى فى جروبى من وراء الزجاج، وعرفته من طريقة هزه لرقبته ويديه وليس من ملابسه ، فقد كان مرتديا الملابس البلدية الفاخرة ويلف رقبته بكوفية مثل كبار المعلمين .

جاء نى متخفيا فى ملابس تنكرية كما قالت زوجته . لكنه يسير فى زهو – كعادته – رافعا رأسه ، ويميل بها الى الجانب فى هزة خفيفة. كل خطوة أو خطوتين، لتتناغم مع حركة جسده الربعة المتين .

قمت مرحبا ، وأقبل على مبتسما. تصافحنا . جلس مستريحا فى هندامه الغريب على، ولم أطراف جلبابه الواسع ورتبها فى ثنيات،. وبعدما انتهى من ترتيب ملابسه ، قال :

– ربما لا تعرف يا دكتور يونس، أننى قد أمضيت ١٨ عاما فى المعاهد الأزهرية طالبا . فى صباى وشبابى اعتدت على هذا الزى. لهذا فأنا لا أحس بالغربة أو الغرابة نحوه ، أما من يرانى فى هذا الزى لأول مرة، فربما تصيبه دهشة بالغة، فالزى يصنع الشخصية أيضا، وليس غطاء لها فقط ، ها كيف ترانى فى هذه الهيئة الجديدة ؟!

أجبت فى حذر، متحاشيا الإشارة إلى اسمه أو لقبه، فربما جاء متخفيا كما قالت زوجته ، قلت :

– اذا رأيت الشيخ «أبو زهرة» مرتديا البدلة ، بعد أن تعودت على رؤيته فى الزى الأزهرى، سوف أشعر بالدهشة نفسها .

كلها دقائق ، وأزال عنى الدكتور شلبى الحيرة، لم يكن متخفيا كما اعتقدت فى البداية ، تحدث الى عدد من الجالسين الى الموائد القريبة فى مجريات الأمور .

لما جاء الجرسون ، قال ضاحكا :

– شاى مخصوص للدكتور شلبى ، أنت تعرف مزاجى .

اذن لأحادثه باسمه ولقبه . سألته عن سبب ذهابه إلى الطبيب اليوم ، فى هذا الصباح العاصف . قال وهو يرشف الشاى :

– هذه ليست علة فقط ، لكنها بلاء وبيل . خذ ياسيدى ، أولها خراج فوق العانة مباشرة، وقد لحق به آخر فى الفخذ ، ولهذا تجدنى أسير كالصبى المختتن حديثا ، أدعكهما بمراهم، ولا ينفع معهما إلا لبس الجلابية الواسعة، فالبنطلون تحتك به الخراريج عند السير والقيام والقعود، ويقتلنى احتكاكه.

سألت مستفسرا :

– هل تؤلمك ؟!

أجابنى ، قال :

– ألما خفيفا للغاية ، فلم يحن وقت فتحها بعد، والطبيب يرى أن علاجها ليس فى الجراحة فقط ، ويود معرفة سببها ويقول توجد بؤرة سامة تفرز هذه الخراريج، ولهذا أغرقنى فى قائمة طويلة من التحاليل .

تمنيت له الشفاء وصمت ، لا أدرى حقيقة ما به ، وإن كان قد أخبرنى بشكل عارض فى الصباح، أنه ينوى زيارة طبيب التحاليل بعد لقائنا .

قال الدكتور شلبى القصاص، بصيغة حيادية :

– طبيبى هناك فى شارع قصر العينى ، والمظاهرات بدأت فى التدفق على منطقة رئاسة الوزراء ومجلسى النواب والشيوخ واذا لم نجد «تاكسى» ، وهذا هو أغلب ظنى ، فسوف نتمشى سويا. المظاهرات من العباسية إلى باب الحديد تهتف بالموت لصلاح سالم وجمال عبد الناصر .

- سمعت بعضها وأنا فى طريقى إلى هنا .

قال :

- هيا بنا .

قمنا .

يملؤنى يقين أن رفيقى طلب القيام ليلحق بالمظاهرات، وليس بموعد مع طبيبه، وقد بدأت أصوات المظاهرات تعلو آتية من ميدان الاسماعيلية والشوارع المحيطة بميدان سليمان باشا .

قلت لرفيقى فى رجاء خفى :

- قالت العرب، فى وقت الغمة اهرب

أجابنى ضاحكا، وهو فى كامل عافيته ، قال :

- هذا ما قالته العرب فى الزمن الغابر، لكننا مرضى وفى حاجة إلى طبيب.

بسمة صافية ترتسم على شفتيه وتملأ وجهه بأكمله، أحسست بسروره مما يجرى ، فسرت إلى جواره صامتا .

سرنا سويا، تارة فى مقدمة المظاهرات ، وتارة على هامشها، وكلما تخلفنا عن مظاهرة لحقت بنا أخرى ، وأصبحنا فى مقدمتها .

مال على الدكتور شلبى القصاص . قال :

- هذه المظاهرات خليط من فرقاء ، لايجمعها سوى التشفى من العسكر .

ربما أدرك ذلك من الهتافات، لكننى لم ألحظ شيئا، ورأيتها كلها تطالب بالديمقراطية .

بعد عمارة إلهامى باشا، سألنى الدكتور شلبى القصاص ، قال :

- ما رأيك فى فنجان قهوة ؟ فى مقهى صغير فى شارع جانبى ، فيه أصدقاء لى. وافقته على الفور، لأبتعد عن المظاهرات وجوها المحموم

سرنا قليلا ، وفى شارع جانبى فى المنيرة ، وعلى مقربة من دار الحكمة أمام محل يشبه المقهى، وله واجهات زجاجية كثيرة، توقفنا .

قال الدكتور شلبى القصاص فى حماس ، لى أصدقاء هنا .

دخلنا .

مدخل ضيق وفسحة فى الداخل . وفى لحظة خاطفة ، وبينما أشق طريقى خلفه ، وجدت ذلك الرجل الذى يشبهه ، ويطلق عليه قرينه ، أمامنا مباشرة ضحكنا . قال :

- رأيت قرينى المدعو «عباس أبو حميدة» مزارع عزبة عويس ؟

قلت وأنا أخفض صوتى :

- نعم.

ملابسهما متقاربة ، وملامحهما واحدة تقريبا. التشابه خاصة فى حركة الرأس والذراعين والكتف، ربما طولهما يختلف، وفى لحظة خاطفة، رأيت الجالس هناك، هو الدكتور شلبى القصاص ، إحساس خاطف يضفى على كل شىء طعم الوهم، أو كأننى أرقب العالم من خلال مرآة فأرى صورة رفيقى فيها ، جالسا ، بينما نحن لم نتخذ بعد جلستنا .

المرايا فى هذه المقهى قد رصت بطريقة مبتذلة ومنفرة، وكأن المحل صالون حلاقة وليس مقهى أو مطعما . ضجة. أصوات هامسة أيضا . حركة بين الموائد .

اخترنا مائدة، وأبعدت ناظرى عن الآخرين ، وكذلك عن ظلالهم فى المرايا، حتى أبتعد بنفسى عن الأوهام .

قادنى الدكتور شلبى القصاص إلى هذا المقهى – عن عمد – ليقنعنى بوجود قرين له ، ينتحل شخصيته، وحولت بصرى بعيدا عن مائدة مزارع عزبة عويس، فهذه قصة غامضة ولا تسرنى تفاصيلها .

بعد دقائق أدركت أن رفيقى لامعارف له فى هذا المقهى الغامض ويحس بالوحشة مثلى .

قلت متأففا :

– هذا المحل ، كان صالون حلاقة ثم تحول إلى مقهى . على الرغم من الضجة فيه برود مريب . مستودع أسرار غامضة .

قال لى :

– هذا المحل يمتلكه واحد من كبار الضباط الذين فصلوا من الجيش، ويتردد عليه اثنان من أعضاء مجلس قيادة الثورة، ورأيت أحدهما وعرفته من صوره،. أما الآخر ، فليست لى به معرفة . وقد افتتح هذا المحل بموافقة جمال عبد الناصر ليتردد عليه المتذمرون بعيدا عن الأندية ، ليضمن عدم اختلاطهم برجال الأحزاب القدامى .

فى كل دقيقة أجد نفسى متورطا فيما لايعنينى . قلت :

– نحن أساتذة جامعة ، وليس لنا دور هنا .

قال مخففا عنى :

– كلها دقائق ، ونذهب لحال سبيلنا .

شربنا قهوتنا ، واستأذن منى لعدة دقائق، لزيارة طبيب التحاليل، وطلب منى انتظاره ، بقيت فى موضعى على مضض ، وهدير المظاهرات فى الشارع لايتوقف، وفجأة، وبعد ذهاب الدكتور شلبى ، وغيابه، انتقل عباس أبو حميدة إلى

مائدتى، ألقى السلام،. وجلس طلبت له قهوة، اعتذر، قال :

– تحياتى الى الدكتور شلبى .

ضحكت . قلت :

– هذه رسالة ؟

قال :

– هذا واجب .

وغادرنى .

قلت لنفسى ها أنا ذا يتعين علىّ نقل رسالة من مزارع عزبة عويس الى رفيقى الدكتور شلبى القصاص .

وراقبته فى المرآة، رأيته أطول قامة قليلا، وأميل الى النحافة من رفيقى الدكتور شلبى القصاص .

وعزمت على مغادرة المقهى، فور قدومه .

بعد فترة وجيزة من مغادرة «عباس أبو حميدة» المقهى ، عاد إلى مهموما وفى يده ملف . قال :

– تخلف الطبيب عن موعده ، وسلمتنى المرضة التحاليل ، ألقيت عليها نظرة سريعة ، وفاتنى فهم مدلولها بعد خمسين عاما فى الترجمة. الأطباء مثل الكتبية فى السابق لهم رموزهم وأسرار صناعتهم .

ناولنى الملف . ألقيت نظرة على الأوراق . قلت :

– البول لا بأس به . وإن كانت به نسبة من الصديد . وكثير من الحصى. أما بالنسبة لتحليل الدم ، فبخلاف عدد الكرات الحمراء والبيضاء بقية الرموز لاتعنى لى شيئا .

أعدت إليه الملف ، فوضعه على المائدة . قلت . عباس أبو حميدة، ترك معى رسالة لك . أسمعته بيت الشعر .

صمت برهة . قال :

– عجيبة . لا يتقمص شخصيتى فقط ، لكنه يردد الشعر الذى أردده أيضا

حديث السياسة يغرق المكان بسبب المظاهرات، سألته :

– هل تفرض المظاهرات عودة حاكم ضد رغبة رفاقه ؟

قال :

– كلها ساعات ويعود محمد نجيب إلى موقعه .

وبعدها أكمل :

– هذه فورة. رد فعل بدائى . والشعب من السهل خداعه، ولنا فى مسرح شكسبير عبرة وموعظة .

قلت ضاحكا :

– هذه نبوءة أم حسابات !!

قال :

– حسابات البكباشى جمال عبد الناصر وزمرته سوف تكون على هذا النحو . عودة محمد نجيب، ثم التخلص منه بعدها بهدوء .

وبعدها سألنى ، قال :

– يحيرنى ظهور مزارع عزبة عويس على هذا النحو ، بعد أن كانت أجهزة الأمن تطارده إلى درجة أنها اعتقلتنى بسببه . هذا له معنيان لا ثالث لهما عندى : أعطى منديل الأمان على طريقة الخلفاء من جمال عبد الناصر ، أو غير الولاء من التنظيمات اليسارية الى جمال عبد الناصر .

قلت :

– لا عجب ، فقد رأيت وأنا فى طريقى إلى جروبى هذا الصباح ، عبد القادر عودة يقود مظاهرة ضخمة من طلبة الجامعة ، وكنت أعتقد فى السابق أنه اعتقل ضمن قيادات الإخوان .

قال :

– الاتصالات الآن جارية بين القوى كافة، وهنا فى هذا المقهى جنرالات المعركة الدائرة فى الطرقات، هذه المظاهرات وراء ها أناس ، وأنا أراهم هنا .

الحركة الدافقة فى الشوارع، أنعشتنى، أزالت عنى الركود الذى عم حياتي منذ فصلى من الجامعة . تذكرت قول المعيد الهندى لى فى اكسفورد :

– احرص يا دكتور عبد العال ، على ممارسة الحب فى الأماكن والأجواء شديدة التطرف ، حفاظا على سلامة ساعتك الحيوية . لتستمد منها قوة فى الأيام الجرداء .

كلما دارت مظاهرات تهتف بالموت لصلاح سالم اهتزت الموائد من رجع الصدى الذى تتناقله الجدران وتعكسه حوائط البيوت .

ها أنا ذا لا أمارس الحب ، لكننى أشهد صناعة تاريخ ، عاصفة على حركة الجيش، تراجيديا أحداثها تجرى فى الطرقات، لكن أسرارها تصنع فى الدهاليز، لتنتهى بقولة قيصر الخالدة : حتى أنت يا بروتس .

المظاهرات توهم آحاد الناس بأن لهم دورا بينما أصول الحكم لها مؤسسات .

قال الدكتور شلبى القصاص :

– هه . أين أنت ؟ هذه نظرات العشق .

قلت :

– افكر فى الزواج .. حياتى على هذا النحو جرداء .

قال ضاحكا :

– أعرفها ؟ هل هى التى فى بالى .

قلت :

– نعم .

فقال :

– ونعم الاختيار .

كنا فى حفل عشاء، وزوجة الدكتور شلبى القصاص معنا . وفى نهاية السهرة، قال :

– ترى زوجتى ، أنك أحسنت الاختيار .

كانت الفتاة تقف على مبعدة عدة خطوات . ضحكت .

قالت بصوت خفيض :

– ولمعلوماتك ، زوجتى كانت صديقة لوالدتها الروح بالروح .

وانقطع حديثنا .

وجاء فصلى من الجامعة، ورأيتها مرة أخرى ، لكننى تحفظت فى مسلكى معها، لكنها أقبلت على تحادثنى . سألتنى عن مشروعاتى القادمة ، وإذا كنت أنوى السفر إلى الخارج ، مثل الآخرين .

نفيت ذلك بشدة . قلت :

– كلا .

قالت لى وغمازة الحسن ، تضحك على وجهها فرحة :

– أحسنت . إياك والسفر فى هذه الظروف .

طلبت من رفيقى الخروج من هذا المحل الضيق إلى الفضاء الواسع .

انطلقنا .

ومع هدير الهتافات ، وصخب الطريق ، تذكرت تلك الأوراق التى خبأتها فى قاع درج مكتبى ، ونسيتها حتى يحين وقتها ، تذكرت مسودات كتابى زميلنا الدكتور عوض ساويرس، ورأيت أنه من الحكمة نقلها إلى العزبة ، فالعزبة الريفية الصغيرة أكثر أمنا من هذه القاهرة الواسعة .

د. شلبى القصاص

(٢٩)

قبل أن نصل إلى ميدان الاسماعيلية ، وعند بداية جاردن سيتى من ناحية الميدان ، رأيت تململا فى سير الدكتور يونس فى وسط المظاهرات، وبه رغبة فى الانفراد بنفسه .إننى أعرف ما يقلقه ويضايقه ، كما أنه يخشى أن يرانى معه أحد فيسبب لى متاعب أنا فى غنى عنها .

مخاوفه ليست فى محلها ، فهذه أيام متقلبة، الأمن ليس محورها ، لكن السياسات العليا .

قلت ، من الأفضل أن يعود إلى بيته ، أما أنا فأمامى عدة مشاغل فى البلد افترقنا . على وعد بالاتصال تليفونيا فى العشية .

أحواله تقلقنى . وفور انتهاء هذه الغمة، أدعوه إلى عشاء عندى ، هو وحبيبته التى تشغله ، ويحجم عن الاتصال بها بسبب فصله من الجامعة ، بينما هو لو عرف الحقيقة ، لأدرك أن فصله لايهمها من قريب أو بعيد ، فهى غارقة فى السياسة إلى أذنيها .

زوجتى تزعم أنها تبادله الاهتمام، وقد رأت ذلك واضحا فى عينيها فى حفل عشاء سميراميس، النساء لهن قرون استشعار، حاسة سادسة، لكننى أرى فى تعرفه عليها ، ضرورة، لها ، وله .

فى ميدان الاسماعيلية ، أمام شركة الطيران ، رأيت أمامى مباشرة ، اليوزباشى محسن عبد الخالق. هذه أول مرة أراه فى ملابس مدنية .

وقفت أمامه مترددا ، بين الإقبال والصد، لمحنى ، أخذنى بالحضن سلامات يادكتور شلبى .

سلامات .

قال ، أعزك الله، البلد على شفا حرب أهلية، والانجليز يستعدون لدخول القاهرة . قواتهم تتحرك نحو القاهرة .

بعدها سألنى، قال :

– طبعا عرفت بما جرى لى ؟

قلت :

– من فترة قصيرة ، قرأت تحقيقا مفصلا فى صحيفة فرنسية عن قضيتكم .

قال :

– حضر إلينا فى الفجر زكريا محيى الدين ، وأخبرنا بما يجرى وبالتهديدات البريطانية . أفرج عنا وطلب منا العودة إلى قواتنا فى خلال خمس ساعات .

قال :

- هذه أخطر أزمة تواجه الرئيس جمال عبد الناصر .

قلت لنفسى ، حقيقة، ويأتيك بالأنباء من لم تزود .

سألته ، قلت :

- والحل ؟

قال :

- اذا استدعت الضرورة ندك سلاح الفرسان . كلنا من سلاح المدفعية .

قلت :

- الفتنة انتقلت إلى الشارع .

قال :

- المهم وحدة الجيش والقوات المسلحة .

كان على عجل ، وافترقنا .

عباس أبو حميدة

(٣٠)

كنت أدرك فى هذه الساعات أن جمال عبد الناصر يعد أوراقه فى حذر وإذا جرفته الأحداث تصرف فى جسارة تبلغ حد المقامرة بكل شىء، وقد تركزت الأبصار على اجتماع سلاح الفرسان وكانت تطورات المناقشات الحامية هناك تصلنا فى التو واللحظة فى مقهى عنق الزجاجة .

فشل حسين الشافعى فى فض اجتماع الضباط المتمردين ، وتوجه إليهم جمال عبد الناصر ، وظل هناك إلى مابعد منتصف الليل .

وقرب الفجر علمنا ، أن جمال عبد الناصر وافق على حل مجلس قيادة الثورة وعودة محمد نجيب رئيسا لجمهورية برلمانية وتشكيل حكومة انتقالية برئاسة خالد محيى الدين وعودة اعضاء مجلس قيادة الثورة إلى وحداتهم .

وهلل الضباط فى المقهى ، وتهور أحدهم، وخرج إلى الطريق وأطلق رصاصة فى الهواء .

تصفيق. هتافات . كنت أنظر إلى وجوههم الغائبة فى سحابات الدخان فى

خوف على البلد . هؤلاء جميعا فيما عدا القلة منهم أجمعت كلمتهم على زوال حركة الجيش لأسباب شخصية، ولا تهمهم مصلحة البلد من قريب أو بعيد .

واشتممت رائحة الغدر من جمال عبد الناصر، وأدركت على الفور أنها محاولة تكتيكية لإرضاء ضباط سلاح الفرسان حتى يحين الصباح للتخلص من خالد محيى الدين ووضعه فى صف واحد إلى جانب محمد نجيب .

لم تكن هناك اتصالات بيننا وبين خالد محيى الدين فى تلك الساعات الحاسمة، وقد فاجأتنا الأحداث كما فاجأت غيرنا، وكل ما كان يجرى من لقاءات ومن اتصالات كان بالصدفة أو بالدفع الذاتى، حتى فورة التمرد فى سلاح الفرسان لم يكن لنا نصيب فيها، وعندما هدد ضباطهم بدك القيادة العامة وتحريك دباباتهم كانت فورتهم انفعالية، ولما عرض عليهم جمال عبد الناصر نقاطه الخمس كان ذلك أيضا بطريقة عفوية ، وقد أراد أن يقلب المائدة على الجميع .

كلى عجب من فرحة الضباط حولى ، وقلت لنفسى : حقيقة لينين كان على حق ، فى توصيفه للجيش ووجوب خضوعه للحزب. قاومت النوم، وتحاملت على نفسى وبقيت ساهرا ، ودخان سجائرهم يخنقنى، أنا الفلاح الذى يأوى إلى فراشه بعد صلاة المغرب ، وليست لى طاقة على السهر . لكنها ليلة فاصلة .. وبدأت جماعات من الضباط تتشاور فى التوجه إلى مجلس قيادة الثورة ووضع أنفسهم تحت إمرة جمال عبد الناصر، وكانت حسبتهم بسيطة للغاية : فجمال عبد الناصر هو المسيطر على تنظيم الضباط الأحرار وعلى القيادات الرئيسية فى الجيش ، أما محمد نجيب فلا يتمتع إلا بالحب فى القلوب والحب لايعمل حسابه فى المواجهات المسلحة.

قال لى صاحب المقهى قرب الفجر، إنه أصبح لايطيق البقاء على هذا النحو فى انتظار الأحداث، وسوف يتوجه إلى القيادة .

قلت له محذرا :

- الوقت متأخر .

سألنى وقد لمعت عيناه ، قال :

- ماذا تقصد ؟ الماركسيين يفهمون فى السياسة أحسن منا نحن الضباط.

قلت مخففا من مخاوفه :

- دخل الفجر علينا .

قال لى ضاحكا :

- هذه هى لحظات الهجوم المفضلة عند العسكريين . مع أول ضوء.

وغادرنا فى ملابسه المدنية .

قدرت أنه لن يعود قبل ساعتين أو ثلاث - اذا قدر له أن يعود سالما - وتوجهت إلى شقتى طلبا للراحة، لكننى لم أقدر على النوم ، وبقيت متمددا فى فراشى كالجثة الهامدة ، وفى رأسى تدور كل الاحتمالات .

عدت إلى المقهى ، وجدته ثائرا ، قال لى :

- جمال عبد الناصر يعبث بسلاح الفرسان ، اعلن لهم عن انسحاب الجيش وعودة الديمقراطية وتسليم السلطة إلى محمد نجيب وخالد محيى الدين وتوجه خالد الى محمد نجيب وعند عودته إلى مجلس قيادة الثورة تعرض إلى إهانات من رجال عبد الناصر ولم يحمه إلا عبد الحكيم عامر . رأيت بعينى البوليس الحربى يعتقل ضباط سلاح الفرسان فى الطرقات .

بعدها قال لى غاضبا :

- الديمقراطية فى مصر عمرها ثلاث ساعات .

قلت له متسائلا :

– والنتيجة ؟!

قال لى :

– سوف يعود محمد نجيب إلى منصبه دون سلطات حتى يتم التخلص منه

سألته :

– وما موقف خالد محيى الدين ؟!

أجابنى على الفور :

– حرقه جمال عبد الناصر فى غمضة عين. وغدا يتم تطهير سلاح الفرسان

كان ذلك من رأيى. وكنت متعبا والفجر شديد البرودة، ورأسى قد امتلأ بالأحداث الصغيرة غير المترابطة حتى اختل توازنه ولم أعد قادرا على الفهم الصحيح . قلت له :

– الأمور اختلطت علىّ وساحت .

قال لى :

– زايد جمال عبد الناصر على مطالب ضباط سلاح الفرسان بعد أن وزن كلماتهم وحلل اتجاهاتهم وعرف أنها ثورة غضب وأنه لاتربطهم وشائج تنظيمية فيما بينهم بل جلهم من تلاميذه ومن يقدرون زعامته ، زايد عليهم ، وقدم لهم خمس نقاط تبدأ بحل مجلس قيادة الثورة وتنتهى بتسليم الحكم إلى خالد محيى الدين وهو على ثقة أنهم سوف يتوجهون إلى بيوتهم للنوم وليس لاعداد الخطط ، قابلت فى طريقى عند العباسية ثائرا من رجال سلاح الفرسان، قال لى فرحا، إنهم

واجهوا جمال عبد الناصر بكل شىء ، وإنه تم تعديل مسار البلد ، سألته : وماذا بعد ؟! قال لى : عودة نجيب وخالد ، سألته : هل تظن أن جمال عبد الناصر يقبل حل مجلس قيادة الثورة على النحو الفكاهى وهو الذى قضى أحلى سنوات عمره فى الإعداد لحركة الجيش ؟ قال لى : ماذا تظن ؟ قلت له : الأمور واضحة ، وتركته متجها إلى القيادة العامة . كنت طوال الطريق أحلم بعودتى إلى الجيش فأنا ضابط محترف، والحياة المدنية لا تروقنى. متعتى فى البقاء وسط قواتى فى الصحراء، وإننا معركة مع إسرائيل قادمة ، وحلم حياتى خوض هذه المعركة .. وأخذت اتلمس حلتى العسكرية الوهمية وأتحسس أزرارها المعدنية وقد رأيت نفسى متجها إلى معسكرى، ولما حادثنى ذلك الزميل تشاءمت، ورأيت الأوضاع سوف تتابع انحدارها إلى أسوأ وليس إلى أفضل، وبعد أقل من ساعة تحققت مخاوفى . عاد خالد محيى الدين من عند محمد نجيب، فقابله الضباط عند القيادة بالشتائم وبدأت تجمعات مندوبى القيادة فى الوزارات بالإضافة إلى ضباط الصف الثانى فى تنظيم الضباط . ومع حلول ساعات الصباح، تسللت بعيدا وأخذت عربتى عائدا، وقد وطدت عزمى على البقاء فى هذا المقهى حتى آخر العمر ، غدا سوف تجدنى مرتديا الجلابية وأقف على النصبة أعد الشاى والقهوة ، كلما ابتعدت عن القيادة كنت أتخلص من معلوماتى العسكرية وأقذف بها خلفى ورقة ورقة .

وقام محدثى فجأة ووضع عليه الفوطة ، وأخذ ينظف حجارة الشيشة، وأزاح عامل النصبة ووقف يغسل الأكواب فى جدية شديدة وقد اتخذت وقفته وهيئته وقفةجرسون قديم . بل تغيرت طبقة صوته أيضا وهو يقول لزبائن الصباح من سائقى النقل والتاكسيات : حاضر .

لايضايقه سوى كرشه المتدلى أما حركاته فهى نشيطة وطريقة إمساكه بالصينية وهى مائلة وعليها فنجان القهوة توحى بأنه جرسون محترف، وأحسست

بنظراته تتغير ويصيبها حول مفاجىء، قمت ، قلت له :

– ياحضرة البكباشى اترك لى هذه المهمة حتى يأتى الجرسونات .

كنت مرتديا الجلابية وفوقها البالطو ، وخلعت البالطو ، لكنه نظر إلىّ نظرة غريبة، وكأنه لايعرفنى ، وسألنى :

– شاى أم قهوة .

فى كل دقيقة تمر يزيد حول عينيه ، وتتسع المسافة بين حدقتيه وتتغير لهجته، وعز علىّ أن أتركه على هذه الحال وقد تفرق رفاقه ، وبقيت ، وقلت لنفسى : ربما هذه هى تصوراتى أنا .

عباس أبو حميدة

(٣١)

قمت بعدة اتصالات وعدت ثانية إلى المقهى ، كانت الساعة قد قاربت العاشرة، ورأيت حضرة البكباشى على حاله ، لمحنى قادما، قال : قهوة . قلت : نعم شكرا . عيناه فيهما بريق مجنون . وحركاته فيها تحفز وبينه بين الانفجار خطوة . دققت فى خصره تحت الجلابية ، وفى صدره. لم يكن متمنطقا بمسدس أو سلاح أبيض. استرحت .

فى هذه اللحظات لا أحد يعرف مسارات الناس . وضع القهوة أمامى . قلت : تفضل. جلس أمامى وكأنه فى حاجة لمن يخاطبه . قال وقعت تطورات جديدة . خطيرة . نصب سلاح الفرسان مدفعية المدرعات الثقيلة وهددوا بنسف القيادة اذا لم يتم الاستجابة لمطالبهم ، بينما سيطر أنصار جمال عبد الناصر على القيادة العامة ، وقد أخرج على صبرى ووجيه أباظة الطائرات لتحلق فوق سلاح الفرسان .

حول عينيه واضح . وأوداجه منتفخة من عدم النوم . قال أنا لا أفهم فى السياسة . قلت : ياصديقى ، وماذا بعد ؟ أسأله ولا أناقشه. أدفعه إلى الكلام.

واحترت. هل أخاطبه بلقبه وأقول له حضرة البكباشى عبد الحميد وهو فى هذه الهيئة فأثيره أم أتغاضى عن ذلك مؤقتا ؟

قال : سوف يتراجع جمال عبد الناصر خطوة إلى الخلف حتى يعيد ترتيب أوراقه، رجوع محمد نجيب أصبح حتميا ولا شىء أكثر من ذلك. ومحمد نجيب رجل ليست له طاقة على العمل. فى رأسه مجموعة من الشعارات لا أكثر ولا أقل. رجل طيب للغاية .

كان حديثه طبيعيا . سألته : وخالد محيى الدين ؟ قال : سوف يطرد من مجلس قيادة الثورة، وربما يتهم بالترويج لأفكار معارضة فى سلاح الفرسان. قلت موافقا : معك حق . نظر إلىّ فى ريبة. تضايق .

قال : أنا رجل عسكرى. التكتيك مهنتى. الأمور واضحة يارفيق .

قلت : نعم .

قال : جمال عبد الناصر ليس شريرا. إنه زعيم بالطبيعة. صاحب حس عال . وسوف يتعلم. لكن الثمن سوف يكون باهظا. باهظا جدا. أنا لست خائفا على نفسى. لن يسعى إلى الانتقام من المعارضين، لكنه سوف يسعى لاكتسابهم إلى صَفه فيفتت جبهتهم لمائة عام. هذه هى الخطورة يا رفيق . لن تكون هناك معارضة حقيقية فى البلد . والجيش سوف يكون كتلة واحدة ينخر فيها السوس. هذا واضح يا رفيق .

قلت : واضح .

لا أدرى هل أصدقه أم أكذبه . كلامه له منطق متماسك. قال : ربما لا تصدقنى . قلت : العياذ بالله. أنت أدرى منى بهذه الأمور .

قال : العسكرية معلومات وحس وربما يأتى الحس قبل المعلومات فى اللحظات الحاسمة .

قال : المعلومات عندى . وضحك . تحركت عيناه، وتغيرت ملامح وجهه . هذه هى أول مرة يضحك فيها .

قال : عبد الناصر لايفارق هذه القهوة هو يعلم وأنا أعلم . كل ما يدور هنا يصله. له عيون وآذان .

رن التليفون . قام . استمع إلى محدثه فى صمت. ربما نطق بكلمات مثل صباح الخير أو الحمد لله. عاد لى. قال : السيناريو كما هو، زاد عليه أن محمد أحمد صحب طابورا من ضباط الفرسان الذين تم القبض عليهم إلى السجن الحربى. وسلمهم إلى أنور عرفة وشهدى الششتاوى .

قال : هذه أمور تكتيكية. ثانوية. لا تغير شيئا من الصورة.

ضباط الجيش حتى فى لحظات تبسطهم أو جنونهم لايقبلون المناقشة . طبيعة فيهم . قلت : نعم .

قال : سلاح الفرسان على حاله ، واعتقال عدة أفراد لن يؤثر، بل سوف يزيد السخط. عودة اللواء محمد نجيب أصبحت مؤكدة. هذه حسابات قوى .

قلت : نعم .

دخلت مجموعة من الضباط السابقين . قالت : عاوزين نفطر يا عبد المجيد

تركنى والتفت إليهم، وطلب من الصبى شراء طعمية وفول. وجدت نفسى أغادر المقهى ، فقد وجد بغيته فى حضورهم ، وليست بى رغبة فى وصل خطوطى بخطوطهم ، وما وصلنى من معلومات يكفينى .

عودة اللواء محمد نجيب مع استمرار المظاهرات اليوم أصبحت مؤكدة

وكلها ساعات ويعلن مجلس قيادة الثورة عن تراجعه، لكنه سوف يعود دون خالد محيى الدين .

كسب جمال عبد الناصر نقطة.

وكما قال البكباشى عبد المجيد. الديمقراطية فى مصر عمرها ثلاث ساعات يا رفيق. ياله من ضابط محنك. لم أخبره أننا نشترك فى المظاهرات وقد نجحنا فى تجميع القوى المدافعة عن الديمقراطية، غير أن الغلبة فى هذه المظاهرات سوف تكون لجماعة الاخوان المسلمين .

أجرت جماعة الإخوان المسلمين حساباتها على أساس الانحياز الى محمد نجيب لأغراض تكتيكية للضغط على جمال عبد الناصر، وربما تكسب عدة نقاط ويتم الافراج عنهم، لكن ذلك كله سوف يكون مؤقتا .

كان موعدى مع الرفاق قرب محل استرا فى ميدان الاسماعيلية ، لتوجيه المظاهرات ثم العودة ثانية إلى المقهى .

يوزباشى عباس الوهيدى

(٣٢)

تصف سونيا زوجتى حركة الجيش منذ قيامها بأنها قطار ركاب قاطرته تندفع إلى الأمام بينما عرباته تسير إلى الخلف . هذه صورة سريالية غريبة ، وزوجتى لها ولع شديد بمثل هذه الصور نتيجة لمزاولتها الرسم والتصوير واتصالها بعدة جماعات يسارية رفضت حركة الجيش منذ قيامها .

كنت فى السابق لا أصدقها ، وأرفض توصيفها لحركتنا ، بل كنت لا أسمح لها بانتقاد حركة الجيش أمامى ، وأعتبرها أجنبية عن مصر على الرغم من تمصرها بسبب نشأتها وأصولها الفرنسية وديانتها اليهودية السابقة على إسلامها .

لكن لم يمض عام على حركتنا إلا ووجدت نفسى قابعا فى العربة الأخيرة من القطار العب الورق مع مجموعة من الضباط المفصولين أو المحالين إلى التقاعد ، وقد اتسعت المسافة بيننا وبين القاطرة .

تحملنى العربة إلى الوراء فى كل يوم مع الورق ، وتعود بى قفزات عقرب الدقائق إلى الماضى ، ومع مرور الأيام تقطعت الوشائج بينى وبين قاطرة القطار ،

ونسيت بيتى وزوجتى وابنتى وعدت إلى مرحلة .. «العزوبية» السائبة غير المقيدة بتقاليد .

همى الأول هو قتل الوقت ، ذلك الوحش الذى يطاردنى منذ طلوع النهار ويحيطنى بإساره ، وتسلط عين الشمس الجبارة اشعتها علىّ ، وتتحدانى إذا نظرت إليها أو حدقت فيها فاهرب إلى الليل .

عدت إلى بيتى مبكرا ، فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، ومنتصف الليل نقطة فاصلة بين يومين ، وهذا توقيت وضعه عبقرى ، فالنهار الجديد المولود ثلثه ظلمة وعتمة ، وهذا يروقنى ، سألتنى سونيا :

– ماذا جرى لك ؟ لماذا عدت مبكرا ؟

– قلت لها وأنا مشغول بارتداء ملابسى العسكرية :

– عمل عاجل .

ضحكت منى وقالت فى سخرية :

– لا تنس أوراق اللعب الجديدة ، حتى لا تعود مرة أخرى وتوقظنى .

قلت لها :

– ثورة جديدة .

قالت فى سخرية :

– هذه خلافات على السلطة بين نجيب وجمال ، انس حكاية الثورة .

قلت لها وأنا فى غاية الجدية :

– سوف نربط العربات الخلفية للقطار بالقاطرة .

كانت زوجتى جالسة فى فراشها نصف نائمة ، قالت :

– إحذر العنف ياعباس .

قلت :

– حاضر .

غادرت بيتى على عجل متوجها إلى القيادة العامة .

قلبى يسرع مع كل قفزة لعقرب الدقائق ليعيد ساعة التاريخ إلى الوراء . دبيب الزمن اسمعه هذه اللحظات وهو يشق ستار الليل متقدما إلى الأمام بينما كل شىء حولى يتجه إلى الخلف .

أعضاء مجلس قيادة الثورة فى حيرة كاملة ، وقد بان على وجوههم الاستسلام الكامل ، جمال عبدالناصر حائر قليل الكلام وقد اتعبه السهر ، لكنه لايزال يقبض على مسار الأمور ، ويقدم التنازلات بقدر محسوب .

كنت أرقب تصرفاته وأضعه فى عينى .

مع دخول الفجر ، وقبل أول ضوء ، حركنا المدفعية لمحاصرة سلاح الفرسان ، وكلفنا الشرطة العسكرية بالقبض على ضباط الفرسان عند مفارق الطرق فور خروجهم أو قدومهم إلى القشلاقات .

نحن معشر الضباط الأحرار ، طليعة الشعب ، وليس من حقنا الانسحاب على هذا النحو وتسليم الثورة إلى الأحزاب والقوى اليمينية الفاسدة ، كانت هذه هى الشرارة التى تسرى فى عروقنا فتجمعنا ، ولا أعلم من صاغها على هذا القدر من الوضوح فترددت على السنتنا جميعا .

أفلح على صبرى ووجيه أباظة فى دفع تشكيلات من الطائرات للتحليق فوق سلاح الفرسان على ارتفاعات منخفضة ، ولما سمعنا أزيز الطائرات ، ورفعنا رءوسنا إلى السماء ، كانت المعركة وفقا لمقاييس القوة المجردة قد حسمت

لصالحنا ، لكن السياسة لها حسابات أخرى أكثر تعقيدا ، وربما القوى التى لا يعمل حسابها تتدخل فجأة وتقلب الموازين .

اقتحم اليوبازشى شهدى الششتاوى جلستنا أمس فى محاولة مفضوحة للتلصص علينا ، ليدمج تقريرا جديدا لهذه الأجهزة الجهنمية التى زرعت وترعرعت فجأة فى الجيش والبوليس ، وقد غاب عنه أن الثورة بأكملها فى خطر ، فشغل نفسه بمجموعة من الضباط يلعبون الورق فى هدوء .

أين البكباشى أنور أحمد واليوزباشية حسين عرفة وشهدى الششتاوى فى هذه اللحظات الحاسمة ؟ لابد أنهم قابعون فى مكاتبهم يكتبون التقارير .

هؤلاء أدوات ، لا يأخذون مبادرة ولا يدركون أبعاد المواقف .

كمال الدين رفعت . أبو الفضل الجيزاوى . حسن التهامى . داوود عويس. عشرات من الضباط الأحرار حولى بالإضافة إلى مئات من أولئك الضباط الذين أساءوا إلى الحركة الجيش ولوثوا سمعتها ، وجاءوا للدفاع عن مصالحهم الخاصة

قال جمال سالم فى توتر شديد :

– البلد كلها تصفنى بقائد الجناح المجنون . اتركونى أذهب لاغتيال محمد نجيب ثم حاكمونى بعدها .

تذكرت قول زوجتى ، احذر العنف يا عباس .

لم يأخذ أحدنا قوله مأخذ الجد ، كنا نسعى لترتيب الوضع وليس للغدر أو الاغتيالات . يكفى أن اللواء محمد نجيب قد ألقى حجرا مطالبا بالتغيير ، وانتظرنا عودة الصاغ خالد محيى الدين من زيارته إلى اللواء محمد نجيب .

لست ضد عودة اللواء محمد نجيب لكننى ضد عودة أركان النظام القديم إلى الحكم ثانية .

الصاغ عباس رضوان من الضباط الأحرار الذين رافقوا الصاغ خالد محيى الدين عندما توجه إلى مقابلة اللواء محمد نجيب قبل الفجر بقليل ، وأبلغنى الصاغ عباس رضوان ، والحيرة على وجهه ، بعد عودتهم ، أن إقناع محمد نجيب بالعودة إلى مناصبه السابقة وسحب استقالته لم يستغرق أكثر من ثلاث دقائق .
وأضاف قائلا :

– هذا الرجل ليس جادا ، ويمثل خطرا شديدا على حركة الجيش ومصيرها .

لم أصدق فى البداية رواية الصاغ عباس رضوان ، وتوجهت إلى الصاغ خالد محيى الدين الذى تربطنى به معرفة سابقة تعود إلى ما قبل حركة الجيش ، وسألته ، فقال لى ، إن محمد نجيب وضع شرطا واحدا لعودته ، وهو ألاّ تقع البلد فى فتنة أو حرب أهلية ، وأنه يرفض أن تدخل أسلحة الجيش فى صراعات مسلحة بسببه .

عجبى لهذا الرجل محمد نجيب ، يضع البلد على شفا حرب أهلية باستقالته ثم يعلن تراجعه عنها دون قيد أو شرط . قلت لنفسى ، كيف نترك له مسئولية قيادة البلد فى غيبة من الرقابة الشعبية ، إنه سوف يسلمها إلى رجال الأحزاب .

لكننى مع تدفق الضباط على القيادة العامة ، وازدياد الثورة فى سلاح الفرسان ، الذى ينتمى إليه صديقى الصاغ خالد محيى الدين أدركت حكمة الرجل الأبوية . هذه لحظة تاريخية تتصادم فيها إرادات مسلحة ، ونتيجتها دمار ودم .

جمال عبد الناصر قدم أيضا تنازلات ، لكنها تنازلات مؤجلة ومحسوبة بدقة خوفا من إراقة الدماء بسبب ثورة سلاح الفرسان .

كنت أنتقل من القيادة العامة إلى قيادة مؤقتة لبطاريات المدفعية التى

نصبناها حول سلاح الفرسان ، وفى كل لحظة يقترب موعد تصادمنا ، وقد أصبحت المعركة وشيكة ، بعد تبادل الإنذارات .

وقف عبد الحكيم عامر فوق مكتبه صائحا ، وقد أخرج مسدسه مهددا بالانتحار إذا هاجمت قوات المدفعية سلاح الفرسان ، ووقعت البلد فى حرب أهلية.

اللواء عبد الحكيم عامر هو المسئول الأول عن حالة الجيش بعد جمال عبد الناصر ، وقد أصبح عاجزا تماما عن السيطرة على القوات المتصارعة ، المؤيدة والمعارضة ، وأنا أعرفه رجلا مندفعا شديد الاعتداد بنفسه إلى درجة الزهو.

رأيت أخذه بالحيلة ، قلت :

– بعد إعلان مجلس قيادة الثورة عن حل نفسه ، وتسليم السلطة إلى اللواء محمد نجيب والصاغ خالد محيى الدين ، ليس من حق اعضاء مجلس قيادة الثورة التدخل .

أيدنى الواقفون ، وأخذنا فى دفع أعضاء مجلس قيادة الثورة إلى غرفة وحبسناهم فيها ، ووضعنا عليها حراسة .

خشيت أن يطلق عبد الحكيم عامر رصاصة على رأسه ، فيفسد خطتنا ، ففى لحظات الهجوم لا يجوز التردد لثانية واحدة ، ولا يجوز أيضا التوقف لإعادة الحسابات ، وعلينا أن نضع سلاح الفرسان فى حالة الدفاع تمهيدا للتسليم .

كان الجو فى القيادة العامة قد تغير تماما ، وأصبح معاديا لخالد محيى الدين ، ووجهت إليه اتهامات بخيانة الثورة ، ونشر الأفكار الماركسية فى سلاح الفرسان وتخريب الثورة من الداخل .

التفت إلى الصاغ خالد محيى الدين ، ورمقنى بنظرة حادة ، وهو يحول

رأسه عنى ، لم ينطق بكلمة واحدة ، ولكن نظرته لى ، قالت كل شىء . فى كل لحظة تأتى وفود من الضباط وتهبط علينا كالجراد . وفود من تلك الفئة التى أطلق عليها مندوبو القيادة فى المصالح الحكومية . جاء ت تتعرف على الأنباء دفاعا عن مصالحها الخاصة ، وليس دفاعا عن حركة الجيش .

كلما حولت رأسى وتأملت الوجوه المحيطة بى ، طاردتنى نظرة الصاغ خالد محيى الدين ، تلك النظرة الخاطفة عندما التقت عينانا ، وكأن نظرته قد استقرت فى قاع عينى ، ، حقيقة هى نظرة صامتة ، لم تصحبها كلمات ، لكنها نظرة لها صرخة مدوية ، ماذا تفعلون ؟

علمت بإعادة القبض على اللواء محمد نجيب مرة ثانية بواسطة مجموعة من المقربين إلى جمال عبدالناصر ، والإفراج عنه مرة أخرى ، لكن أخطر ما وصل إلينا هو تدفق المظاهرات التى عمت الطرقات فى جميع المديريات للمطالبة بعودة محمد نجيب .

قلت لنفسى ، دخل الطرف غير المسلح فى المعركة بقوته ، هذا الطرف الذى نتمسح جميعنا فيه وندعى العمل من أجله والموت فى سبيله . الشعب . الطرف الغائب عن معركتنا . الطرف القابع فى العربات الخلفية للقطار . هذه ساعة حكماء السياسة ، وليست ساعة الاحتكام إلى السلاح .

ما فائدة تدمير سلاح الفرسان والقبض على ضباطه ؟

تعلقت عيناى بجمال عبدالناصر ، هو مفجر الثورة ، ومؤسس تنظيم الضباط الأحرار ، ومن واجبه الحفاظ على سلامة البلد ، هذه مسئوليته الشخصية .

جلست فى مقعد صامتا رفضت الأحاديث الجانبية والدخول فى مناقشات عقيمة لا جدوى منها ، فقد تحددت مسارات المعركة .

كان أكثر أعضاء مجلس قيادة الثورة تأثرا إلى درجة البكاء صلاح سالم وعبد اللطيف البغدادى ، وكنت أرقبهما من بعيد فى صمت ، فأنا دمعتى عزيزة جدا ، ولا تفر من عينى ولا تنزل ، كما أن صوتى لا يتهدج ، وتظل تقاطيع وجهى جامدة ، ولهذا يتهمنى رفاقى بالبرود . قال لى كمال الدين رفعت غاضبا :

– يا برودة قلبك يا عباس .

كان مهموما ، سريع الحركة على الرغم من سمنته ، وامتلاء جسده ، لا يستقر فى موضعه ، ينتقل من طابق إلى طابق ، ويرد على تليفونات ، ويصدر أوامر .

تقبلت نقده لى بهدوء ، لم أعبس أو ابتسم ، تقاطيعى جامدة كما هى ، أحسها وكأننى أرى وجهى فى المرآة . فهذه قسمات وجهى ، قسمات لاعب الورق المحترف .

فى تلك اللحظات اكتشفت أننى مقامر بطبعى .

اللواء محمد نجيب

(٣٣)

تعرضت اليوم لعدة اعتداءات من ضباط صغار فى عمر أولادى مما أصابنى بمرارة شديدة طوال اليوم ، لهذا عندما حضر إلىّ شمس بدران ، وكان مقربا من اللواء عبد الحكيم عامر ، ليبلغنى أن مجلس قيادة الثورة قرر رفض استقالتى وعودتى رئيسا للجمهورية ، لم أكترث لكلامه ، فكفانى ما حل بى اليوم من إهانات .

لم أصدق كلمة واحدة من كلامه ، حتى اتصل بى اللواء عبد الحكيم عامر من مجلس قيادة الثورة وقال لى :

– أعد مجلس قيادة الثورة البيان التالى : حفاظا على وحدة الأمة ، يعلن مجلس قيادة الثورة عودة اللواء أركان حرب محمد نجيب رئيسا للجمهورية وقد وافق سيادته على ذلك .

قرأ علىّ البيان قبل إذاعته ، ولم يزل هذا القرار المرارة التى ملأت قلبى بسبب الاعتداءات المتكررة علىّ منذ صباح اليوم ، ولم أشأ أن يمر ما حدث لى بسهولة ، فطلبت من عبد الحكيم عامر أن يحاكم أولئك الضباط .

رأيت من المناسب أن يصدر منى بيان للناس ، قلت له :

– أكتب يا عبد الحكيم . حرصا منى على حفظ كيان الأمة فى هذه الظروف الحاضرة وبناء على دعوة مجلس قيادة الثورة ، قبلت رئاسة الجمهورية البرلمانية .

وظل ما فى القلب فى القلب .

عودتى إلى رئاسة الجمهورية، هل هى نهاية المطاف، أم بداية صراع جديد؟

فى فجر اليوم ، السبت ٢٧ فبراير ، استيقظت على صوت نقر على شباك غرفة نومى ، فطلبت من الطارق أن يحضر من الباب الأمامى .

كانوا ثمانية ضباط شبان من سلاح الفرسان على رأسهم الصاغ خالد محيى الدين ، وانتحى بى خالد محيى الدين جانبا ، وقال لى : «إن مجلس قيادة الثورة قد قرر عودتى كرئيس للجمهورية ، وقرر أيضا إسناد رئاسة الوزارة إليه»

وأضاف خالد محيى الدين قائلا : «هذه هى فرصتنا للعمل على تحقيق الديمقراطية واستقرار الأحوال.» .

لكننى أردت أن أعرف سر هذا التحول ، وما يدور فى الجيش منذ الإعلان عن استقالتى ، وإصدار البيانات التى تسىء إلى سمعتى وتشوه صورتى عند الناس ، فاخبرنى فى ايجاز ، قال :

– عبر الضباط عن رأيهم ورفضهم للاستقالة ، وحضر جمال عبدالناصر اجتماعا عاصفا فى سلاح الفرسان ، ووجهت فيه انتقادات حادة لبعض تصرفات اعضاء مجلس قيادة الثورة واتهامهم بالديكتاتورية والرشوة وتجاوزات اخلاقية ، وأصروا على ضرورة عودة الديمقراطية ، فاقترح جمال عبدالناصر عودتك إلى رئاسة الجمهورية وتعيينى رئيسا للوزراء .

تخوفت من هذا العرض ، ورأيت فيه خديعة ، وعبرت عن شكوكى لخالد محيى الدين ، وكنت قد تعرفت عليه عن قرب فى رحلة لنا إلى أسوان ، لكنه

طمأننى قائلا :

– سوف يذاع بيان بعودتى وبشروطى فى الساعة السابعة مساء .

سألته عن سر هذا التحول فى موقف جمال عبدالناصر ، وأنا أعرفه عنيدا متمسكا بالسلطة . قال لى .

– الثورة تعم أسلحة الجيش منذ الإعلان عن الاستقالة ، وموقف مجلس قيادة الثورة أضحى ضعيفا للغاية .

كان مدير مكتبى اليوزباشى محمد رياض قد نجح فى تسريب رسالة إلىّ على الرغم من الحراسة الشديدة التى فرضت على فجأة بعد تقديمى الاستقالة ، مفادها أن هناك ثورة فى أسلحة الجيش ، وأن البلد هائجة .

استراح قلبى لحديث خالد محيى الدين ، ورأيت أن أؤكد له موقفى الثابت دائما . قلت :

– اسمع يا خالد . تقطع رقبتى ولا تقع البلد فى حرب أهلية بسببى .

قال لى :

– حاضر ياسيادة الرئيس .

هذه هى مخاطر اشتغال الضباط بالسياسة ، وقد حذرت منها فى مجلس قيادة الثورة كثيرا ، هم شبان لا خبرة سياسية لهم ، والحماسة تعميهم عن تقدير العواقب تقديرا سليما .

استرحت كثيرا لحديث خالد محيى الدين إلىّ ، فى الصباح المبكر ، ودلفت إلى فراشى مرة ثانية ، وقد لاح لى بصيص من الأمل فى إنصلاح الحال وعودة الأمور إلى حالتها الطبيعية .

ما كدت أستغرق فى النوم ، حتى فوجئت بشخصين يقتحمان غرفة نومى ، دون استئذان .

لا أعرف كيف فتح لهما الباب ، وكيف تركهما الحرس يتسللان إلىّ ، إلى غرفة نوم رئيس الجمهورية على هذا النحو

كان اليوزباشى كمال رفعت وفى صحبته اليوزباشى داود عويس ، وطلبا منى فى وقاحة على الفور ارتداء ملابسى وصحبتهما إلى مكان رفضا الافصاح عنه .

اليوزباشى كمال رفعت رجل قوى البنية ومصارع سابق ، وقد أسند إليه جمال عبدالناصر مهمة تنشيط عمليات المقاومة فى مدن القنال ، واستربت فى حضوره على هذا النحو ، خاصة أننى لمحت احتقانا شديدا فى وجهه السمين ، واحمرارا فى عينيه ينذر بالخطر ، سألته فى هدوء :

– لماذا ؟

أجابنى كمال رفعت فى بجاحة ودون أن تطرف له عين :

– قرار مجلس قيادة الثورة ألغى .

هى محاولة إذن لخطفى والتخلص منى بعيدا عن الحرس وبعيدا عن أهل بيتى .

رأيت أن أطيل الحديث معهما ، قلت :

– لكن خالد محيى الدين أخبرنى ..

قاطعانى . لم يدعانى أكمل كلامى ، وزادا على ذلك رفضهما السماح لى بالاتصال بمجلس قيادة الثورة ، بل شهرا السلاح فى وجهى .

قلت لهما فى غضب .

– خسئتما . ترفعان السلاح فى وجه رئيس الجمهورية ؟

تذكرت فى تلك اللحظة موقفى من فاروق وكيف أصررت على وجوب توديعه

بطريقة رسمية ولحقت بسفينته المحروسة قبل إقلاعها بدقائق لأداء التحية العسكرية له . وكيف تدهورت الأحوال ، وضاعت التقاليد العسكرية من الجيش منذ ٢٣ يوليو ٥٢ وحتى هذه اللحظة على يد مجلس قيادة الثورة والمقربين إليهم من الضباط ، فرقى الصغار ترقيات استثنائية ، وطرد الأكفاء من الجيش ، وها هما اثنان من اليوزباشية يشهران السلاح فى وجه رئيس الجمهورية فى غرفة نومه .

كنت محاصرا ، أقف بينهما مرتديا منامتى ، ليس فى يدى سلاح ، وعائلتى نائمة ، وأدركت أن ضباط وجنود الحرس قد تم استبدالهم من وراء ظهرى ، مما سهل عليهما اقتحام غرفة نومى على هذا النحو .

وحيدا ، بين اثنين مسلحين ، رأيت أن أتعامل معهما بحكمة ، فالعملية عملية اختطاف عادية ، لإتخاذى رهينة ، لأنهما إذا كان ينويان قتلى لفعلا ذلك فى التو واللحظة ، سألتهما :

– هل ارتدى ملابسى المدنية أم العسكرية ؟

أجابنى داوود عويس فى لامبالاة ظاهرة :

– كما تشاء .

نظرت إليه فى استغراب ، كيف يفكر هذا الأحمق ؟ إذا كان ينوى اغتيالى غيلة ، أو خطفى ، ألا يعرف أن الزى العسكرى له هيبته وحرمته .

دخلت إلى غرفتى وارتديت ملابسى العسكرية ووضعت كافة النياشين التى حصلت عليها . قلت لنفسى ، إذا حدث لى حادث ومت ، لأمت فى ملابسى العسكرية كالشهداء ، ولن يغفر لهما التاريخ ، ولمن وراءهما هذه الخسة والخيانة .

تلكأت فى وضع ملابسى ، بينما اليوزباشى كمال رفعت ، يستعجلنى من حين إلى آخر ، قائلا :

- عجل يا سيادة الرئيس . ليس لدينا وقت .

فانهره ، وأطلب منه الصمت .

كنت أمل أن يحضر الصاغ خالد محيى الدين ليضع حدا لهذه المهزلة التى فاقت كل تصوراتى ، فها هما ضابطان صغيران يرفعان السلاح فى وجه رئيس الجمهورية وزعيم الثورة ، ويأخذانه إلى مكان مجهول .

طال انتظارى ، وفى النهاية غلبت على أمرى ، ولم أجد مفرا من الخروج إليهما ، بعد أن وضعت ملابسى العسكرية ، كنت أخشى أن يعتقدا أننى خائف منهما ، فيزيد ذلك من تهورهما ، وتعمدت أن أتلكأ أمام الحرس ، وأتوقف قليلا حتى يعرف أفراده أننى أوخذ عنوة ، لكن كمال رفعت أحاطنى بيديه ، ودفعنى بالقوة إلى عربة ، قبل أن أفتح فمى بكلمة واحدة .

كانت العربة تتجه إلى مبنى قيادة سلاح المدفعية بالماظة ، واسترحت قليلا، لأننى سوف أكون بين أولادى الضباط هناك ، فى القيادة ، لكنهما توجها بى إلى غرفة معزولة ، غرفة رطبة لا تدخلها الشمس ، وكان اليوم شديد البرودة ، وفرضا على حراسة شديدة .

طلبت منهما الجلوس فى الشمس ، رفضا . أدركت أننى رهينة ، وأن هناك خلافات واسعة فى أسلحة الجيش ، وأن الفريق المؤيد لجمال عبدالناصر قد أسرع باختطافى واخفائى فى هذا المكان المهجور ، كوسيلة للمساومة ، فإذا تفجرت الأمور ، اسرعوا بالتخلص منى ، وقتلونى ، لإنهاء الأمر .

جالت برأسى كل الاحتمالات ، كل الخواطر ، فى هذه الساعات منذ حضور الصاغ خالد محيى الدين إلى فى الفجر ، إلى حبسى فى هذه الغرفة الرطبة الكئيبة . وتراوحت خواطرى من اصلاح البلد وإعادة الديمقراطية وعودة الجيش إلى ثكناته ، إلى محاولة اغتيالى بواسطة رصاص هؤلاء المتهورين .

طالت جلستى ، ورأسى تدور ، لست خائفا من الموت ، فقد تعرضت إلى الموت كثيرا فى عدة معارك ، وعند الظهر ، فوجئت باليوزباشى حسن التهامى ومعه خمسة ضباط لا أعرفهم .

قال لى حسن التهامى بطريقة فجة وبدون مقدمات :

- اكتشفنا أن خالد محيى الدين ورفاقه الشيوعيين يدبرون انقلابا تحت إشرافك .

تأملت قوله وضحكت . شر البلية ما يضحك فى مثل هذه الظروف . قلت له فى لهجة من ينصح شخصا أصغر منه :

- اقترح عليك أن توجه لى تهمة الخيانة العظمى ثم تطلق الرصاص على .

أحس حسن التهامى بالسخرية فى كلامى ، وارتبك . قلت له بعدها موبخا، حتى يفيق إلى نفسه :

- تصرفاتكم معى تعد خروجا عن الالتزام بمبادىء الثورة .

تراجع على الفور ، قال :

- أنت ياسيادة الرئيس لست محل شك على الإطلاق .

أحسست أنه من العبث مواصلة الحديث إلى مثل هذا الرجل ، وكانت تصلنى عنه حكايات غريبة كنت لا أصدقها ، لكننى لم أتصوره ضيق الأفق إلى هذا الحد ، الذى يتهمنى فيه بتدبير انقلاب مع الشيوعيين ، وفجأة قال لى دون مقدمات :

- سوف نعود بك إلى منزلك .

قلت له غاضبا :

– إذا أردت قتلى ، فاقتلنى هنا . أنا لا أخاف الموت وقد عشت طوال حياتى شجاعا . وتأكد أننى سوف أموت شجاعا .

كانت السيارة تخترق بنا الصحراء بعيدا عن العمران ، وقد خرجت السيارة من باب خلفى يؤدى إلى الصحراء مباشرة .

كررت عليه قولى :

– إذا أردتم اغتيالى فأنا لا أخاف الموت .

قال لى فى توتر :

– ياسيادة الرئيس ، نحن نود الابتعاد عن المعسكرات ، وبعد دقائق سوف تكون حرا .

أدركت أن هناك ثورة فى الجيش للمطالبة بعودتى ، وأنهم يخشون من الاقتراب من المعسكرات لهذا السبب .

وفعلا عدت إلى منزلى ، وقد أخذتنى الحيرة .

ولهذا عندما حضر شمس بدران موفدا من عبدالحكيم عامر ، لم أصدقه فى البداية ، وانتظرت حتى خاطبنى عبدالحكيم عامر شخصيا وأمليته البيان الذى أود إذاعته على الناس .

قلت لنفسى : لن أعاملهم بالمثل . هذه ليست معركة شخصية بينى وبينهم ، لكنها من أجل الدفاع عن حرية هذا الشعب . ومعركتى القادمة هى الافراج عن كل المعتقلين وإعادة الأحزاب واجراء الإنتخابات على أساس حزبى .

لن أجر إلى مهاترات أو معارك جانبية مع جمال عبدالناصر ، فالشارع معى والجيش معى .

اللواء محمد نجيب

(٣٤)

الزعيم الملهم ربما يكون مقتله فى غلطة واحدة .

أنا أسير فى حقل ألغام ، والسؤال الذى يشغلنى فى هذه الساعات هو كيفية الحفاظ على علاقات وثيقة مع الشعب السودانى الشقيق ؟ هل أترك القاهرة فى هذه الظروف وأسافر إلى الخرطوم غدا لحضور افتتاح البرلمان ؟

مدير مكتبى اليوزباشى محمد رياض ، ينصحنى بعدم السفر ، ويطلب منى البقاء إلى جوار من طالبوا بعودتى ، وقاموا بالمظاهرات ، خشية أن يبطش بهم جمال عبدالناصر فى أثناء غيابى .

هو على حق، لكننى لا أقدر على التخلى عن واجبى نحو الشعب السودانى.

أسافر غدا إلى الخرطوم أم أبقى هنا فى القاهرة لمواجهة الأحداث ؟

فى طريقى من عابدين إلى قصر العينى لحضور المؤتمر المشترك كان يشغلنى هذا السؤال .

فور إذاعة بيان عودتى فى الإذاعة . أخذ يتدفق على بيتى مئات من

الضباط من كل الأسلحة ، ويضعون أنفسهم رهن أشارتى ، ويحذروننى من جمال عبدالناصر وزمرته .

كنت أؤكد لهم أننى قد عدت رئيسا لجمهورية برلمانية ، وسوف أتولى الوزارة أيضا وأعمل على الفور على الإفراج عن المعتقلين كافة وعودة الأحزاب وإجراء انتخابات عامة .

كنت أحذرهم من القيام بأية تصرفات طائشة ، وأعدهم بأننى سوف أتحدث غدا إلى الناس مباشرة .

توجهت إلى قصر عابدين صباح الأحد ٢٨ فبراير ، وتحدثت إلى الجماهير من شرفة قصر عابدين ، وأعربت الجماهير عن غضبها ، كنت أقول لهم هذه سحابة صيف ومرت ، فيهتفون ضد جمال عبدالناصر ، ويرفعون قمصانا ملوثة بالدماء .

حدث شىء من ورائى ، سألت ، عرفت أن أعضاء مجلس قيادة الثورة الذين أفقدتهم المظاهرات المؤيدة لى صوابهم ، حولوا مظاهرات الفرح إلى مأتم ، فقد أطلق رجال البوليس الحربى ورجال الأمن بقيادة البكباشى أحمد أنور ومساعديه النيران على المتظاهرين فى الملأن وفى كثافة شديدة بأوامر من مجلس قيادة الثورة .

أحسست بألم عظيم فى صدرى لهؤلاء الذين تعرضوا لإطلاق النار لا لسبب إلا لدفاعهم عن الديموقراطية .

قلت للناس من شرفة عابدين :

– سوف تحقق النيابة فى هذه الحوادث .

رفع الإخوان المسلمون عبدالقادر عودة المحامى على أكتافهم وهم يهتفون

بسقوط مجلس قيادة الثورة وعودة الضباط إلى ثكناتهم . كان الأخوان المسلمون يتزعمون المظاهرات منذ أن نجحت فى تسريب استقالتى .

طلبت من عبدالقادر عودة أن يصعد إلى الشرفة بجوارى . قلت للجماهير الهائجة مرة أخرى .

– أننى لم أقبل العودة إلى منصبى إلا لتحقيق الديموقراطية وسوف نشرع فى تشكيل الجمعية التأسيسية ووضع الدستور وإجراء الانتخابات والإفراج عن كافة المعتقلين .

كنت أتعمد إعلان هذه المطالب والتأكيد على تحقيقها قبل توجهى إلى المؤتمر المشترك بين اعضاء مجلس قيادة الثورة وبين أعضاء مجلس الوزراء .

دبت الحياة فى الشارع المصرى . خرجت الجماهير تطالب بعودة الجيش إلى ثكناته وحل مجلس قيادة الثورة . ميدان عابدين يغص بالناس والمظاهرات اشتعلت فى الأقاليم تطالب بعودتى .

كنت أدرك أن جمال عبدالناصر قد مد نفوذه إلى الجيش وسيطر على قادة الوحدات الذين يعينهم صديقه اللواء عبدالحكيم عامر وأن منصبى كرئيس للجمهورية فقط لا يعطينى السلطات التنفيذية اللازمة ، فقررت المطالبة برجوع جميع الأوضاع إلى سابق عهدها ، وإسناد رئاسة مجلس الوزراء لى إلى جانب رئاستى للجمهورية ومجلس قيادة الثورة .

طلبت من المستشار سليمان حافظ إعداد القرارات اللازمة ، وذلك حتى أضمن إجراء الانتخابات فى جو من الحرية ، بعد إلغاء الرقابة على الصحف والنشر .

رأيت أن تنفض المظاهرة ، خشية أن تندس وسطها عناصر من البوليس الحربى أو الأمن ، تعمل على تعكير الجو أو إطلاق الرصاص على الناس للإساءة إلى سمعتى .

همست إلى عبدالقادر عودة المحامى ، وطلبت منه دعوة الناس للعودة إلى أعمالهم ، وأن الهدوء هو سبيل نجاحنا لتحقيق أهدافنا . أشار إليهم بيديه ، بضرورة التوجه إلى أعمالهم ، فبدأت الجماهير المتراصة فى التفرق .

كان على ترأس أول مؤتمر مشترك يعقد بعد عودتى ظهر اليوم فى قاعة مجلس الوزراء بشارع قصر العينى . وأنا أحرص دائما على الحفاظ على مواعيدى ، ولا أود أن ادع الوزراء فى انتظارى ، حتى لا تثار الظنون ويدعون أننى تعمدت أن أخاطب الجماهير فى عابدين وأتركهم ينتظرون .

الجماهير تملأ الطرقات وتحيط بعربتى وتعطلها .

وكنت قد أعددت ورقة بمطالبى ووضعتها فى جيبى ، ضمنتها الخطوط العريضة لسياستى القادمة ، وقد أصبحت يقظا لكل ما يصدر عن جمال عبدالناصر وجمال سالم على وجه الخصوص .

جمال عبدالناصر يلجأ فى بعض الأحيان لتبنى مقترحات لا يؤمن بها بل ويسعى إلى تحقيق عكسها ، مثل افتعاله أزمة فى مجلس قيادة الثورة حول الديمقراطية والديكتاتورية منذ عامين ، ودفاعه عن الديمقراطية واعتكافه فى منزله ، بينما هو يعمل فى كل دقيقة لجمع كافة السلطات فى يده . التسلط من طبيعة جمال عبدالناصر . ومن مواقفه المريبة أيضا اعتراضه على اعدام خميس والبقرى فى المناقشات العامة فى مجلس قيادة الثورة ، بينما كان يتعجل تنفيذ الحكم فيهما فى حقيقة الأمر ، حتى يعد للتخلص من البكباشى عبدالمنعم أمين الذى بدأ ينافسه فى التقرب إلى الأمريكان .

الجماهير تكاد تحمل سيارتى ، بينما انزوى اعضاء مجلس قيادة الثورة ، الذين أرادوا تشويه سمعتى ، واتهامى بمحاولة الانفراد بالسلطة فى مكاتبهم ، وكادت الجماهير أن تفتك بصلاح سالم الذى عقد المؤتمرات لتشويه سمعتى ،

وحاصرته وهو فى طريقه إلى القيادة العامة ، أمس . وعلمت أنه بكى أمام رفاقه من الخزى ، وطلب اعفاءه من وزارة الإرشاد .

رأيت أمهات صغيرات السن تحملن أطفالهن وتهتفن باسمى ، لكننى لن أمن على أحد ، فكلهم أبنائى .

جمال عبدالناصر هو الذى دافع بشدة عن الإخوان المسلمين وطالب بعدم تطبيق قانون الأحزاب عليهم ، بدعوى أنهم جماعة دينية وليست حزبية ، ثم تنكر لهم وأمر باعتقالهم . ما موقفه منهم الآن بعد تزعمهم المظاهرات المؤيدة لى ؟

أمامه طريقان ، إجراء اتصالات بهم فى المعتقلات تمهيدا للإفراج عنهم أو تشديد القبضة عليهم والتنكيل بهم عقابا على هذه المظاهرات .

أكبر ضربة سياسية قمت بها فى الأيام الماضية هى تسريب صورة من استقالتى فور تقديمها إلى مجلس قيادة الثورة . لقد قلبت هذه الاستقالة الأوضاع رأسا على عقب . أثارت ضباط سلاح الفرسان . هيجت جماعة الإخوان المسلمين. أثارت الحياة فى أوصال حزب الوفد بعد أن ركن إلى الخنوع واستسلم إلى القبض على زعمائه . حركت الليبراليين دفاعا عن الحرية والديموقراطية . أعادت النشاط إلى اليساريين .

صدقت توقعات مدير مكتبى اليوزباشى محمد رياض ، عندما نصحنى بضرورة تسريب صورة من الاستقالة فور تقديمها إلى كمال الدين حسين سكرتير مجلس قيادة الثورة .

ينصحنى محمد رياض بعدم السفر ، بسبب مجريات الأمور هنا ؛ لأنه ليس من المعقول أن اتغيب عن القاهرة ، واترك الساحة لجمال عبدالناصر ليعيد ترتيبها على هواه .

قلت فى نفسى ، الحفاظ على علاقات متينة مع السودان ، وإزالة مخاوف السودانيين أهم لدى من الحفاظ على حياتى ، بل إننى سوف اصطحب معى

صلاح سالم غدا ، لأظهر للجميع أن المياه قد عادت إلى مجاريها .

جمال عبدالناصر يجيد إخفاء مشاعره ، ووجهه لا يفصح عما يدور فى رأسه ، وسوف أقول له إننى اعتبر سفرى إلى السودان مهمة قومية ، تفوق كل مهمة أخرى .

الجماهير الهادرة فى الطرقات لن تسمح بخداعها مرة ثانية .

زهيــة

(٣٥)

الطفل على صدرى ، وعيناى تتطلعان إلى الشرفة . الشرفة العالية . وفمى لا يكف : عاش محمد نجيب . الله أكبر ولله الحمد . صوتى عال . واقطع الكلام معهم . ولا أدق على الأرض برجلى ولا أحرك ذراعى .

ليت يداى كانتا حرتين لأشوح بهما عاليا ، بل وأتسلق أكتاف الرجال وأقود المظاهرة . لكننى أم بين يدى طفل يشدنى إلى الأرض لأقف معتدلة . ثابتة فى موضعى ، وإذا تحركت تحركت بحساب ويداى على الطفل . تحميانه من حركة الأيدى حولى .

زحام الناس يجعلنى أحس بالونس . حقيقة يا بنت : كثرة الناس عزوة .

عامان لم أر فيهما هذا الزحام . الناس لها رائحة ، لكن الأفندية أصحاب البنطلونات رائحتهم مختلفة عن رائحة الفلاحين أصحاب الجلاليب فى عزبة عويس.

أسفلت الميدان جامد وليست له حنية الأرض الزراعية .

هذه هى أرض عابدين التى عبرها الملك فاروق بسيارته الحمراء آلاف

المرات . وليست أرض عزبة عويس يابنت . أرض مثل أرض المعادى. وأرض
الأفنديات والباشوات غير مريحة فى السير أو الوقوف . لا تحن على الرجل

سرت مع الناس من محطة باب اللوق حتى وصلت . لا أعرف شوارع ولا
طرقا ، ووجدت نفسى تحت الشرفة . تفاءلت بهذه البلكونة الكبيرة ، لكننى وجدت
من حولى يطلقون عليها شرفة . قلت : شرفة . شرفة . لم أحس بوجع الحذاء إلا
بعد وقوفى . الأحذية خلقت للسير وليس للوقوف . أود أن أخلع حذائى ، لكننى
سرت وإذا انحنيت داستنى الأقدام .

قلبى يحدثنى : محمد نجيب سوف يطل علينا من هذه الشرفة .

تململ الطفل . التفت شمالا ويمينا وبسرعة فتحت البلوزة وأخرجت ثديى
والقمته الطفل الجائع ومددت الشال على صدرى .

قفلت فمى وصمت ووقفت مثل خيال المآتة حتى لا تهتز الحلمة فى فمه .
سرحت فى وقفتى .

سمعت من عم محمد الطباخ عن استقالة محمد نجيب ، طلعت إلى الباشا
فى مكتبه وسألته . قال :

– محمد نجيب استقال . والبلد هائجة يازهية . المظاهرات تملأ الشوارع.

فكرت . قلت :

– أود الخروج مع الناس يا معالى الباشا .

صمت . حول عينيه عنى ، هز رأسه . قال :

– على كيفك يازهية . لكننى أخشى عليك من الزحام .

هل يسمح لى بالخروج ؟ فاتنى قصده فى البداية ، وبعد برهة أدركت معنى
الكلام . انحبس صوتى من الفرحة . قلت :

– شكرا ياباشا .

استدرت وقبل أن أغيب فى الطرقة الطويلة وأنزل الدرج ، نادى على .

قال :

– الحالة فى البلد خطرة يازهية . أنا سوف أتوجه للنادى على الأقدام بعد
قليل إذا تعبت . اتصلى بالتليفون وأطلبى السائق .

غمرنى الكسوف وسخن جلد وجهى . أحمر . قلت :

– العفو يا باشا .

انسحبت . أوليته ظهرى وأنا أحس بنظراته تدخل فى ظهرى لتخرج من
صدرى . قال :

– زهية . خدى رقم التليفون معك .

قلت :

– حاضر يا باشا .

نزلت السلم . سمعت صوته وهو يطل علىّ . رفعت رأسى . قلت :

– حاضر يا باشا .

لُهفتُ ابنى من العربة ، وطلعت إلى غرفتى . وضعت علىّ ملابس ثقيلة .
بلوزة مفتوحة على الصدر لها زراير . وفوقها جاكت ثقيل . ولففت رقبتى بشال
صوف . رفعت شعرى فى كعكة على عجل وربطته . نظرت إلى المرآة وجدت نفسى
فى هيئة جادة زيادة على اللزوم . وضعت بودرة خفيفة على خدى ورائحة أحمر
على شفتى . تجملت مثلما تتجمل آن الفرنسية . مصيبتى هى «الجزم» كل «الجزم»
تؤلمنى . أنا فلاحة وتعودت السير حافية . وشوارعهم جامدة . لبست جزمة من غير
كعب . قلت : أنت طويلة زى النخلة يا بنت . أنا طولى يعمل اثنين من آن . أنا

أطول من الدكتورة أوديت . وإذا احتاجوا شيئا عاليا نادوا علي، اتناوله لهم . لا ينافسني في الطول إلا معالي الباشا وعم محمد الطباخ .

أعددت حقيبة واسعة ملأتها باحتياجات الطفل . ترمس به ينسون بالسكر، وببرونة نظيفة . ملابس داخلية . قطعة قطن كبيرة . ووضعت محمد نجيب في ملاءة ولفحته على ظهري ، وربطتها من قدام .

أحسست بأنني في كنف رجل لما التصق بظهري . ورقد ساكنا . فرح بنزهته الصباحية التي حرم منها في الأسابيع الماضية . كان وديعا لم يعاكسني .

زاد هياج الناس . زادت دقات الأرجل على الأرض . هتافات ودقات متلاحقة . محمد نجيب . محمد نجيب . توقف قلبي . توقف اللبن في صدري . رفعت رأسي . رأيته . خطفت «بزي» من فم الطفل .ألقيته داخل البلوزة . تركته رجراجا بعيدا عن مشد الصدر . أدرت رأس ابني . قلت : انظر . اللواء محمد نجيب .

هز ابني رأسه وضحك .

أشار رجل وقور إلى الناس بيديه طالبا الصمت . سكت الناس . قال شيئا. شغلني الطفل عنه . تحدث اللواء محمد نجيب . اتطلع إليه . حبيبي . طلعته سرقتني عن كلامه . هو أبي وأمي وعزوتي . أنا لا يهمني إلا بقاء اللواء محمد نجيب . إذا ذهب كما ذهب الملك فاروق ، عادت الأميرة شويكار إلى جبروتها القديم وعاد اللواء عويس لضرب الناس بالكرابيج .

سألت من حولي عن الرجل الوقور الواقف إلى جوار اللواء محمد نجيب . قالوا الأستاذ عبدالقادر عودة المحامي . حفظت الاسم . صمت . لم أسأل ابعد من ذلك ، حتى لا أفضح نفسي . كل من حولي يعرفونه . بإشارة من يده يسكت الناس . في أطراف يديه مفاتيح حلوق الخلق . وبإشارة خفيفة من رأسه تنطلق

الهتافات كالرعد . الله أكبر ولله الحمد . عاش محمد نجيب . من أركان بعيدة هتافات أخرى عن الدستور . أنا تكفيني بسمة محمد نجيب . وأحب هتاف لقلبي : عاش نجيب .

تراجع اللواء محمد نجيب داخل البلكونة . ومسح عبدالقادر عودة المحامي الميدان بيديه . قال : كفى . بدأت الصفوف في التباعد . تخلخلت . اتسعت دائرة الفراغ حولي . غابت الهتافات ، حلت محلها ضجة الرحيل والنداءات على الأصحاب . ضجة الأقدام وهي تبتعد متفرقة لها حفيف ووشوشة تختلف عن زحمة التلاقي .

سوق الخميس في عزبة عويس يبدأ في التشطيب قرب الظهر . لكنه لا ينفض إلا بعد العصر ، أما الأفنديات هنا فهم في عجلة من أمرهم . تضايقت . أقلقني أن النهاية جاء ت فاترة ولا تتناسب مع حماس الناس . كنت اعتقد أننا سنظل نهتف حتى يدخل الليل علينا . قلت : انتهى الفيلم يابنت . فقت لنفسي . وضعت «بزي» في مشد الصدر . واستدرت كما استدار الخلق .

كنت أحس بالأمان وسط الناس ـ أما وقد بدأت حلقات الناس في الذوبان، خفت . وتطلعت حولي . رأيت يساري مباني عسكرية عليها أعلام . على يميني بيوت متوسطة الحال . عبرت متجهة إلى البيوت .

جونلتي ضيقة ولا تتعدى الركبة . لا تساعدني على الجلوس على الرصيف . بحثت عن سبيل أو مقهى أو دار مفتوحة .

عليّ تدبير رحلة عودتي وحدي . اشتقت لأبل ريقي بشيء . أن أرضع طفلي . أن انفرد بنفسي قبل عودتي إلى قصر السيد أحمد باشا . بعض النقود في «عبي» . وبعض النقود في كيس لن أعطش ، والقاهرة واسعة وأم الدنيا .

أمامى سنجة ترام . فرجت . هذا شارع الترام ، ولابد أن على جانبيه محالا مثل شارع الهرم . رأيت مقهى عليه يافطة مكتوبة بخط كبير . وقفت . دققت النظر أفك الحروف . كما علمنى عم محمد الطباخ . وقفت . على الناحية الثانية . ال ب ر ا ب ر ة . قهوة البرابرة . ع ا ب د ى ن . قهوة البرابرة عابدين . ضحكت . هؤلاء هم أقارب عم محمد الطباخ . عبرت الطريق بسرعة . السيارات مثل نجوم السماء . دخلت على مائدة خالية فى الركن جلست .

خلعت حذائى . أجلست ابنى على ركبتى . هذه أيام أخرى يا زهية . تتطلب منك فك الحروف وإلا ابتلعتك المدينة وضعت . كلهم برابرة . صدق ظنى . استرحت .

عباس أبو حميدة يشتغل بالسياسة . مخه كبير . والدكتورة أوديت تشتغل بالسياسة . لها يومان متغيبة .. أعد لها الطعام ولا تأتى . لا أعرف هل تذهب إلى عيادتها أم لا ا ا ا فى القصر لا يعلق على مجيئها أو غيابها أحد .

يرفضون التعليق . وعلى أن أصمت مثلهم . لكننى قلقة . البكباشى جمال عبدالناصر كان ضيفا على الباشا وقد أعددت له الطعام بنفسى . هل أغضبت الباشا . بخروجى اليوم فى المظاهرات ؟

هذه مشاكل عويصة يا بنت !!!

الباشا قلبه يتعلق يا بنى . يلاعبه . يناغشه . ينزل له . يسألنى عن رضاعته . ونظراته لى هى نظرات الرجل الى «الست» وأنا لست عيلة أو غبية . لكننى مجربة . و «منصابة» . ما بنيته فى عامين أصبح على وشك الانهيار . ماذا ينتظرنى ؟ هل أفرط مرة أخرى ؟

الست فى حاجة إلى رجل يسندها . يأخذها فى حضنه فى الليل . لكن نهاية العشق «بهدلة» . أنت مجربة .

إذا تمنعت تمنع البنات ، نالنى غضبه ، وإذا فرطت طردت طردة الكلاب . لا أود باشا ولا قصرا . أود رجلا من سنى ومن ثوبى . أعيش معه تحت سقف واحد مثل بقية البنات .

جاء الجرسون . سألنى قلت :

- شاى لى وينسون للطفل .

نظر لى من فوق إلى تحت . عيون رجال البندر تندب فيها رصاصة . عيون جريئة ، خالية من الحياء . تسقط على الواحدة نظراتهم فتعريها . شغلته عنى . قلت :

- أين الحمام ؟

قلت الحمام ولم أسأله عن «الكنيف» أو «محل الأدب» ضحك لى . غمز بعينه الملعون . قال :

- بعد دقيقة واحدة .

لم أفهم قصده ، لكننى صبرت فى القصر ليست عندى دقيقة واحدة لأفكر فى حالى . يشغلوننى بطلباتهم من صباحية النهار ، يحدثونى بلغتهم وليس على لسانى إلا كلمة حاضر .

فى جلستى هنا وسط الرجال ، أنا زهية ، عاملة الترحيلة التى تخرج مع الرجالة لعزق الأرض أو تنقية الدودة . أغنى . أتقصع . أتمايل . اتدلل فى ملابسى الخشنة الطويلة . إذا نمت وضعت حجرا تحت رأسى ، وإذا أسعدنى زمانى فى يومى وجدت لقمة ناشفة وبصلة وقطعة جبنة قريش وعود جرجير وطوال الأسبوع أدخر الملاليم لأرُم جسدى يوم الخميس بقطعة «ملوحة» أما يوم الجمعة فاتسول لنفسى قطعة لحمة بالدمعة من الخدمة فى البيوت .

أنا الآن دادة فى قصر الباشا . كائن آخر . غريب . لسانى أعوج . ملابسى تغيرت . بطنى امتلأت . نومتى مريحة . لكننى وحدانية . يؤرقنى شىء اسمه الحنين . الجوع دفعنى فى السابق إلى محاولة اقتحام قصر اللواء عويس فى العزبة للخدمة . لكن زبيدة شمورجى كالفة الملعونة اختبرتنى . فعصت فى جسدى وقصت لى شعرى وعرتنى ، وبعدها طردتنى من القصر .

الحنين هنا فوق البطن وتحت الصدر . أحسه يثقل على ، وليس فى قدرتى نسيانه أو التخلص منه .

نقلت الطفل على ركبة واحدة لأهزه . فى عبى نقود . جنيهات صحيحة وفكة . وفى انتظارى فى المعادى عربة سوداء وسائق تحت أمرى . وقبل أن ترتسم على شفتى بسمة ، صاح الجرسون :

– الحمام فاضى يا ست .

أشار إلى زاوية فى مواجهة النصبة . نحيت أفكارى . لمت حوائجى . تقدمت وسط الموائد والطفل على يدى . وضعت عينى فى وسط رأسى . سرت . أصوات الرجال حولى ودقات حجارة الطاولة لا تخيفنى . عشت وسطهم . أقضى حاجتى خلف «خص» وأصواتهم تصلنى ، أو وأنا قابعة فى ناحية خفت عنها الرجل . الخوف الذى تصطنعه البنات من الرجال لا أعرفه ، لكن هذه القاهرة واسعة ، وكل شىء فيها جائز ، نظراتهم هنا جريئة ، واضحة . سرت . فى بالى أن أقول لهم ، إننى لم أطلب الحمام لنفسى ، فأنا فى مقدورى الانتظار ، لكن لطفلى .

شطفته . جففته . «الكنيف» حوافه نظيفة . أفك نفسى من «زنقة» ومشكلتى ابنى . وضعته فى ركن واسندته إلى الحائط بصفيحة قمامة فارغة وحقيبتى .

قضيت حاجتى وعيناى عليه . خرجت . العيون تنظر إلى . تتضاحك .

قضيت حاجة «زنقة ميه» ، ما فيها . الحيوان الأعجم يقضى حاجة ، فما بالنا بالبنى آدم الذى فضله الله سبحانه وتعالى على الحيوان . توجهت إلى الجرسون مباشرة وسط المقهى ، وحاسبته . أعطيته بقشيشا . ودعنى إلى الباب . قال :

– مع السلامة ياست . شكرا .

الغربة مرض . والمرض ضربنى فوق البطن وتحت الصدر . ولا يعرف مصيبة المرض إلا المريض أما السليم فتسرقه السكينة . نسيت أننى زهية . وأجلت مسألة رجوعى إلى المعادى . أتفرج على المحلات المفتوحة . أتسكع . روحى ردت لرؤية الناس .

اشتريت حوائج صغيرة لابنى ولى . حوائج رخيصة لا تتوفر فى محلات المعادى الغالية .

أتفرج . لم أكن خائفة هذا الصباح من كرامة ، أو من رؤية أحد لى من العزبة . قلت سوف أتجاهله أو أصده عنى بأدب ، مدعية عدم المعرفة .

أمى التى ولدتنى وحملتنى فى بطنها ، إذا خرجت من قبرها لن تعرفنى فى هيئتى الجديدة .

أكلت الكشرى الحريف بالعدس وحرشت معدتى بالدّقة والشطة وأنا واقفة على الأرصفة . ضاع الخوف من قلبى . أنست إلى الشوارع . جلست على القهاوى وحاسبت جرسونات . منحت كرامات . عطفت على متسولين . سمعت نشرات . بيانات عن عودة محمد نجيب . تخلصت من وحدتى ، غربتى ، ورميتها ورائى . رأيت محل حلويات شامية . دخلت بقلب جامد . طلبت بسبوسة وكنافة . وأضفتهما إلى بقية الأكياس التى أحملها وتثقل ذراعى . الطفل على ظهرى . أشرت إلى «تاكسى» ودخلت . قلت : محطة باب اللوق يا أسطى من فضلك . قلتها فى لهجة بنات البندر . بنات القاهرة ، ومدغمة بنبرة ريفية لم تخف على السائق أو علىّ .

انشغلت بالطفل لأدارى خوفى . تركت نفسى للسائق العجوز يدور بى فى مسارات مختلفة ويلف بى فى طرقات لم أمر بها . تحليت بالصبر . وفى أقل من خمس دقائق ، وجدت محطة باب اللوق أمامى . تنفست . أعطيته جنيها وطلبت «الفكة» .

ناولنى عدة أرباع جنيهات ، وضعتها فى كيسى ، كان همى مغادرة التاكسى ، وانشغلت بجمع أكياسى ، وحملت الطفل ونزلت .

صعدت الدرجات ، تبينت كثرة الأكياس فى يدى . اشتقت إلى «قفة» كبيرة ، أرمى فيها الحاجة وأضعها على رأسى ، كما كنت أضع «البسطلة» على رأسى وهى مليئة لتمة عينها ، وأسير معتدلة ، تقدمت من الشباك وقطعت تذكرة درجة أولى للمعادى ، خوفا من الزحام ومن النشالين .

عم محمد الطباخ ، لا يركب القطار إلا درجة أولى أيضا .

نسيت تعبى كله . رحلتى فى رأسى . لن أمل من حكايتها مائة مرة .

فى محطة المعادى أخذت حنطورا إلى القصر . الدادات الثلاث مع عم محمد والجناينى والسائق فى انتظارى . فور عبورى الجنينة رأيت من يصعد إلى جناح الباشا . دخلت . طل الباشا من على السلم . قال :

- ماذا جرى يازهية .

قدم نازلا علينا .

تخلصت من أحمالى . تناولت الدادة منى الطفل . تناول منى عم محمد الطباخ الكنافة والبسبوسة . وضعها فى أطباق على المائدة . وأحضر الشوك والسكاكين .

قال الباشا :

- حلاوة عودة محمد نجيب يا زهية !!

قلت :

- نعم يا باشا .

أعد له عم محمد طبقا صغيرا ، فيه قطعتان وشوكة ، وقبل أن يلمسها ، قال :

- حلويات الشامية . فى شارع فؤاد .

قلت :

- بالصحة يا باشا .

تسللت إلى المطبخ ، ووضعت المريلة . بدأت الخدمة . وقد أذن المغرب . لكن الباشا أخذ يلاحقنى بالأسئلة . يستفسر عن مظاهرة عابدين . قلت : اللواء محمد نجيب وعبدالقادر عودة المحامى تحدثا إلى الناس . قالا كلاما كثيرا . سألنى عن خط سيرى فى المدينة . قلت : جلست فى قهوة البرابرة فى عابدين . ورأيت أقارب عم محمد . كان يسألنى ويروى لى أسماء الطرق التى قطعتها . سكتى واضحة أمامه . يتابعنى : من هنا إلى هنا أيه . أقول مقهى . يقول لى : مقهى ركس .

ينظر إلى الأكياس ويسألنى ، أدركت أنه يقرأ العناوين . يبتسمون . يضحكون من جهلى . قلت : بعد انتهاء المظاهرة تفرق الناس . ولّما سرت فى المدينة ، لم تكن هناك مظاهرات أو هتافات .

طلب الباشا فتح الراديو . جاء ت أغنية شعبية . طلب منى عم محمد أن أرقص . حزمت وسطى بالفوطة وانطلقت . رقصت كما لم أرقص من قبل .

كان الباشا يراقبنى ويصفق . الفرح بان على وجهه . وبينما أرقص - دخلت الدكتورة أوديت . قلدتنى فى الرقص وهى واقفة . قالت : الله يجازى

شيطانك يابنت . فرحتى من قلبى . خفت منها . انسحبت إلى المطبخ . أعد عم محمد قطعة بسبوسة لها .

قال الباشا : فرحة عودة اللواء محمد نجيب .

تحدثنا سويا .

انسحب الخدم والحاشية ، كل إلى موقعه ، وكنت أرقب الجميع من وقفتى فى المطبخ ، فأنا أضع نفسى تحت الإشارة ، وإذا حضرت الدكتورة أوديت التفت إلى طلباتها .

عباس أبو حميدة

(٣٦)

- دُنيا أُوىْ لا مِنْ جَا .

ماذا تعنى هذه الجملة وما المقصود بها ؟ أفسدت الست أم الرفيق جاسر علىّ مهمتى بثرثرتها . قالتها . فتركنى الرفيق عبده منهيا الزيارة وقال لى : تعالَ غدا يا رفيق .

من سجن مصر حتى وسط البلد لم أصادف نوبيا واحدا من معارفى كى اسأله عن معناها : دُنيا أُوىْ لاَ مِنْ جَا . ولا أود التوجه إلى قهوة البرابرة فى عابدين . هناك أصدقاء لى من النوبة ، فى مقدورهم شرح معناها لى ، لكننى لا أود الظهور علانية فى ذلك المقهى فى هذه المرحلة .

لا أعتقد أن هذه الجملة تحمل رسالة ما ، فالمرأة ليست من المشتغلات بالسياسة ولم يكن فى نيتها إفساد مهمتى ، لكنها قالتها عفوا .

رأيت نوبيا قادما . وقفت قبالته ، وقلت : دُنيا أُوىْ لا من جَا . ضحك . قال لى : صدقت . واعادها كما هى على مسامعى .

أيقنت أنها جملة عادية من تلك الجمل الشائعة التى تجرى على ألسنة النوبيين . وزاد عتابى على الرفيق عبده الذى تركنى فجأة ، منهيا الزيارة ، على هذا النحو الغريب ، مفضلا العودة إلى الرفاق عن الحديث إلى .

وحتى أريح دماغى من هذه المسألة ، قلت لنفسى ، ربما تعنى هذه الجملة : افتح ياسمسم . ولكن من المرجح عندى الآن . أنه قد وقع انقسام بين الرفاق المحبوسين ، وقد آثر الرفيق عبده تأجيل لقائنا حتى تتضح الصورة . وليس من المنتظر أن تتوحد الكلمة فى ظل الانقسام الكبير الذى وقع بين جمال عبدالناصر ومحمد نجيب . وقد أراد الرفيق عبده إعفائى من هذه الخلافات ، وتأجيل اللقاء بى إلى الغد ، متذرعا بهذا القول الغريب : افتح يا سمسم أو خلافه .

مقلب من مقالب الرفيق عبده الساخنة ، وضحكت من محنتى ، لأننا عندما سقطنا فى كمين - الرفيق عبده وأنا - وكنا هاربين ، زعم أنه أستاذ أفريقى فى زيارة للقاهرة ، وينزل فى فندق سميراميس وأخذ يتحدث بالفرنسية التى هى فرنسية جرسونات النوبة ، بينما تقمصت أنا شخصية أستاذ فى جامعة فؤاد ، وتخلصنا من هذا الكمين بمعجزة ، لكنه قبض عليه بعدها بيومين ، وكان يسير بمفرده فى المدينة .

فى ميدان باب اللوق ، التقيت باليوزباشى أنور عرفة مرتديا الملابس المدنية ، حائرا ، يسعى لمعرفة الأسباب التى أدت إلى خروج الناس فى مظاهرات على هذا النحو تأييدا للواء محمد نجيب . قال :

- سيطر الإخوان المسلمون على الشارع .

قلت :

- هم حلفاء النظام . ألم تقل لى إن الإخوان رغم تنظيماتهم السرية

المسلحة أقرب دائما إلى القلب من الشيوعيين الملاحدة .

قال :

- هل هذا هو وقت الانتقام ؟

قلت :

- لا انتقام ولا عتاب .

سألنى :

- وماذا بعد ؟!

قلت له ، إننى تعبت من الدوران على المحبوسين والمواصلات مقطوعة . ضع سيارة بسائقها لتحركاتى . تأمل قولى برهة ، ثم قال : لا بأس . قلت له : ليست لى اتصالات مع المعتقلين فى الفيوم أو المنيا أو أسيوط .

قال لى معاتبا :

- يارفيق عباس أبو حميدة . أنت ركنت إلى المعيشة السهلة . النهار والليل فى قهوة الضباط فى المنيرة .

قلت :

- ها أنت ترانى من هواة الجلوس على المقاهى وليس لى فى السياسة .

قال :

- الرئيس جمال عبدالناصر يود منكم الدفاع عن قانون الاصلاح الزراعى ومكاسب العمال والتصدى لرجال الأحزاب . لقد هزت المظاهرات أعضاء مجلس قيادة الثورة ، وأصبح اللواء محمد نجيب أكثر شراسة بعد رجوعه ، ويود إعادة النظر فى كل المراسيم التى أصدرتها الثورة .

قلت :

- ما أغربها سياسة ، اعتقالات ، وبعدها تطالبوننا بالتأييد . افرجوا عنا لندافع عن قانون الإصلاح الزراعى الذى هو يقل كثيرا عن مطالبنا ، وتبتزوننا به كلما وقعت أزمة .

أسر لى قائلا :

- النية متجهة للإفراج عن معظم المعتقلين اليساريين .

لم أصدقه . كل الشواهد تدل على أن ضربة جديدة تعد لنا تضم الكتاب والفنانين والمستقلين أيضا ، وفى الوقت الذى سوف يتم فيه الإفراج عن الإخوان المسلمين .

كرر دعوته لى للقاء فى مكتب العمال فى هيئة التحرير ، لكننى رفضت دعوته ، متعللا بأن قبولى هذه الدعوة سوف يؤخر ولن يقدم ، فانا ليست لى اتصالات بالعمال والنقابات ، وتحركاتى كلها بين المثقفين ، على الرغم من كونى مزارعا بسيطا .

قال :

- الطبقة العاملة تلحق بها أخطار إذا عاد رجال الأحزاب إلى الحكم .

قاطعته قائلا :

- أنتم الذين أعدمتم اثنين من العمال ظلما ، وراوغتم فى السماح بإنشاء اتحاد عام النقابات .

قال :

- هذه كانت سياسة البكباشى عبد المنعم أمين صاحب التوجهات الأمريكية وقد تخلص منه الرئيس جمال عبدالناصر .

لمست من حواره أن عيون مكتب العمال فى هيئة التحرير قد تحولت إلى الطبقة العاملة فى محاولة مكشوفة لاستدراجها فى الصراع الدائر على السلطة .

قلت :

- أرجو عدم الزج بالطبقة العاملة فى صراعات على السلطة ، هذه الطبقة دورها قادم فى التنمية وفى مقاومة الاحتلال ، وهى الطبقة التى تتحمل التضحيات، وكفى هذه الطبقة تجاوزات البكباشى عبدالمنعم أمين واليوزباشى عبدالعظيم شحاته .

داورنى طويلا . ذكر لى أسماء رؤساء نقابات عمالية ، لكننى راوغته ونفيت له معرفتى بهم .

* * *

لم يضف حوارى العابر مع اليوزباشى أنور عرفة جديدا ، بعد أن تبين لنا بوضوح أن غرض البكباشى جمال عبدالناصر من وراء هذه الاتصالات هو الحصول على دعم منا فى معركته ضد محمد نجيب . وما يشغلنا الآن هو ترتيب أوضاعنا للنزول تحت الأرض فى اللحظة المناسبة ، وقد أخذت الرفيقة أوديت على عاتقها تجهيز عدة مخابىء جديدة تحسبا لضربة قادمة ، بعد أن تركزت القيادة فى مجموعة «عين الصيرة» إلى حين الإفراج عن أعضاء اللجنة المركزية .

اليوم على إخطار الرفيقة أوديت بما دار بينى وبين اليوزباشى أنور عرفة ، ومعرفة سر هذه الجملة الغامضة التى أفسدت على يومى : دنيا أو لا من جا .

حمادة أبو جبل

(٣٧)

رفض عمران ، وهو ابن العزبة شراء وابور مياه جديد بدلا من وابور اللواء عويس الذى أحرقته الأميرة شويكار ، فلما يئست منه ، عرضت عليه شراء الوابور مشاركة بيننا ، لكنه لم يتزحزح عن موقفه ، وأثار ريبتى .

هذا رجل يجرى وراء النقود ، ما الذى يمنعه من شراء الوابور وهذا مشروع مكاسبه مضمونة ؟

عزمت على «دحلبته» لمعرفة سريرته . لم أظهر له غضبا أو راحة لكلامه ، لكننى تركت الموضوع بيننا معلقا ، ولكل حديث مناسبة ، ودعوته فى دارى ليلا «للسهراية» بعيدا عن دار العمودية ورنين تليفونها .

أعدت «ستهم» لنا العشاء وقدمته لنا بيدها . ورحبت به ترحيبا كبيرا ، وأبعدتُ موضوع الوابور حتى نفرغ من عشائنا عن عمد ، وتحدثنا فى أمور البلد والملعونة السياسة .

فتح الحاج عمران قلبه لى ، قال :

– ياخوفى من اللواء محمد نجيب وعودته .

تخليت عن الحذر – فالحديث بيننا – وقلت غير مصدق :

– هذا رجل طيب ، لا يهش ولا ينش .

قال لى قولة العارف الواثق :

– عودة اللواء محمد نجيب فى ركابها عودة الباشوات والأمراء واللواء عويس و الأميرة شويكار وها هو اللواء عويس يستعد لدخول الانتخابات .

طرقعت أذنى حتى طالتا . حبست اللقمة فى حلقى حتى لا تشغلنى .

قلت مستفسرا :

– كيف يا رجل ؟!

أجابنى حزينا على نعمة لم تكتمل :

– اللواء محمد نجيب يطالب بالديموقراطية والدستور وحرية الأحزاب . هذه المطالب لا تعنى إلا عودة اللواء عويس والأميرة شويكار ، اسألنى أنا ، خذ عندك ، عويضة أبو حسنين ، وقد اسود جلده من الوقوف فى الطل ، وهزل جسده هزال المسلول ، ماذا يهمه من الدستور وعودة الأحزاب ؟ إذا عاد الباشا أخذ أرضه بالتراضى أو بالقوة المسلحة .

ثم خفض عمران من صوته . قال :

– توزيع الأراضى على الفلاحين يتنافى مع الدستور . قضية فى مجلس الدولة وكل شىء يرجع إلى حاله ، الباشا باشا ، والمعدم معدم .

تعجبت من فصاحة عمران ، فهذه أمور لم تطف ببالى من قبل . معه حق . يخاف على نقوده ، ولا يود معاداة الباشا على وابور المياه . قال :

– أنا مقاول . أسلك أمورى مع المسئولين . ضابط مثل اليوزباشى شهدى

الششتاوى يرضيه شراء اثنين كيلو لحمة بالتسعيرة . يقول لى : أنت من عزبة المانجو . أرسل له قفصا ويحاسبنى عليه ، ويضحى سعيدا ، لا يقبل رشوة . هذه خدمات . أما الباشا الذى يمتلك مزارع المانجو وزرايب الماشية ، ماذا ينتظر منى أنا المقاول الصغير ؟

بعدها ، أمسك بقصاصة من شعره ، قال :

– وعد منى ، إذا استمرت الثورة ، ادفع ثمن الوابور نقدا واترك لك تسييره ، أما إذا فاز محمد نجيب باللقمة ، صفيت أعمالى وهاجرت إلى ليبيا أو السعودية .

قلت متأسيا :

– البرسيم ذبل ولا ينتظر ، هه . شاركنى سرا على الوابور .

قال لى خائفا :

– هذه مسألة حياة أو موت . الأميرة شويكار توحشت . أصبحت كالغولة. سد على منافذ الكلام ، فصمت على مضض . تركته يمزق فرد الحمام المحشوة باللوز والجوز فردة وراء فردة ، وبعدها قال :

– أنا لست متأكدا تماما من قوة اللواء محمد نجيب على الرغم من المظاهرات التى هزت البلد . وعودته الحالية صورية . وجمال عبد الناصر الذى شال الملك فى ثلاثة أيام لن يصعب عليه زحزحته فى عدة أسابيع .

ومد يده إلى فردة أخرى ، ومزقها ، وقال :

– تحت أمرك يا حضرة العمدة ، النقود فى السيالة ، والسر بيننا .

تركته يتمتع باللقمة على مهل وجلست أجاريه فى تناول الطعام على الرغم

من أننى ليست لى طاقة على العشاء الدسم ليلا . هو يمزق ويمضغ ويبلع وأنا إلى جواره أمصمص . كلما انتهيت من جناح أو ورك ، يكون المعلم عمران قد التهم واحدة ، يمزقها فتختفى فى حنكه ، فيتناول غيرها .

ومسح يده ، وجذب طرف كمه ، ونظر إلى ساعته ، قال :

– حلت ساعة الرحيل يا حضرة العمدة . هذه ليلة الجمعة .

تغاضيت عن قوله ، فالرجل مطلق ، ولم أعرف من المقصود منا ، فصمتُ . قال :

– « فركة » كعب حتى شارع الهرم . أقضى نزوة بطالة . والحسنات تجبر السيئات . والليلة صنعت ثوابا بشراء الوابور .

قلت :

– الحمام لا يقتل سمه إلا الشاى . نشرب دورا واحدا ونتوكل إلى شأنك .

صفقتُ . ظهرت « ستهم » وخلفها البنت . وفى أقل من دقيقة رفعت الصوانى وبقايا الطعام . قلت :

- الشاى .

قالت :

– جاهز .

تناولنا دورا من الشاى . أخرج عمران عشرين ورقة حمراء من فئة المائة جنيه . وضعها أمامى ، قال :

– ثمن الوابور والنقل والتركيب . عندى ميكانيكى محترم . يداه من ذهب وعقله جوهره . أرسل معه عدة مزارعين للمشال فى الصباح ، ولا تشغل نفسك

بعدها . قبل الظهر تتدفق المياه بإذن الله .

قلت :

- تكلفة الوابور تقل عن ألفين .

قال :

- الفلوس فى بيتها ، ولنا حساب فيما بعد .

من كلامه ، أدركت أنه يود شراء الوابور بمفرده ولا يحب المشاركة عليه ، وأرباحه مضمونة . على راحته ، فقد أعفانى من بيع قيراط . وبينما أقلب الكلام فى رأسى ، قال :

- هذه ليلة الجمعة ياحضرة العمدة .

وضعت الفلوس فى سيالتى ، وسألته :

- متى تتأهل ثانية وتترك هذه النزوات ؟

قال مبتئسا :

- فور خلاصى من مصيبة فهيمة . طلقتها ولا تتركنى لحالي . تركتها بالمعروف وفقا للشرع ، لكنها تلاحقنى بالتلغرافات الملعونة .

قلت :

- والحل ؟

قال :

- زواجها من رجل آخر أو قتلها .

قلت :

- أترك لى مسألة زواجها أما قتلها فلا .

قال :

- ياريت . النقود موجودة . والعريس موجود . فقط تلين رأسها الملعونة .

كنت أعرف أن الميكانيكى الغريب عن العزبة يحوم حولها ، لكنها تتدلل عليه ، فقلت :

- نزوجها إلى الميكانيكى ، ونخلص .

قال :

- يا ريت .

ونظر فى ساعته مرة أخرى ، وهب واقفا وكأنه على موعد عاجل ، وقال :

- لن يعلم أحد باتفاقنا .

قلت وأنا أودعه :

- السر فى بير .

ستهم

(٣٨)

طال حديثهما . ووقفت مستعدة لخروج عمران . نامت ابنتنا وغطيتها ، وقفلت عليها الباب ، ودفعت البنت الصغيرة التى تساعدنى للنوم فى غرفة الفرن الدافئة .

اخليت له الطريق من النفس ، ولما قال عمران :

– هذه ليلة الجمعة يا عمدة .

ضحكت فى سرى .

خرج عمران من هنا ، واندفعت حمامة إلى المضيفة لألحق بزوجى ، وأنا خائفة أن يتسلل منى إلى دار العمودية ، فهذه أيام قلاقل . وقفت أمامه أسد عليه الطريق .

قلت :

– طبتُ يا عمدة . انظر .

عريت له ركبتى وفوق الركبة . لم أقل حساسية . ولم أشر إلى حكاية

الجرب التى كان يذلنى بها . نيتى خالصة فى كسب وده . لا أود توبيخه ولا أسعى إلى عتابه .

رفعت الجلابية فوق الركبة ، وقلت : الباقى عليه . أخذ ركبتى بين يده ، ولمسها ،. وضع يده الأخرى عليها .

لم أخبره أننى زرت طبيب النساء مع فلاحتين من وراء ظهره ، وأجرى لى عملية «كحت» وأخبرنى أنه لا موانع من الحمل لدى . طلبت منه زيارة طبيب الأمراض الجلدية للاستشارة ، ومتابعة مرض الحساسية ، وقد تحسنت حالتى ، فأذن لى بالذهاب بمفردى هذه المرة مع امرأة من العزبة . صحبت معى فلاحتين ، ودخلت إلى طبيب أمراض النساء ، وأخفيت عنهما سرى . ولما خرجت لهما «مفشوخة» بعد نصف ساعة ، صرختا ، قالتا : سقطتى . زجرتهما . قلت : كوى لى جسمى بالكهرباء من فوق إلى تحت .

دفعنى فى رفق للاستدارة . استدرت ورفعت جلابيتى إلى أعلى . ملس على ركبتى ، وصعد بيده إلى وركى ، قال .

– طبتِ يا بنت الناس .

سألنى :

– البنت نامت ؟

قلت :

– من زمن .

أخذنى تحته . قلت : هذه المرة ولد . ابعدت عنى متاعب العزبة . قلت : هذه اللحظة بالدنيا يابنت . بلا نجيب بلا جمال .

أدركت من مسكته لى أن «حمادة أبو جبل» قد فاق لنفسه ، وأصبح زوجى

بعد غيبة طويلة . شرق وغرب ثم عاد إلى حلاله .

منحته بقدر ما أقدر .

ضاع العقل من رأسى . غنجت كبنت البنوت . أخفيت وجهى بالشال من كسوفى . رفع الشال عنى . ضحك . عيناه ، وأسنانه مضيئة . قلت :

- ولد .

قال :

- إنت عندى بالدنيا يا «ستهم» .

نسيت حكاية الولد ، والتفت إلى مرضاته ، وأعطيته .

حمادة أبو جبل

(٣٩)

شاع خبر شراء وابور المياه لمواجهة السدة الشتوية ، وتدفق المزارعون على دار العمودية . قلت : الوابور سوف يدق قبل الظهر . وخرجت وطلبت من خيال المآتة «عويضة أبو حسنين» أن يأتى معى ويمسح زوره بلقمة .

لكنه لم يتزحزح عن وقفته . قال :

- أشرب «شفطة» شاى .

قلت :

- نطقت ياعويضة وأسمعتنا صوتك . غال وطلب رخيص .

دفعه المزارعون إلى المندرة دفعا . صفقت . جاء ت الصينية . عليها طبق قشدة وطبق زبدة وطبق جبنة وحق عسل نحل كبير وقُفّة كاملة مليئة بالعيش الساخن . قلت :

- كُلْ لقمة يا عويضة .

امتلأت المندرة الخارجية ودار العمودية والصالة والرحبة بالمزارعين . ووقف

بينهم الأسطى الميكانيكى وقد عاين الأرض . طلب منى اختيار خمسة رجال أشداء لتحميل الوابور على عربة النقل . قال عويضة أبو حسنين :

– أروح . والوبوار أشيله على كتفى من البلد لغاية العزبة .

قلت مدعيا الغضب :

– على الطلاق لأبعث معهم بأم حبيبة وأنت تجلس هنا كالحرمة الدائخة ياعرة الرجال . . الرجل يسند طوله بلقمة فى الصبح ، وإلا جنابك أضربت عن الطعام .

الرجل مفاصله سائبة . وأطرق برأسه . قلت :

– اجلس ياعويضة .

خفت عليه من الموت فى صبحية دق الوابور . سعيت لأخذه بالحيلة .

قلت :

– اشرب الشاى يا عويضة .

وزدت له فيه السكر .

دلق الرجل كوب الشاى الساخن فى حلقه دفعة واحدة ، فحرق جوفه وصرخ . ضحك المزارعون . ارتعشت يداه . طلبت من الغفير لفه بالحرام ، وسألت أم حبيبة أن تطعمه لقمة بالذوق أو بالعافية .

أخذته المرأة السمينة تحت إبطها . أجلسته . وأحاطته بذراعها تدفئة ولفت حوله الحرام حتى رقبته . غمست لقمة فى حق العسل وزقتها فى فمه زقا . قالت :

– كل يا عويضة يا زينة الرجال .

وفجأة ضربت المرأة على صدرها ورقعت بالصوت ولطمت خديها . قالت :

– يا عكاشة الحقنى ، تلطمت من بعدك .

تذكرت المرأة زوجهاالشهيد عكاشة الذى مات فى الاسماعيلية بعد أن فجر أورطة أنجليز قبل حركة الجيش . ذكرتنا به . فأفسدت فرحتنا بالوابور . قلت لها:

– الشهداء لهم الجنة يا أم حبيبة .

قالت :

– يابقية الحبايب يا عويضة .

ضمته إليها . وبيدها السمينة المربربة وضعت لقمة أخرى فى فمه . والرجل بين يديها كالفرخة يتململ . قال فلاح أجير :

– تطعمنى أم حبيبة بيدها وأنا أخلص على السماط .

هجت فيه . لم ينقصنا فى هذه الساعة إلا هذه السخافات . قلت :

– هنا مجلس رجال . أخرج بره يا ولد .

خرج مدلدلا رأسه كالكلب . استرحت لمفارقته لنا . ليس له فى الثور أو فى الطحين . أجير من الأجراء . كان هذا الأجير يحلو له فى السابق معايرة «عويضة أبو حسنين» بما جرى ليلة شى اللواء عويس البغبغان فى حضرة الملك فاروق ، وهتافه المستمر : عاش الملك فاروق . وأحسست براحه لخروجه .

تناول عويضة أبو حسنين لقمة ثانية وثالثة ورابعة من يد أم حبيبة ثم توقف عن الطعام . حرن كما يحرن الحمار الحصاوى .

قال :

– «شفطة» شاى .

قالت أم حبيبة :

– على عينى .

بعدها سأل عويضة أبو حسنين ، قال :

– وترجع الخضرة يا رجالة ؟

قلت مخففا عليه :

– وحشة البرسيم تصح يا عويضة .

قال :

– يا ريت ياحضرة العمدة .

ومال برأسه إلى كتف أم حبيبة وتهاوى بجسده كله عليها ، واسندته المرأة الربعة ومنعته من السقوط . قالت :

– جسده عاوز سوائل . برطمان ليمون بالسكر .

أصبحت أخشى موته فى دار العمودية ، والود ودى أن يلاقى ربه على فرشته فى داره ، إذا كان أجله قد حل . الموت له حرمة .

البكباشى جمال عبدالناصر بدأ يمسك بأمور البلد ، وضعاف الناس فى عهده لهم قيمة .

غدا تكتب الجرائد . انتحر عويضة أبو حسنين بسبب حرق الأميرة شويكار لوابور المياه فى عزبة عويس . أضرب عن الطعام حتى الموت . غابت الخضرة عن عينيه ففضل الموت .

يستدعينى ملازم أول حسن طلعت ، ويلحقنى سين وجيم . يسألنى : الإقطاع تحرك وأنت نائم فى العسل .

حقيقة تركته واقفا فى الطل ستة أيام كخيال المآتة ، لكن البلد كانت وقتها

فى أزمة . على شفا حرب أهلية . لا لزوم لهذه الجملة الأخيرة . وانشغلت بأمور الأمن فى العزبة . هكذا يكون ردى على الملازم حسن طلعت .

ها هو السماط أمامه يكفى قبيلة . هذا قدره . جاءه عزرائيل فى الساعة الخطأ .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . قلت :

– بره .

خرج الرجال والنساء وطلبت من أم حبيبة وأحد الأفندية البقاء مع عويضة.

جلس المزارعون والنساء فى صفوف أمام دار العمودية. قلت :

– خمسة رجال أشداء لصحبة الأوسطى.

جاءت «جماعة» عويضة أبو حسنين ومن خلفها رهط من الصبيان والبنات . دققت فى الرجال وضربت على صدرها . قالت :

– أين عويضة ؟!

أشار لها الرجال إلى دار العمودية . قلت : جاك الموت يا تارك الصلاة ، وقعتك طين يا عويضة. وتسللت خلفها . ضربت المرأة على صدرها وصرخت صراخا عاليا وهى تقول :

– ملعوب جديد يا عويضة.

أكملت :

– فضحتنا بوقفتك عريان تحت الطل .وعلى الصبح واقف تتمسح فى أم حبيبة وتتلمظ مثل الكلب السعران .

ابتعدت عنه أم حبيبة . قالت :

- عزم عليه حضرة العمدة بلقمة .

قالت وغضبها يزداد :

- اخرسى أنت .

قصرت أم حبيبة الشر . قالت :

- حاضر .

استمرت المرأة فى هياجها المجنون . قالت :

- كنا عمال زراعة . لقمتنا هنية . مالنا ومال الأرض . من يمتلك الأرض يطين بطينها . عقلك خف يا عويضة وقلبك مال للنسوان .

تركتها حتى أفرغت شحنة غضبها . وبعدها . قلت :

- اذهب يا عويضة الى الدار . ساعتين راحة . وتعال بعد صلاة الظهر .

سحبته المرأة فى يدها . وسار معها .

حضرت الست فهيمة مطلقة الحاج عمران ، ناديت عليها . قلت :

- ادخلى المكتب ياست فهيمة .

قالت :

- حاضر .

رآها الميكانيكى فأصفر وجهه، قلت لنفسى : هه. قطعنا نصف الطريق الى هذه الزيجة .

اخترت خمسة رجال أقوياء وواحدا من الأعيان المتعلمين ، وأمام الجميع سلمته النقود، وطلبت منه عدها ورقة ورقة .

قلت :

- على بركة الله .

وذهبوا .

الست فهيمة واقفة كما تركتها وإلى جوارها أم حبيبة . طلبت لهما الشاى، فصب الغفير الشاى وقدمه إلى أم حبيبة بأدب، ولما جاء الدور على فهيمة، ترفع الملعون عن صب الشاى لها . نهرته . قلت :

- صب الشاى بأدب للست فهيمة .

كدت أردفها بكلمة «القحبة». لكننى أمسكت لسانى . قلت لهما :

- الوفاق عاد إلى البلد بعودة اللواء محمد نجيب . وسوف تعود الخضرة إلى الأرض وتصح حشة البرسيم . الود ودى أن نزف عرايس العزبة الليلة مع زفة الوابور .

وتوقفت عن الحديث عن عمد . طلبت من الغفير أن ينادى على جزار البر الشرقى. جزار الأكابر . نذرت عجل وكبشين . يلطخ دمهم عتبة الوابور قبل سحب أول كوز مياه. ويفرق لحمهم على الجميع .

خرج الغفير مسرعا .

أكملت بصوت منخفض . قلت :

- تكمل الفرحة بدخول عروسة بنت بنوت ، أجهزها على حسابى .

رفعت أم حبيب رأسها ضاحكة ونكست فهيمة رأسها .

توقفت عن الحديث . دعوتها إلى دخول الدار لمعاونة «ستهم» فى إعداد الأوانى وشئون الفرن والطبيخ .

قبل أن تغيب أم حبيبة ، صرخت :

– من يقول الموال غيرك الليلة يا عكاشة .

قطعت قلبى . قلت مطيبا خاطرها :

– الشهداء لا يموتون .

قالت الست فهيمة وهى تخفض رأسها :

– أنا تحت أمرك يا حضرة العمدة . أفعل بى ما تشاء . أنا ليس لى غيرك .

أسرعت وارتمت على قدمى تبوسها .

قلت :

– لا أود مشاغبات ، ولا تلغرافات .

قالت :

– أنا خادمتك ياحضرة العمدة .

رفعتها . نظرت فى عينيها ، قلت :

– الأسطى الميكانيكى .

بدت اللهفة فى عينيها ، لكنها صمتت. أحنت رأسها ، شخطت فيها :

– هه .

قالت على عجل :

– أنا تحت الأمر .

طلبت من أم حبيبة أن تزغرد زغرودة طويلة . فزغردت .

فهيمة

(٤٠)

يافرحتى .

يدفن حضرة العمدة منديل بكارتى تحت الوابور الليلة . فتكون فضيحة عمران بجلاجل ، أسطى كامل الرجولة ، يسترنى . تعبت من شد التلغرافات الى الحكومة والثورة دون فائدة . هذه دنيا غدارة ، وفى لحظة كاد محمد نجيب أن يضيع وهو لواء . فما قيمة فهيمة التى يعيرونها بالقحبة ولا يوجد فى العزبة ولا فى البر كله أقحب من رجلهم عمران . عار يا مصر . اذا كان رجل هيئة التحرير فى عزبة عويس ناقص الرجولة .

من أخيب الرجال يزوجنى حضرة العمدة ، لكنه اختار لى بدرا .

سقطت دمعتى على خدى .

مسحتها وأنا خائفة من الحسد. انقبض قلبى ولم أحس بالخالة «ستهم» وهى تقول لى :

– مبروك يا فهيمة .

زغدتنى فى ظهرى . قالت :

– يا «مرة» بلاش «مياصة» بنات .

قلت :

– والنبى أنا بنت بنوت وجسدى طاهر .

حضنتنى . باستنى . قالت :

– مبروك يا حبيبتى . حضرة العمدة كلمته واحدة ، والجهاز عليه .

قلت :

– أنا خائفة .

وبكيت وبكيت حتى رشتنى بالماء وأغرقتنى .

قالت أم حبيبة :

– تبكى من الفرحة .

طلبت الخالة «ستهم» الداية لتحنى رجلى ويدى وتغسل لى شعرى وتحمينى بالريحة .

دمعتى على خدى وأنا لا أصدق أن دخلتى الليلة .

حمادة أبو جبل

(٤١)

دق وابور المياه وتدفقت المياه، وبنى البناءون غرفة حوله يزيد اتساعها عن غرفة وابور مياه اللواء عويس المحروق . تدفقت المياه، وجرت فى الحقول ووقف المزارعون حول الوابور حتى ذبح العجل والكبشان.. وقطعهم الجزار قطعا صغيرة ووضعها على مائدة كبيرة فى أكوام، وكل كوم عليه اسم درب من دروب العزبة .

عروستان تقرر دخلتهما الليلة، فهيمة إلى الميكانيكى وفاطمة إلى مزارع أجير، غير أن المأذون رفض الاعتراف بعذرية فهيمة ، وقال إنها مطلقة وقد أكملت عدتها وزواجها جائز كثيب وليس كعذراء، وكاد أن يثير ازمة، ويفسد علينا الفرحة، أخذت فهيمة على جانب، قلت لها مبصرا :

– ثيب. ثيب . باست فهيمة .

وطلبت منها الستر . وأنه لايجوز تحريم ما حلله الله ونبيه . فزواج المطلقة حلال . وما فات من الحاج عمران مات . وتنازلت فهيمة عن فريتها التى ليس فى مقدورها اقامة الدليل عليها، وقد بقت فى عصمة الحاج عمران عامين. بسرعة ادهشتنى.

وفجأة ظهر عبد الواحد افندى سكرتير اللواء عويس ، وحوم حول الوابور وهو يسأل متخابثا :

- من دق وابور المياه يا أولاد ؟

أشاح عنه المزارعون بوجوههم ، وصار يسير وحيدا. وكلما سعى للاقتراب من جماعة واقفة أو جالسة تفر منه ويتسلل افرادها واحدا واحدا بعيدا عنه ، حتى صار أضحوكة بينهم ، وهو يجرى وراء الفلاحين والنسوة، طالبا منهم الكلام ، وأخيرا نطق عبد الواحد افندى فى غيظ ، قال :

- من يدق وابور مياه فى عزبة عويس، الباشا يقطع رقبته .

رفعت العصا، وقلت له محذرا :

- هذا وابور هيئة التحرير . بأمر الرئيس جمال عبد الناصر . ومن يتعرض له يذبح كالفرخة ويدفن تحته .

صفق المزارعون وانسحب عبد الواحد افندى خائفا على رقبته ، وقد لمح الشر فى عيونهم ، وسمع منهم بأذنه صب اللعنات على الأميرة شويكار رفقى وسلسالها من الآب إلى جدالجد، فامتقع وجهه ، وتدلى لسانه، وقد كف عن فحص الوجوه فى شهوة ملعونة . قال المزارعون بعضهم لبعض : هذا جاسوس الأميرة شويكار وملعوب جديد .

فاز حقل أم حبيبة بالرية الأولى. وبعدها حصلت المياه حقل «عويضة أبو حسنين» ، والنفر من الرجال يقف منتظرا أن تلحق المياه غيطه قبل العشية أما النساء فقد شغلتهن أمور الطبيخ، وتزيين البنات ابتهاجا بفرحة زفاف فهيمة وفاطمة. وكل بنت لها عدلها ، وهذه فرصة للسهر ليلا ، ومشاهدة الراقصات بعد

أن خيم الحزن على العزبة طويلا .

فى آخر الليل . اقبل عمران على ثائرا ، قال :

- ألم تجد فى العزبة يا حضرة العمدة بكرية لتلوث بدم بكارتها الوابور إلا فهيمة القحبة مطلقتى. كيف أقابل الرجال بعد هذه الفضيحة ؟ هذا ملعوب يا حضرة العمدة ، وفهيمة عندما تزوجتها على سنة الله ورسوله لم تكن بكرا، وقد سترتها، وحفظت سرها ، وهى الآن لا تحفظ لى الجميل، وتسعى إلى فضيحتى .

قلت مهدئا من ثورته :

- دعنا من أمور الحواديت ، هذا عقد زواجها. فيه البيانات المضبوطة. وهل تعتقد يا حاج عمران اننى اشغل نفسى بأمور الخزعبلات ؟ لقد وقفت معهم حتى دار الوابور وتدفقت المياه فى الجرف الرئيسى، وفى دار العمودية هنا عقدنا قران فاطمة بنت ولد الحاج السيد الأعمى ، وفهيمة لأخلصك منها ، وقد طلبت منى أمس ، أن أزوجها لواحد من صبيانك ، وقد أقنعتها بعد عناد .

قال عمران وعروقه نافرة :

- وحكاية المنديل الملوث بالدم .

نحيت وجهى عنه ، قلت :

- اتركنا من هذه الخرافات ياحاج بارك الله فيك .

كان من الواضح لى من لهجته أن نيته قد تغيرت من ناحيتى، ولكن بعد أن وقعت الفأس فى الرأس، وها هو الوابور يدور رافعا المياه من الأرض ، ومن يقترب منه سوف يقطع المزارعون محاشمه قبل رقبته ، وغيرت الحديث ، سألته :

– هل ترى محاسبة الفلاحين مثلما كان يحاسبهم اللواء عويس .

فكر قليلا ثم قال لى :

– نعم . لا أكثر ولا أقل .

قلت له :

– بارك الله فيك .

وبعدها سألته :

– هل تترك لنا الميكانيكى لتشغيل الوابور .

أجابنى غاضبا ، وكرشه يهتز :

– خذوه . لا أود رؤيته مرة أخرى .

سألت :

– والحسابات ؟

قال :

– لدى كاتب سوف أفرغه ليلا للحسابات ومراقبة مصاريف التشغيل والحصول على الكمبيالات من الفلاحين مقدما عن الرية .

وبعدها قال لى :

– اعلن ياحضرة العمدة على العزبة أننى صاحب الوابور وفكرته .

قلت له مخفيا ضيقى :

– على الرحب والسعة . النقود نقودك والوابور يخصك .

وكان الحاج شعبان قد همس فى أذنى أن الميكانيكى طلب فاتورة باسم

الحاج عمران عند شراء الوابور ، وقال لهم :

– هذه نقود الحاج عمران .

فاستمعت إليه وصمت، وبعدها قلت له وأنا أشيح بوجهى عنه :

– الحاج عمران ابن عزبتنا . رجل صالح .

فلم يفهم الحاج شعبان شيئا من ردى عليه ، وكف عن السؤال ، فما يهم العزبة ، رفع المياه وتدفقها فى الجرف الكبير . وظل على عماه راضيا بقسمته، فهذه حسابات الكبار فيما بيننا وبين بعض ، ولا يجوز التدخل فيها ، لكن الفلاحين آذانهم طويلة وعيونهم مفتوحة ، وألسنتهم تلوك الأسرار فى الحلوق ، ويتكشفون الحقائق من كثرة «اللت والعجن» والتخمين. واتخذت جانب الصمت لا أنفى أو أؤكد ما أدركه المزارعون بشأن الوابور ، وقلت لنفسى: العمدة دائما على الحياد . وهذا الوابور فيه خير كثير للمزارعين ووراءه مصائب لـ آل عويس باشا . وربما تدور الأيام دورتها .

قدمت له الفواتير واوضحت له أجور المشال وثمن البنزين والجاز ووضعت أمامه باقى النقود . ألقى عليها نظرة سريعة ثم وضعها فى سيالته .

سألته :

– كيف الحال فى القاهرة هذه الأيام ؟!

قال لى قولة العارف :

– بعد أن كادت الهزيمة تلحق بالبكباشى جمال عبد الناصر وزمرته ، رتب أوراقه وأمسك بزمام الحكم ويستعد للانتقام من رجال العهد السابق .

لايهمنى سوى مصير آل عويس باشا، سألته :

– كيف ؟

أجابنى فى إيجاز وهو يبخل على بالكلام ، وكنت أظن أننى قد اكتسبت وده وصداقته إلى الأبد بتزويج فهيمة وتخليصه منها ، ولكن الطير لايسلو خليله ، وربما يحقد على لهذا السبب ذاته . وقد حذرتنى «ستهم» قائلة لى : ارفع يدك ياحضرة العمدة من هذه «الجوازة» لكننى لم اتبع نصيحتها . قالت لى : ما أقحب من فهيمة إلا عمران .

يخفى عنى أشياء كثيرة، وسألته بطريقة مباشرة ، قلت :

– هل التقيت باليوزباشى شهدى الششتاوى ؟!

اهتز فى جلسته ، وتنحنح، ودقق فى الباب المقفول علينا وقال :

– نعم . طلبنى فى مكتبه . حدثنى عن العزبة وأحوالها .

وعاد إلى صمته وأغلق فمه بالضبة والمفتاح . هاهى الأيام قد دارت وأصبح صاحبنا من الحكام ، وربما فى الحول القادم أتلقى أوامرى منه ، وكل وقت وله آذان .

قلت له ساخطا :

– والله كبرت علينا يا عمران .

قال لى :

– غدا سوف تسمع ياحضرة العمدة .

ماذا اسمع ؟!

قلت له مدعيا الضحك :

– دبرنى يا وزير ؟!

انفرجت أساريره قليلا ، قال :

– وعدنى اليوزباشى شهدى الششتاوى بمشروع صرف كبير ينفذه الخواجات فور أن تستقر الأمور فى البلد .

قلت له مشجعا على الكلام :

– خير أن شاء الله .

لم أقل له «مبروك» عن قصد ، حتى لايخاف الحسد ، أو يظن أننى أحقد عليه ، وكنت أود أن يطلعنى عن جهة هذا المشروع، فمشروعات الصرف لايقع ضحيتها سوى صغار المزارعين الذين تؤخذ أراضيهم بتراب الفلوس . لكنه غرق فى صمته ، ونسى الملعون ، أننى عمدة عزبة عويس .

وفجأة سألنى عن كرامة ابن سرحان السقا ، وقال لى :

– هذا الشاب أمامه مستقبل .

قال لى بعدها :

– سوف أعتمد عليه فى المشروع الجديد .

قلت له متسائلا :

– هذه تعليمات اليوزباشى شهدى الششتاوى ؟!

قال لى غاضبا :

– كيف عرفت ؟ حقيقة حدثنى فى شأنه اليوزباشى شهدى الششتاوى ، ولكن كيف عرفت ؟ قلت له مخففا الأمر :

– كل طريق فى آخره شيخ يا عمران. حكمة قالها أجدادنا ولا أنت أصبحت من أبناء البندر .

فتح لى قلبه ، قال :

– سوف أتزوج. وهذه المرة من البندر .

قلت له :

– على بركة الله .

كنت أود تحذيره من نساء البندر، ويكفيه ما جرى له بسبب فهيمة ، لكننى أحجمت . قلت :

– الاستقرار واجب .

وأدرك بفطنته أنه ليس لدى ما أضيفه فى مسألة زواجه أو ما أعاتبه عليه ، فقام ...

من بين حديثه لى – الذى اعتبرته من قبيل فض المجالس – لم يشغلنى بعد قيامه ، سوى توطيد علاقته باليوزباشى شهدى الششتاوى من وراء ظهرى ومن وراء ظهر الحكومة التى يمثلها ملازم أول حسن طلعت ، أما مسألة مشروع الصرف الصحى ، فلم تشغلنى كثيرا ، فقد شبعنا من هذا الكلام ، ويوم الحكومة بمائة سنة .

وقلت لنفسى : صناديق المانجو ، وهبر اللحمة بالتسعيرة قد أتت مفعولها .

وناديت على الغفير ، وطلبت منه استدعاء جزار البر الشرقى ، وجناينى حدائق اللواء عويس باشا لأدبر حالى معهما كما يفعل عمران .

أما ما استغربته من حديث الحاج لى فهو مايتعلق بكرامة ولد سرحان السقا ، فهذا الولد لايتطلع إلا إلى العلالى ، ترك صبايا العزبة وتعلق قلبه بالأميرة جويدان ، حتى علقه والدها الى شجرة الجميز ، وجلده مائة جلدة ، ولكن ذيل الكلب لاينعدل ابدا ، وساعدها فى تهريب مجوهراتها من المصادرة، وها هو اليو زباشى شهدى الششتاوى ينفق عليه ، والعياذ من نق رجال الانقلاب ، إنهم لايعرفون إلا البطش والاعدامات .

وقلت لنفسى : ياعمدة . ضع هذا الولد فى عينيك ، فهو لن تأتى من ورائه إلا المصائب .

كانت أصوات الغناء و الزمر ودق الرق تصلنى ، وكلما تقدم الليل زاد هياج الفلاحين واقبالهم على النقوط.. وسرد سلسال العائلات والمفاخرة بالأشياء الصغيرة ، وأشفقت على الميكانيكى الذى يود الانفراد بزوجته فهيمة وطوال اليوم يتابعها بالنظرات المفضوحة واللهفة الظاهرة ، حتى صار أضحوكة بين النسوة والصبايا وهن يتغامزن عليه وهو يشغل وابور المياه ، هو محجوز بين الرجال وهى قابعة وسط النساء بعيدا عنه وراء حواجز .

ولم أندم لإرسال الغفير وراء الجزار والجناينى، فالعزبة كلها ساهرة ، وقد أكلت حتى شبعت البطون ، وجرت المياه فى الأرض المحروقة ، حقيقة تجاوزت الساعة الثالثة صباحا ، والوقت ليس وقت تدبير مصالح ، لكن هذه ليلة مباركة ينعم فيها المتزوجون بالسهر بعيدا عن زوجاتهم .

وفى إنتظار الغفير ، دهمتنى تساؤلات عديدة ، ويبدو أننى نعست وقد اتكأت على «الكنبة» فغفت عيناى ، وكنت قد نبهت على المزارعين بعدم إطلاق أعيرة نارية، وتخيلت عمران يطلق النار على زوج فهيمة الجديد، فقمت فزعا، وأنا أسأل نفسى : هل حقيقة لايزال قلبه متعلقا بها ؟!

غير أننى رأيت كرامة ولد سرحان السقا يزف إلى الأميرة جويدان ، واليوزباشى شهدى الششتاوى يطرد من منصبه ، وجذبت الجلابية وشددتها على رجلى وقربت الموقد منى ، واستعذت بالله من الشيطان الرجيم ، لكن صوت الطلق النارى ظل عالقا برأسى .

قلت لنفسى : يالها من ليلة .

زهيــة

(٤٢)

لم تنزل الدكتورة أوديت للإفطار كعادتها وبقيت فى غرفتها . ولما طال تأخرها عن الإفطار ، رأيت أن أصعد إليها فى جناحها بفنجان من القهوة وكوب من العصير وعدة قطع من البسكويت الذى تحبه دائما على الإفطار وتفضله عن الجبنة والبيض والمربة والفول .

دخلت غرفتها، وجدتها فى ملابس النوم الواسعة ، شعرها مهوش وتبدو بدينة للغاية وأقصر قامة مما عرفتها . أحسست بنغزة فى قلبى بسبب تغير هيئة الدكتورة أوديت ، وساورنى شعور خفى بأنها مريضة ، الواحد لاينكمش ويكش طوله إلا إذا شغله ما يحزن القلب ويسود العيشة ، والمرض هو أول ما يسود عيشة واحدة مثل الدكتورة أوديت .

وعلى الرغم من ضآلة حجمها وهى جالسة ، فوجهها يحتفظ بجماله الطبيعى دون مكياج . بسبب عينيها الواسعتين ، وصغر أنفها ودقة فمها ، وإن كانت صفرة قد ضربت وجهها كله .

تعجبت . وقفت إلى جوار السرير لكنها نسيتنى . دعتنى إلى الدخول عندما دققت الباب لكنها نسيتنى . وضعت الصينية إلى جوارها ، وقلت :

– فنجان قهوة يا دكتورة لمسح الزور .

ابتسمت ، قالت لى :

– الله يجازى شيطانك يابنت . كان نفسى فى فنجان قهوة .

خفضت بصرى قائلة :

– أنا تحت الأمر يا دكتورة .

الدكتورة أوديت إذا رضيت عنى ، قالت لى الله يجازى شيطانك يا بنت، أما إذا غضبت علىّ قالت لى : يابنت . سألتنى ، قالت :

– الباشا فطر وتناول الدواء ؟

قلت :

– نعم . فى السابعة تماما . وأعد له الإفطار عم محمد . ثم نادى علىّ وطلب فنجانا من القهوة المضبوط .

نظرت إلىّ صامتة، بعد أن ناولتها فنجان القهوة ، اعتقدت أنها لاتصدقنى واتجهت نحو الباب ، لكنها طلبت منى البقاء قليلا . وقع قلبى . خفت ، وكلما طال صمتها ارتعبت ، سوف تطردنى طرد الكلاب وتطلب منى مغادرة القصر بسبب رقصى فى حضرة الباشا بعد أن حزمت وسطى يوم الأحد . سوف تقول لى : قلة أدب وخلاعة .

أنا لم أرقص إلا من فرحتى بعودة اللواء محمد نجيب . والباشا كان فرحا أيضا . لن أرقص مرة أخرى إذا سامحتنى هذه المرة . نذر يا سيدنا الحسين . يتيمة ومسكينة وأدق على بابك . افتح لى ، وخدنى تبت.

أقول لها ، إننى أود السكنى فى غرفة فى المعادى القديمة ، وأطلب منها ألاّ تطردنى من الخدمة فى القصر بعد أن منعتنى من الخدمة فى العيادة. لكنها

انشغلت عنى مرة أخرى . تنظر إلى ولا تحس بوجودى أو ترانى . عقلها مشغول . وصفرة وجهها تقول هذه حمى أصابتها والشر «برة وبعيد» هل أمسك يدها ؟ الفرحة لا تتم يازهية ، وهذا صباح ليس ككل صباح . الدكتورة أوديت ليست كعادتها ، إنها لاتجلس لكنها مكومة وتضع بعضها على بعض . ليس من المعقول أن تكون الدكتورة أوديت غاضبة علىّ بسبب رقصى إلى هذا الحد . إن عينيها ميتتان . والله إذا تزوجت والدها أحمد السيد باشا مانظرت إلى هذه النظرات. الحب بهدلة ويشغل الواحدة منا لكنه لايميت النظرات فى عينيها . قطعت الصمت ، قالت :

- أعدى الحمام يا زهية .

قلت فورا :

- حاضر .

أبعدت عن رأسى الأفكار السوداء ، وشغلت نفسى بإعداد الحمام ،غسلت البانيو وفتحت الصنبور ، وبعدها عطرت المياه بالشامبو . قفلت الباب حتى لايتسرب البخار من الباب إلى غرفتها ويضايقها . وتناولت فوطتين والبشكير وعلقتهم وبحثت عن شبشب الحمام ووضعته إلى جوار فوطة كبيرة فردتها على الأرض ، ثم تناولت اسفنجة وغسلتها ووضعتها على حافة البانيو .

راقبت المياه وهى ترتفع فى البانيو ودرجة حرارتها . إذا سخنت زدت من المياه الباردة .

نادت على الدكتورة أوديت ، قالت :

- هاتى يدك يا زهية .

اقتربت منها ووقفت . حل علىّ سهم الله ، فسرحت ، وقفت أتأملها وأنا ثابتة فى موضعى كلوح الخشب . ماذا جرى فى الدنيا ؟ هل الدكتورة فى حاجة

لى لتنهض !! لقد أخطأت السمع ، لكن الدكتورة تململت فى جلستها وكأنها تسلك عظامها من بعض، وتفك بعضها، وتأوهت . قالت فى توسل :

- يدك يا زهية . أقوم .

مددت لها يدى وأخذتها فى حضنى وأوقفتها على قدميها . فردت طولها وهى مستندة إلى . حاولت ثنى ذراعها ففشلت . طلبت منى معاونتها فى خلع ملابسها .

تجرأت وسألتها :

- ماذا جرى يادكتورة ؟

قلتها من قلبى ، وكانت الدكتورة تسحب ذراعها من قميص النوم الطويل فتوقفت عن الحديث ، وبعدها قالت :

- صدمتنى عربة جيش أمس .

ثم توقفت عن الكلام لتلتقط أنفاسها . درت حولها . ألقيت نظرة على ظهرها . شهقت . دماء متجمدة على مقربة من سلسلة الظهر. قلت لها باكية :

- أنت فى حاجة إلى الطبيب.

طلبت منى دعوة أن لتصعد إليها . وألا أفتح فمى بكلمة أمام الباشا أو الدادات . قلت لها : حاضر . صمت بعد أن تركتها بمفردها واقفة ونزلت الدرج أهرول بحثا عن آن . كان الباشا جالسا فى البهو ، سألنى على الفور :

- الدكتورة أوديت مريضة ؟

قلت له :

- سلامتها من المرض .

اختفيت عن عينيه نازلة إلى آن فى غرفتها المطلة على الحديقة ، لكنه ظل

يراقبني ولا يصدقني . قلت لـ آن بالكلام والإشارات : هيا إلى الدكتورة أوديت بسرعة . وحتى أستعجلها كررت عليها بالفرنسية : «فيت» ضحكت مني، قلت لنفسي خائفة ، وهل هذا وقت ضحك ؟ وجاء ت معي . صعدنا السلم ، ومررنا بالبهو ، وقال الباشا شيئا لـ آن. لكنني لم أفهمه .

عندما صعدنا كانت الدكتورة أوديت واقفة تستند إلى الباب ، عارية لايسترها إلا «الكلوت» كما تركتها . تحدثت إلى آن ، ثم بدأت آن في تنظيف جروحها .

وددت النزول حتى لا يقلق الباشا ، ويؤاخذني لكذبي عليه ، لكنني ترددت ، فـ آن الفرنسية جسدها هش ، وربما تحتاج الدكتورة إلى مساعدة .

مسحت آن جروح الدكتورة أوديت ، ولما انتهت، سعت الدكتورة إلى التخلص من تلك الغلالة الخفيفة التي تسترها وهي واقفة ، لكنها عجزت عن تحريك ساقيها ، فطلبت من آن أن تقص الكلوت بالمقص على الجنب. وحولت بصري بعيدا عنهما . ولما انتهت آن من قص الكلوت ، طلبت مني الدكتورة أوديت مساعدتها في نزول البانيو ، شمرت ذراعي، وأحطتها بيدي اليسرى ، وطلبت منها أن تستند إلى ذراعي ولاتخاف . قلت : أنا عاملة ترحيلة.

قالت : أنا لست شوال سبخ يابنت . قلت : العفو يادكتورة .

كان نفسي في نفسها . فصمت ، مددت يدي الأخرى ووضعتها خلفها وحملتها بالراحة ووضعتها في الماء ، ولم أسحب يدي حتى لامس ظهرها قاع البانيو، بينما وقفت آن إلى جانبي صامتة .

طلبت الدكتورة من آن أن تدعك لها جسدها ، فافسحت لها موضعا ، ووقفت على استعداد لحملها مرة أخرى إلى فراشها بعد الحمام .

د . السيد أحمد

(٤٣)

أصبحت قضية الانتخابات هي شغل الدوائر السياسية ، الجميع يودون تحقيق مصالحهم الخاصة على حساب حركة الجيش، يحلمون بإرجاع الساعة إلى الوراء .

علمت أن هيئة التحرير لم تجد شخصيات يعتد بها للترشيح ، فقد اعتذر أولئك الذين انضموا لها ، وأعلنوا صراحة أنهم يفضلون نزول الانتخابات على قوائم أحزابهم . الدكتور محمد صلاح الدين . عبدالفتاح حسن . محمد حسين هيكل . وغيرهم .

لمحت زهية نازلة من جناح ابنتي . تعجبت . سألتها :

– الدكتورة مريضة ؟

ردت على ردا يحمل كل الاحتمالات ، قالت :

– سلامتها من المرض ياباشا .

قررت تأجيل خروجي ، فأنا لست في عجلة . صرفت السائق وطلبت منه العودة بعد ساعتين . جلست في البهو . ليس من عادة ابنتي البقاء في غرفتها حتى هذه الساعة من الصباح .

رأيت آن تهرول صاعدة إليها وخلفها زهية ، سألتها ، قالت :

– فهمت من زهية أن الدكتورة فى الحمام والمياه الساخنة معطلة .

زاد خوفى .

ألقيت نظرة على الصحف ، لم أجد بها جديدا ، فالأحداث السياسية تدور معظمها فى الكواليس منذ حركة الجيش ، ثم تنفجر كالعاصفة ، فالأزمة بين محمد نجيب وبين مجلس قيادة الثورة على أشدها ، حول الإصلاحات الدستورية وحول الانتخابات .

محمد نجيب يرى ضرورة إجراء الانتخابات على أساس حزبى وعودة كل الأحزاب ، أما جمال عبدالناصر ، فهو مصمم على عدم عودة الأحزاب بصورتها القديمة ، ويدعو إلى انتخابات حرة ، ولكن ليس على أسس حزبية .

كلاهما أصبح يجمع حوله الأنصار فى السر والعلن ، بينما نقطة البداية غائبة ، محمد نجيب يلقى بثقله على الشارع السياسى ، ويمد الخيوط إلى حزب الوفد وجماعة الإخوان المسلمين ، بينما يعيد جمال عبدالناصر أوراقه سرا ، ولا يعرف أحد ما يدور فى رأسه على وجه الدقة . يلقى ببالونات اختبار ، فتارة يعلن عن تركه للجيش وترشيح نفسه عن هيئة التحرير ، وتارة ينفى ذلك بشدة .

حزب الوفد هو أكثر الأحزاب وضوحا فى سياساته ، ويعلن عن رغبته فى القضاء على حركة الجيش والاثار المترتبة عليها . أما اليساريون فقد دب فى صفوفهم الانقسام كعادتهم ، وتراوحت مواقفهم بين الهجوم على حركة الجيش وبين تأييدها ، وابنتى أصبحت تتزعم الجناح المناوىء لجمال عبدالناصر بشدة .

محمد نجيب رجل ليس له القدرة على العمل وقد أخطأ بتوليه الوزارة إلى جانب رئاسة الجمهورية ، وتركه لخالد محيى الدين فى العراء ، مما يسهل على جمال عبدالناصر التخلص منه ، بفقده نصيرا فى مجلس قيادة الثورة .

هل أصعد إلى ابنتى أم أبقى حتى تنتهى من حمامها وتنزل ؟ قلبى يحدثنى بأن مكروها وقع لها ، فإجابة زهية كانت غامضة وإن كانت فطنتها قد راقتنى لحظتها ولم أعد سؤالى لها ، ولابد أن ابنتى قد أمرتها بالصمت .

قاد البواب إلى رجلين عرفت أحدهما ، الدكتور على البنهاوى أكبر طبيب عظام فى البلد ، وقدم لى رفيقه الدكتور محسن الجندى طبيب المخ والأعصاب الشهير وإن كنت لم ألتق به من قبل . ورحبت بصديقى الدكتور على البنهاوى واطمأن قلبى ، فهما فى زيارة إلى ابنتى لمناقشة أمور نقابية أو علمية .

أحسست بالحرج فابنتى ليست جاهزة ولم تنزل بعد ، وكانت هيئتى تدل على راحة البال بل والاستعداد للخروج ، وطلبت لهما القهوة ، وجلسنا نتسامر فى أمور البلد . غير أننى لحظت قلقا على وجه الدكتور محسن الجندى وحرجا فى الحديث إلى ، ثم قطع الشك باليقين قائلا :

– إنه يود أن يكشف على الدكتورة أوديت فى غرفتها ، وينصح بعدم الحركة .

تجاوزت عن قوله بكشف ، لكننى سألته لماذا ينصح بعدم الحركة ؟!

أدركا أننى لم أعلم بإصابة ابنتى . قال لى الدكتور البنهاوى إنها خابرته وطلبت منه القدوم لأنها تعرضت لحادثة عربية أمس وتوجد رضوض فى قدمها . فصحب معه زميلهما الدكتور محسن الجندى ، فالدكتورة أوديت زميلة عزيزة ولو طلبت طاقم الأساتذة بقصر العينى لحضر على الفور .

توقفت برهة عند قوله حادثة عربية أمس ، وقدتهما على الفور إلى جناحها ، دخلنا غرفتها ، كانت مستلقية على الفراش وحولها زهية وآن .

قبلتها فى جبهتها . سألت غاضبا :

- ماذا جرى أمس يا أوديت ؟

ابتسمت نصف ابتسامة . قالت :

- عربة جيش صدمتنى أمس .

وبدأ الطبيبان فحصها فور أن مدت إليهما يدها بالسلام . طلب منها الدكتور محسن الجندى أن تلمس أرنبة أنفها بيدها فاعتذرت بسبب أوجاع فى ذراعها .

التفت إلينا الدكتور على البنهاوى ، قائلا :

- تفضلوا أنتم . خير إن شاء الله .

طلبت ابنتى بقاء زهية وأن ، فوجدت نفسى أخرج إلى الطرقة وحيدا ، زهية وأن عرفتا بما وقع لها قبلى ، واستبدت بى رغبة فى عقاب زهية بسبب كذبها علىّ .

وقفت أعد الدقائق ، فحالتها توحى بإصابتها بكسور بل والعياذ بالله بارتجاج فى المخ ، عيناها زائغتان . يداها ترتعشان . مستلقية فى الفراش بين الرقود والاستلقاء .

عربة جيش ؟ صدفة أم عمد !!

شممت فى الأمر رائحة التدبير . هذه جريمة وخيوطها الرئيسية ليست بعيدة عن جمال عبد الناصر . لا يقوى أحد فى البلد على مس ابنتى بسوء دون إذن منه وهم يعرفون تردده على قصرى وترددى على مكتبه .

مع ثقل الوقت يزداد غضبى وقرفى . تذكرت موعدى واحترت . وفى هذه اللحظات الصعبة الثقيلة رأيت ضرورة معالجة الأمر بالحكمة . لم أخسر فى حياتى قضية صاحبها على حق ، وكرامتى ومكانتى تمنعاننى من تسول الحماية لابنتى

من جمال عبد الناصر أو غيره ، أنا الذى رفضت دعوات الملك فاروق وهو فى أوجه . ورفضت طلب الحماية لها من صديقى اللواء محمد ابراهيم إمام فى عهد الملكية .

الكشف على عظام ابنتى سوف يطول ، وسوف يدق الدكتور البنهاوى على كل عظمة رئيسية أو ثانوية فى جسدها بينما يتابع زميله فحص أعصابها للتأكد من سلامة جهازها العصبى ومراكز المخ ، نزلت الدرج على مهل وقلبى مع ابنتى وحواسى كلها بالباب المغلق عليهم . رأيت أن أتدبر أمرى ، وتذكرت على الفور تهديد جمال عبد الناصر لى فى السابق باعتقال دوريس المشرفة على مراسلاتى وأحوال مكتبى وكذلك تهديده المبطن لابنتى بسبب نشاط رفاقها .

رفعت رأسى الى أعلى طالبا لها السلامة . فى انتظار خروج صديقى الدكتور البنهاوى أو رفيقه أو حتى زهية لأسألها عنها . أنا لم أرها إلا لدقيقة أو دقيقتين بعد الحادثة .

هل أصعد وأدق الباب وأطل من فتحته حتى ينتهيا من فحصها .

اختيارات الأب أشد صعوبة من موقف الزوج . لو كانت زوجتى لما غادرت الغرفة ، لكننى أب وعلى المعاش ، والحكمة تفرض علىّ التزام الهدوء حتى إذا كانت إصاباتها خطيرة . التسربل بفضيلة الصبر فى اللحظات القاسية .

آه ، لو كانت ابنتى متزوجة أو لها أخت !!

لكنها وحيدة . أمها متوفاة منذ أكثر من ربع قرن ورفضتُ الزواج من أجل رعايتها ، وها أنا أقف عاجزا ساعة الشدة .

لأصعد وأفتح باب الغرفة وأقف خارجها حتى تصلنى أحاديثهم . أسمع

صوتها وهى تناقشهما وربما وهى تصحح تصوراتهما عن حقيقة إصاباتها .

الطب : علم وخبرة وحسن بصيرة . وابنتى عندها بصيرة وإن كان علمها وخبرتها فى فرع آخر من الطب .

مشاعر الأبوة أقوى من اتزان الشيخوخة . أدق باب الغرفة ، طالبا المعرفة ، ولن يلومنى أحد إذا أبديت قلقا أو هرولت مقتحما عليهم مناقشاتهم الطبية .

صديقى الدكتور البنهاوى رجل فطن ، وإننى لأعجب كيف فاته تركى على هذا النحو أكثر من نصف ساعة ، دون كلمة منه .

أقف متلصصا . دقة وأخرى . فتحت الباب . بقيت فى الخارج . سألت :

– كيف الأخبار ؟

جاء نى صوت ابنتى :

– تفضل يابابا .

تنفست الصعداء ، قلت لنفسى :

– الحمد لله .

ابنتى ممددة فى فراشها . وجهها أصفر للغاية . قالت :

– كدمات فى العظام . وشبه ارتجاج فى المخ ونزف فى الدماغ .

قال الدكتور البنهاوى مضيفا :

– الحمد لله . سليمة .

قالها وهو لاينظر إلىّ وأحسست فى نبرة صوته ترددا .

نزف فى الدماغ . لاحول ولا قوة إلا بالله . قلت :

– ابنتى فى حاجة إلى الراحة منذ زمن طويل . عمل دائم ومشاغل سياسية

قال الدكتور البنهاوى ضاحكا :

– المشاغل السياسية هى سبب نزيف الدماغ . ومنذ حركة الجيش والبلد كلها دماغها ينزف .

أخبرنى الدكتور البنهاوى أنه سوف يأتى مساءً وفى صحبته مجموعة من الأطباء لإجراء « كونسلتو » . وعلى الدكتورة ملازمة الفراش .

كان يتوجه بالحديث إلىّ وليس لها . وأقلقنى ذلك كثيرا . ترقد مستسلمة وعلى وجهها صفرة الموت . لم أقدر على مزيد من الصبر . خانتنى قدرتى على التحمل . قلت لهما :

– هل تسافر إلى الخارج للعلاج ؟

أجابنى على الفور الدكتور الجندى قائلا :

– هذا أمر وارد لكن ليس فى هذه المرحلة .

الأمر جد لا هزل فيه . وأراد الدكتور البنهاوى التخفيف علىّ قال :

– نحن الأطباء نضع دائما أسوأ الاحتمالات ، لكن العناية الإلهية دائما هى مرجعنا والجسد البشرى جبل على المقاومة وواجبنا أن نوفر له الظروف المناسبة .

ثم أشار إلى الدكتورة أوديت قائلا :

– كم حالة ولادة مستعصية أجرتها دون جراحة فى آخر لحظة !! الجسد البشرى معجزة حقيقية .

ظلت إبنتى صامتة . أردت أن أسمع تعليقها عما يدور حولها ، سألتها ، قلت :

– ما رأيك يادكتورة فى السفر !؟

أجابتنى قائلة :

– أنا مريضة . وما يأمر به الدكتور البنهاوى أنفذه .

قال الدكتور البنهاوى على الفور :

– العفو يا ابنتى .

قال يا ابنتى فى حب وعفوية . خرجت الكلمة من فمه فيها حميمية وصدق بعد أن غطى الشيب رأسه ، وعيناه النافذتان جمعتا خبرة السنين .

كان واضحا لى أنهما يقضيان الوقت لمراقبتها والاطمئنان عليها وقد انتهيا من الفحص . وغفت عيناها . ونظر الدكتور الجندى إلى رفيقه ، وقال :

– هيا بنا .

أشرت إلى زهية بالانصراف ، وتسللنا جميعا إلى الخارج ، غير أن الدكتور الجندى همس فى أذنى مؤكدا على ضرورة بقاء أحد إلى جوارها باستمرار . قلت له : أنا . قال لى مبتسما : ليس ضروريا .

طلبت من آن أن تظل إلى جوارها ولاتغادر الغرفة مطلقا إلا بإذنى . قالت لى : حاضر .

فى البهو صارحانى برأيهما ونتيجة التشخيص ، قالا:

– هذه حادثة عربية . ويبدو لنا أنها مدبرة . والحوادث المدبرة – كما يقول أساطين الطب الشرعى تكون عادة مضاعفاتها مزدوجة بسبب فساد الحسابات أو تدخل عوامل الصدفة . والدكتورة أوديت تعانى من صدمة عصبية أكثر من وجع العظام . وقد أعطيت حقنة عاجلة وهذا هو سبب استغراقها فى النوم على هذا النحو .

وقال لى الدكتور الجندى :

– ياباشا بعد إذنك . سوف أرسل ممرضة من المستشفى اليونانى لمرافقتها

فى الأيام الأولى . ممرضة إنجليزية لها خبرة بهذه الحالات ، فمن المحتمل أن تقوم من النوم وهى تصرخ أو تتصرف تصرفات عنيفة . وحالتها بصفة عامة من الناحية الطبية غير حرجة .

بعدها سألنى الدكتور البنهاوى مغيرا الحديث :

– كيف أحوال البلد ياباشا ؟

قلت له :

– كما ترى يادكتور . دخلنا فى مرحلة الاغتيالات السياسية بمعرفة الحكومة .

قال لى منبها :

– الدكتورة أوديت « حيوان سياسى » وأنا أعرفها منذ كانت طالبة لى أرجو حجب كل الأخبار عنها . لا صحف . لا اذاعة . لا مناقشات أو زيارات .

قلت له وأنا أعرف عناد ابنتى :

– اذا كان هذا هو العلاج فابنتى فى خطر ، لا أحد يقوى على منعها من الاشتغال بالأمور العامة حتى فى ساعة الموت .

قال لى الدكتور البنهاوى :

– لنحاول

قبل خروجهما لفت نظرى إلى ضرورة تعليق ورقة فى العيادة تفيد أن الدكتورة متغيبة لمدة شهر وإلا إنهالت المكالمات علينا من رواد عيادتها ليلا ونهارا .

قلت له : شكراً .

وكانت هذه المسألة قد غابت عنى ، وأنصرفا .

زهية

(٤٤)

نادى الباشا علىّ فتركت ما فى يدى فى المطبخ ، وتوجهت إليه فى البهو ، ظننت أنه يود فنجانا من القهوة ، لكنه قال لى :

- خذى يا زهية هذه الأوراق . علقى واحدة على باب عيادة الدكتورة من الخارج ، وعلقى واحدة فى بير السلم .

وبعدها أكمل موضحا لى :

- العيادة مغلقة لمدة شهر .

قلت :

- حاضر .

قال لى :

- أخبرى البواب والجيران أن الدكتورة مسافرة لمدة شهر فى الخارج .

قلت :

- حاضر .

قال :

- لاتذهبى وحدك ، خذى السائق معك .

وبعدها قال لى :

- نادى على السائق .

ذهبت وطلبت من السائق مقابلة الباشا فحضر معى ، قال له شيئا بالفرنسية ، وبعدها قال لى السائق :

- هيا يا زهية معى .

كنت أظن أننا نتوجه بالمواصلات ، لكن السائق ، طلب منى ركوب العربة ، قال لى :

- هذه أوامر الباشا .

وكنت أضع مريلة المطبخ علىّ فخلعتها فى العربة ، وسويت شعرى فى المرآة ، فنظر إلىّ السائق ضاحكا ، وقلت لنفسى ساخطة : هل هذا وقت ضحك .

علقت الورقتين ، كما قال لى الباشا ، ودققت على الشقة المجاورة ، وقلت للشغالة ، إن العيادة مغلقة لمدة شهر ، ولما سألتنى ، هل قبض على الدكتورة أوديت ثانية ارتعبت ، قلت لها : الدكتورة عملت حادثة بالعربية . قالت لى وهى لاتصدقنى ، سلامتها . ونادت على الهانم وقالت لها إن الدكتورة أوديت عملت حادثة بالعربية . استدعتنى الهانم إلى غرفتها . امرأة عجوز شعرها أبيض . قالت لى فى قلق :

- أخبرينى . اعتقال جديد .

قلت لها :

– حادثة عربية . والدكتورة فى القصر ولا تستطيع رفع يدها .

وبكيت .

منعونى فى القصر من البكاء والصراخ ، فانهمرت دموعى مثل البحر، وأخذت ألطم خدىّ وأقطعهما ، قالت لى الهانم :

– اهدئى .

طلبت منى أن أدخل الحمام وأغسل وجهى ، لكننى رفضت . تناولت زجاجة كولونيا ، وطلبت منى أن أدعك يدى ووجهى ، ففعلت . سألتنى :

– أين الدكتورة الآن ؟!

قلت لها :

– نائمة . أعطاها الأطباء حقنتين . واحدة فى العرق وأخرى فى العضل .

قالت لى :

– لا تخافى .

نزلت الى السائق ، سألنى :

– لماذا تأخرت ؟!

قلت له :

– كنت عند الجيران .

قال لى :

– طيب .

بحثت عن البواب ، لم أجده . طلبت من السائق الانتظار قليـلا . رفض . قلت

له : هذه أوامر الباشا . وتبينت أننى خالفت أوامر الباشا ، فقد طلب منى أن أخبر الجيران بأن الدكتورة مسافرة ، وكان علىّ ألاّ أفتح فمى بكلمة أخرى ، وندمت على اندفاعى . قلت لأصلح غلطتى ، وأخبر البواب بأن الدكتورة مسافرة ، لكن اللعين اختفى .

توجهت إلى المكوجى ، سألته عن البواب . أخذ يرحب بى ويسألنى عن سبب غيابى عن العيادة . أهل البندر ملاعين . قلت له :

– العيادة مغلقة لمدة شهر والدكتورة مسافرة .

قال لى :

طيب . سوف أخبر البواب .

وبعدها ، قال لى :

– المخبرون يرابطون هنا منذ الصباح . أخبرى الدكتورة .

تركته . هذا صباح أسود من طلعته . وددت أن أتوقف فى الطريق وأرقع بالصوت وألم الناس حولى . أنا زاهية . عاملة ترحيلة ولا أفهم فى هذه الأمور . أنا لست «عباس أبو حميدة» أو خالة نفوسة بنت الشامى . وقلت لنفسى : قولى يابنت كل شىء للباشا . فهو باشا ويعرف كيف يتصرف . الدكتورة مكومة فى السرير مثل قطعة اللحم نائمة ، المسكينة ، بين الحياة والموت ، وقد هرست عربة الجيش لحمها ، والمخبرون حول عيادتها ، لماذا ؟ هذه بلد كلها ظلم ، ولا فرق بين عزبة عويس وبين المعادى ، ففى كل « حتة » الأميرة شويكار واللواء عويس ، وانهمرت دموعى ثانية فى العربية ، وقلت لنفسى فى حسرة :

– لا محمد نجيب نافع ولا جمال عبد الناصر نافع .

الأميرة جويدان

(٤٥)

تحاملت على نفسى ، وهرعت إلى قريبتى الأميرة علية سيف النصر لتنقذنا من هذه الكارثة . هى وحدها التى فى استطاعتها إقناع أبى بضرورة السفر إلى الخارج والعدول عن فكرة ترشيح نفسه فى الانتخابات . أبى لايثق فى نصائح عمى حمدى بك ، بل ويتهمه بشكل خفى بخيانة طبقتنا ، ومسايرة جماعة العسكر.

أما الأميرة علية سيف النصر فلها دلال عليه . بل ومعزة كبيرة يكنها لها فى قلبه هى فاتنته . وحديثها فيه طلاوة تعجبه . عندما قدمت إلينا فى المرة الماضية ، أخذت رأسه فى حضنها ، وعملت على تدليله كقطة صغيرة . قطة وديعة . هذه المرأة صاحبة الأكلشيهات الفارغة ، والتى أحاديثها كلها عموميات سخيفة ، خالية من الصدق ، والحس الشخصى لها سطوة على الرجال .

ما يحزننى أن أبى قد عاودته أحلام العودة إلى السلطة عن طريق الانتخابات المزعومة ، وبدأ فى عقد اجتماعات واستقبال قيادات مختلفة من الأحزاب كافة ، وقد استقر رأيه على ترشيح نفسه عن حزب الوفد المنحل .

حمى الانتخابات أصابته بنشاط وعافية ، وقد تخلص من متاعبه ، ولم تعد

الأزمة تعاوده ، بل نقص وزنه وزاد نشاطه ، فيما عدا عجزه عن السير على قدميه لفترة طويلة .

عيناه فيهما تشبث غريب بالسلطة والعودة إلى الأضواء .

كلما حذرته من مغبة هذه الاتصالات . قال لى :

- انظرى اللواء محمد نجيب رئيس الجمهورية يقول للنحاس باشا : ياحبيبى هه . مكتوبة بالخط العريض . مانشيت الجرنال .

تناولت من يده الصحيفة . تأملت المانشيت . قلت فى نفسى ، هذه وراءها سر. أو مكيدة سياسية . لكننى لا أقدر على مناقشة أبى . قلت له كلمة واحدة :

- غريبة .

أخاف على أبى من الموت . فهذه هى الصحوة الأخيرة. مداعبة الآمال والأوهام الكاذبة كالسراب الخادع تدغدغ حواسه ، وتزيد من تشبثه، بينما طعم الأيام قد تغير، ولم تعد هناك فرصة لرجل مثله . لكنه يسعى للسير إلى الخلف .

أطياننا استولى عليها المزارعون . أموالنا ومجوهراتنا صادرها مجموعة من الأفندية . حتى السجاد وأطقم الصينى كان مطمعا لهم . هبطوا علينا كالجراد الجائع . فتشوا القصر . الخزائن جردوها . الحلى عبثوا به وأخذوها معهم . من منهم لم يكن جائعا للمال ، كان جائعا للحب ، والشهوة تملأ قلبه . هذه طبقة بأكملها استيقظت من سبات عميق لتمص دماء نا ، أما طبقتنا فقد خرجت من الحلبة . هذه أيام أخرى . والحكيم من يستمع إلى صوت التاريخ .

سألتنى الأميرة علية سيف النصر عما يقلقنى ، قلت :

- أبى يود ترشيح نفسه فى الانتخابات .

ضحكت كما لم تضحك فى حياتها من قبل . كانت جالسة ، فقامت وهى

تصفق بيديها وتدق بقدميها من شدة الضحك . دارت حول نفسها . عيناها وحشيتان واسعتان فيهما لمعة سخرية عميقة . بعد قليل هدأت . عادت إلى جلستها ، ووضعت ساقا فوق ساق ، وكأنها تقاوم الضحك ، وقد قيدت نفسها فى جلستها على هذا النحو غير المريح .

كفت قدماها عن الحركة ، وكانت ترتدى فستانا ضيقا . وظل وجهها يضحك ، ضحكة خفيفة . قالت :

ـ آسفة .

وضعت كفيها حول وجهها ، واستلقت بجذعها الأعلى إلى الخلف قليلا.

كنت أرقبها صامتة . ضحكها يضايقنى . وانتظرت حتى اعتدلت فى جلستها.

وانزلت كفيها ، وقبل أن أفتح فمى بكلمة ، سألتنى ، قالت :

– اللواء عويس يود ترشيح نفسه عن العمال ، ويسير على نهج النبيل عباس حليم، أم عن الفلاحين ؟؟

كان سؤالها جادا ، وبدت على ملامحها مظاهر القلق والانشغال . قلت :

– عن الوفديين .

انزلت ساقها ، قالت :

– كنت أعتقد أن اللواء عويس معادٍ لحزب الوفد .

قلت لها :

– انضمامه إلى حزب الوفد أكثر ما يخيفنى هذه الأيام .

سألتنى ، قالت :

– بدأ حملته الانتخابية ؟

قلت :

– نعم . عقد اجتماعات مع أعيان الوفد فى الجيزة . كون لجنة . سحب نقودا كثيرة من البنك . أصدر بيانا انتقد فيه قانون الإصلاح الزراعى .

فى نظرة كلها سخرية ، وهى تميل بوجهها ، فى التفاتة محسوبة ، سألتنى ، قالت :

– وحمدى بك ، ما رأيه ؟

قلت لها خائفة :

– عمى فى حالة سيئة . فشل فى إقناع أبى بالكف عن هذه الأعمال . هدده بالسجن .

أضفت قائلة :

– عمى يعتقد أن أبى يعمل لتحطيمه سياسيا ويحقد عليه بسبب عمله إلى جوار هؤلاء الضباط .

صمتت . بان الانشغال عليها .. رأيت القلق فى عينيها ، ملامح وجهها احتقنت بالخوف . انتقل خوفها إلىّ أحسست بأننا فتاتان صغيرتان تعبثان بالنار أو كأنما ألقى بنا فى عرض الطريق فجأة ، فتاتان مسكينتان. وندمت لقدومى.

أبى أصبح خطرا على الجميع ، وربما قدومى إلى هنا سوف يسىء إلى قريبتى، ويفسد علاقتها بالكولونيل ، كان ذلك واضحا لى .

غرقت فى الصمت من خجلى ،كان يتعين على أن أكون أكثر حصافة، ولا أزج بها فى مشاكلى ، فنحن كالغرقى الذين تحطمت بهم سفينة ، وعلى كل واحد منا أن يرضى بقدره ، من ينج ينجُ ومن يمت يمت .

لم أعد أراها . غابت عنى فى جلستها . زادت وحدتى . عمى تخلى عنا وها هى صديقتى الوحيدة تتأذى من زيارتى لها ، تخاف ، لا لوم عليها .

كنت أعتقد أن أبى أكثر حكمة من أمى التى ضيع طرد الملك صوابها فأضحت كغولة متوحشة اذا طالت الفلاحين حرقتهم أحياء .

سألتنى الأميرة علية سيف النصر ، قالت :

– ما رأى الأميرة شويكار ؟

قلت لها :

– تشجع أبى . تعد له المقابلات ، وتتصل بالناس .

عادت الأميرة عليه سيف النصر إلى ضحكها ثانية . قالت :

– اسمعى . لا تخافى ، لن توجد انتخابات . اللواء محمد نجيب أمامه عشرة أيام على الأكثر ، ويعلن انسحابه من الحياة السياسية .

شحب وجهى . قالت :

– صديقى الكولونيل يؤكد لى أننا سنشهد سقوط محمد نجيب قبل سفرنا إلى الخارج . الزعيم الحقيقى لحركة الجيش هو جمال عبد الناصر .

قلت :

– هذا مايخيفنى . عبد الناصر لن يغفر لأبى فعلته .

مالت إلى الأمام قليلا ، وهى تقرب وجهها منى ، قالت :

– اتركى لى هذه المهمة . سوف اقنعه بالسفر لعلاج الأميرة شويكار. صديقى الكولونيل سوف يسافر إلى فرنسا أو ايطاليا وسوف أسافر للعمل معه كمترجمة .

استمعت إليها غير مصدقة . هى لاتعرف أبى وقدر عناده . وقلت لنفسى ،

ربما هى تعرفه خيرا منى ، هو أبى حقيقة ، لكنها كانت عشيقته .

طمأنتنى .

أضافت :

– نسافر كلنا فى منتصف ابريل .

طلبت منها زيارتنا . قالت :

– اللواء عويس وحشنى ، لكن ليس فى هذه الظروف .

شحب وجهى . غرقت فى مقعدى ، تصبب العرق منى . ها هى تعلن عن مخاوفها صراحة . تقطع علاقتها بأبى حرصا على مصالحها . ومن حسن حظى أنها شغلت عنى بتسوية طرف فستانها ، تمنيت ألاّ تلحظ ارتباكى . أضافت فى خجل كفتاة صغيرة ، قالت :

– الكولونيل يغار على بجنون . لا أقوى على زيارة أحد دون إذنه .

ابتسمت ابتسامة خفيفة ، قلت :

– إننى أفهم .

قالت :

– الكولونيل يحبنى .

كنت أود أن أسألها ، وهل هى تحبه إلى هذا الحد ، وهو الرجل المتزوج ؟ لكننى بلعت ريقى وأحجمت عن السؤال ، فما يشغلنى هو مصير أبى .

نظرت إلى ساعتى ، وكانت جلستى قد طالت ، فقمت ..

حمادة أبو جبل

(٤٦)

صاح الغفير وهو يدق الباب على كالمجنون :

– عباس أبو حميدة ياحضرة العمدة .

قمت متوجها إلى الباب . وجدت «عباس أبو حميدة» يتلقى السلامات من المزارعين الذين التفوا حوله ، ولمحت عربة شرطة عسكرية واقفة ، قلت لنفسى : ليس هاربا هذه المرة ، لكنه قدم مكرما معززا ، وربما صدر عفو عنه أيضا .

تمنيت من كل قلبى أن يتوب عباس أبو حميدة عن السياسة ، وأن يلتفت إلى أحواله ، وكفاه ما جرى له فى عهد الملكية . حضنته . دعوته إلى الداخل ، وجلسنا على انفراد . قلت :

– إن شاء الله إفراج نهائى هذه المرة .

قال لى :

– والله تعبت من الملاحقات .

قضى معى عدة دقائق ، وسألنى عن أحوالى وأحوال العزبة واستأذن متوجها إلى داره . قلت له :

– واجب .

تركته يذهب . هل أخطر ملازم أول حسن طلعت فى مديرية الجيزة أم أخفى عنه خبر قدومه إلى العزبة ؟ تريثت لأرتب أفكارى ، فالملازم أول حسن طلعت سوف يمطرنى بالأسئلة المتلاحقة . فهذا رجل ليس فى رأسه سوى أسئلة مثل مفتشى اللغة العربية ، يدخل الواحد منهم إلى الفصل ويبدأ الأسئلة ، فيربك المدرس والتلاميذ ، لم أسمع من هذا الرجل مرة واحدة إجابة على أى سؤال لكنه فى كل مناسبة يمطرنى بالأسئلة الغريبة .

عصرت ذهنى ، رأيت أن أضع هذه المرة الأسئلة بنفسى ، حتى لا يثور على . مايهم الملازم أول حسن طلعت هو الأمن ، وسوف يسألنى : ماذا يفعل عباس أبو حميدة فى العزبة ؟ أقول له : اشتاق إلى جماعته ، فحضر .

يسألنى : كيف حضر إلى العزبة ؟ أقول له : حضر فى عربة شرطة عسكرية . يلاحقنى بالسؤال : ما رقمها ؟ وهل تاكدت ، أنها عربة شرطة عسكرية ؟

إذن من واجبى أخذ رقمها واسم السائق أيضا ، حتى يطمئن حضرة الملازم الأول حسن طلعت ويرضى عنى . وبعدها يأمرنى أن أضعه فى نينى العين . أقول : حاضر .

ولا أفعل شيئا ، أكثر من تكليف الغفير بالسير وراءه ، وهؤلاء الغفر من ضعاف البصر ، أو أنهم يرون ولا يتكلمون، فما من مرة أراد فيها الهرب من العزبة إلا وهرب .

هذه أسئلة الأمن ، وقد أجبنا عليها ، وقمت مرحبا بسائق العربة ودعوته إلى الداخل ليتناول لقمة ، قلت :

- ياحضرة الباشويش ، الافطار جاهز .

سألته عن اسمه ، قال :

- شاويش «حسونة أبو حسنين» من مراغة . جندى مؤهلات .

وجاء ت الصينية وعليها طبق به خمس بيضات غارقة فى السمنة ، طبق جبنة حلوب وأرغفة ساخنة وبراد شاى . قلت :

- تفضل .

تركته يمزق الخبز الساخن ويغمسه فى طبق البيض ، حتى غرقت يده فى السمنة ، وقمت خارجا لمعاينة العربة ومعرفة ماركتها ورقمها ، وعينت غفيرا عليها

عدت إلى جلستى ، سألته :

- إن شاء الله معنا طوال اليوم ؟!

أجابنى وكان قد أوشك على الفراغ من طبق البيض ، قال :

- ساعتان فقط .

سألته ، وأنا أخفى فضولى :

- وأين العزم بعدها ؟!

نظر إلىّ فى خبث ، قال :

- لا أعرف .

ضايقتنى إجابته الغامضة ونظراته الخبيثة . لو كان مزارعا عندى لعلقته إلى شجرة الجميز وجلدته ، لكنه من الشرطة العسكرية . بلعت الإهانة ، وقلت فى نفسى : خسارة فيك طبق البيض يا ناقص .

كان قد مسح الطبق بآخر لقمة فى الرغيف . انقض على الطعام ، وكأنه

آخر زاده . قلت :

- الشاى.

أجابنى وقد سرت اللقمة الطرية فى جسده ، ولمعت عيناه ، وأضحى أكثر يقظة :

- تشكر ياحضرة العمدة .

امتعضت ليقظته المفاجئة ، وندمت على إطعامه ، قلت :

- خذ براد الشاى والسكر ، واشرب على راحتك فى العربة .

قام نشيطا ، وخرج .

ودق جرس التليفون ، تناولت السماعة ، قلت :

- آلو .

جاءنى صوت ملازم أول حسن طلعت ، سألنى :

- عباس أبو حميدة وصل العزبة ؟!

قلت له فى ثقة :

- وصل فى عربة شرطة عسكرية رقم ٢٠١٦ يقودها شاويش حسونة أبو حسنين من مراغة .

قال لى موبخا :

- هذا كله لا يهم . هل عرفت أين كان مختبئا بعد هروبه من العزبة ؟!

صمت . قال لى :

- أنت غير متعاون يا عمدة .

وبعدها أكمل ، قائلا :

– أخبرنى فور مغادرته .

قلت :

– حاضر .

انقطع الخط ، لكننى ظللت ممسكا بالسماعة . كيف فاتنى سؤاله عن أحواله طوال الفترة الماضية !!

لهجة ملازم أول حسن طلعت ، تنم عن أن متاعب «عباس أبو حميدة» لم تنته . لكن كيف عرف بوصوله إلى العزبة ؟ وضربت كفا بكف ، وقلت لنفسى :

– لا بد أن القلم المخصوص يراقب الشرطة العسكرية ويتجسس عليها . هذا هو الذى يتحدثون عنه ويسمى الأمن ..

أخبرنى الحاج عمران أول أمس أن أخبارا مهمة سوف تذاع ، لكننى لم أجد شيئا جديدا فى الصحف أمس واليوم ، هل خدعنى ؟

عباس أبو حميدة وحده ، هو الذى يعرف مايدور فى رأس الحكومة هذه الأيام ، وقد جاء فى عربة شرطة عسكرية مثل الحكام ، أرسل له الغفير ، وأطلب منه المرور على قبل ذهابه ، ليرسينى على بر الأمان ، فهذه ساعات قلق . لكننى ترددت . الرجل يأخذ حمامه ويبدل ملابسه بعد غيبة ، وابنته تكاد تكون يتيمة بسبب كثرة اعتقاله وغيبته .

لتنتظر السياسة قليلا ، فهذه ساعة زوجته نفوسة بنت الشامى . وهو لن ينطلق قبل المرور على مرة أخرى ، والسؤال عن ابنة عمه ستهم .

عباس أبو حميدة

(٤٧)

الذباب أكثر من نجوم السماء .

توجهت من دار العمودية إلى دار «عويضة أبو حسنين» مباشرة . من يصادفنى يأتى معى . يحكى لى شيئا . رأسى أمتلأ بالحكايات . لم يعد أحد يهتم باللواء عويس وسيرته . حلت رموز جديدة فى العزبة . شغلتهم الأرض .

وصلت دار «عويضة أبو حسنين» . ملامح المرض واضحة . جسده هزل واصفر وجهه وعجز عن القيام أو القعود ، امرأته تلطم خديها ، قلت :

– المرض له علاج يا عويضة .

قالت امرأته :

– تعبت معه يا خال عباس . العزبة فى غيابك ليس لها كبير . الناس سعرت مثل الكلاب الضالة . كل واحد فى نفسه . لا مشورة ولا نصيحة .

لم أسأله عن مرضه . كانت الأعراض واضحة . ومعروفة .

قالت امرأته :

– وزاد وغطى على المرض خفة العقل . فى عز الشمس وفى عز الليل فى البرد . يخطف رجله ليطل على الأرض ويتملى بطينها . من الملاك .

قلت :

– دعنى أفكر يا عويضة فى طبيب علاجه مضمون .

قالت امرأته :

– زينة الرجال طول عمرك يا خال عباس .

السل اللعين لايفرق بين عهد الملكية البائدة وحكومة الانقلاب . من كثرة المآسى الفرحة لاتتم أبدا فى العزب والنجوع ، اذا وزعت الأرض على الأجراء ماتت من العطش . الفرحة هنا دائما ناقصة كالبدر لايكتمل . عويضة ممدد كالميت . قال :

– وصيتك الجماعة والأرض .

زجرته ، قلت :

– أنت كالحصان يا رجل .

كنت أرى ملائكة الموت حوله ، وأمامى ساعات معدودات ، ووقتى لايسمح بالأخذ والرد أو دعوة طبيب لزيارته ، وطلبت من ابنه الاكبر أن يلحق بى فى دوار العمدة بعد ساعة .

توجهت إلى دارى . كانت نفوسة فى انتظارى وابنتى واقفة على الباب . ألقيت نظرة على خزين الدار . ليس بالقليل وليس بالكثير . اطمأن قلبى . دخلت إلى الحظيرة ، وجدت البهائم فيها البركة . استرحت . غيابى سوف يكون طويلا هذه المرة ، أوصيت نفوسه بالأرض والبهائم ، طلبت منها مشاركة أبناء عمى وستهم فى غيابى ، لعب الفأر فى عبها ، قلت :

– الطريق طويل يابنت الناس .

بدلت ملابسى التحتانية ، ورفضت تغيير ثيابى الخارجية ، قلت :

– سوف أذهب كما جئت .

مضت ساعة كاملة وكأنها لحظات ، قلت :

– العمدة فى انتظارى ، وسوف أتوجه بعدها يابنت الناس إلى شغلى ، واذا لم تصلك منى رسالة بعد يومين ، لاتخافى .

قالت المرأة وهى تخفى دموعها عنى :

– حاضر .

تركت لها خمسة جنيهات ، وسألت حميدة عن دروسها ، قالت :

– فى المدرسة ، الناظرة تسألنى أنت يتيمة ؟

ضحكت . قلت :

– قولى لها أبى مسافر بعيدا .

قالت لى :

– حاضر .

انتقل حزن أمها إليها . سألتنى :

– آجى معك . أسافر معك .

قلت :

– ما رأيك ياحميدة أغير لك المدرسة ؟ من الهرم إلى الجيزة .

ابنتى تحاكمنى بنظراتها ، بإشاراتها ، تعذبنى ، لمحت أمها قلقى .

شغلتها عنى ، أراحتنى . لكن نظرة عينيها فى قلبى مثل السكين . لم تحدثنى طويلا أو تلاعبنى . تعاقبنى بالصمت . تعاقبنى لغيابى . معها حق .

ابنتى الصغيرة ، طفلتى تحاسبنى حساب الملكين . هذه هى قسوة العمل السياسى فى مصر ، أمها تفهمنى ، تعذرنى . لكن بنتى طفلة .

قمت متوجها إلى دار العمدة . قررت أن آخذه على غرة ، وأطلب منه عشرة جنيهات سلفة . قلت للرجال حولى :

– كلمة مع حضرة العمدة .

كان فى انتظارى . يود سؤالى عما خفى عليه . سألنى عن اللواء محمد نجيب والبكباشى جمال عبد الناصر . قبل أن أفتح فمى بكلمة تريحه . قلت :

– لى طلب بسيط عندك ياحضرة العمدة .

قال مبتسما :

– غال وطلب رخيص .

قلت :

– عشرة جنيهات أقضى حاجة عاجلة .

أخرج سيالته ووضعها أمامى . قال :

– خذ ماتريد يا ولد العم .

قلت :

– عشرة جنيهات فقط .

تناولتها منه . وضعتها فى جيب الجاكتة الخارجى . ويبدو أن هيئتى فى البدلة كانت غريبة على حضرة العمدة ، سألنى .

– يبدو أن البدلة لزوم العمل السياسى ياعباس !!! عمران خلع الجبة والقفطان ولبس البدلة .

ضحكت . قلت :

– أنزل فى فندق فى البلد ، والبدلة تسهل لى أمورى .

سألنى :

– أين ؟!

كنت أتوقع سؤاله . أخرجت له ورقة وعليها عنوان فندق الأمراء بباب الحديد . ومكتوبة بخط عامل فى الفندق وليست بخطى ، وكنت أحتفظ بها فى جيبى .

لمعت عيناه ، قفزت فيهما فرحة على الرغم من أنه لم يمد يده ، وترك الورقة أمامنا على الترابيزة . استربت . ادركت أن ملازم أول حسن طلعت فى مديرية الجيزة يلاحقه بالأسئلة عنى ، وأخذت حذرى فى الكلام . سألنى عن غيبتى . قلت:

– مشغوليات فى مديرية التحرير . وسوف تنتهى قريبا .

سألنى عن عودة اللواء محمد نجيب . قلت :

– الأزمة لاتزال تشغل مجلس قيادة الثورة . والسؤال هو هل يسمح لرجال الأحزاب فى دخول الانتخابات أم لا ؟!

قال لى خائفا :

– اللواء عويس أجل سفره إلى الخارج للعلاج . وسكرتيره عبد الواحد افندى يقول إنه سوف يرشح نفسه فى الانتخابات عن المستقلين .

قلت له شيئا غامضا عن الإقطاع ، وأن الثورة مستمرة على الرغم من المؤامرات .

استمع لى . عصر جبهته بيده كعادته عندما يسعى إلى التفكير فى مسألة عويصة ، أنا واثق أنه لم يفهم شيئا من كلامى ، سوى قولى : الثورة مستمرة . وسوف يخرج إلى المزارعين بعد ذهابى ليقول لهم فى السر والعلن ، الثورة مستمرة بإذن الله .

سألنى عن الإخوان المسلمين . قلت :

- مساكين لا يتعلمون من دروس التاريخ . ويتعرضون لحملة ظالمة .

خاف من قولى ، سألنى :

- هل حقيقة ، الإخوان المسلمون يؤيدون اللواء محمد نجيب ضد جمال عبد الناصر .

قلت له ضاحكا :

- الإخوان المسلمون يعملون من أجل مصالحهم ، تارة يؤيدون محمد نجيب ضد جمال عبد الناصر ، وتارة يؤيدون جمال عبد الناصر ضد محمد نجيب . وأكثر من يعرفهم جمال عبد الناصر .

قال :

- معك حق .

لا أعرف إذا كان قد قالها مجاملة لى ، أم أنه يوافقنى .

قلت :

- الجماعة وصيتك ياحضرة العمدة . مصالحى مصالحك .

أجابنى خائفا :

- يا ولد عمى اترك السياسة . وعد لنا .

قلت :

- الجماعة وصيتك .

قال :

- فى عينى وعلى رأسى .

فهمنى . أردت أن أطلعه على خططى بطريقة غامضة ، حتى لا يلومنى فيما بعد ، فنحن أولاد عمومة وزوجته «ستهم» ابنة عمى. ومهما قيل عن نذالته ، فالقرابة قرابة ، والحكومة حكومة . قد يخبر الملازم حسن طلعت بذهابى فور ركوبى عربة الشرطة العسكرية . لكنه لن يقول له أبدا ، إننى أستعد للهروب .

قمت . طلبت منه الإذن بزيارة «ستهم» . أذن لى . قال لى :

- فى انتظارك .

وقبل خروجى . قال :

- خلى بالك من نفسك يا ولد عمى . العسكر يدهم ثقيلة .

قالها من قلبه . بعيدا عن شغل الحكومة ورأيته يمزق الورقة وهو يغمز لى بعينه ، ففهمت مراده .

عاتبتنى «ستهم» على غيبتى . قلت :

- مشاكل يابنت عمى .

قالت :

- الشاى جاهز .

قلت :

– لا وقت . هما كلمتان . كيف الصحة ؟!

تقف مفرودة . سامقة . شعرها مفرود وسايح على كتفيها . وجهها متورد. أبيض مشرب بحمرة خفيفة وكأنها امرأة رومية . هالة من الجمال تحيط برأسها وتنفذ من عينيها الواسعتين . إذا تكلمت تحركت غمازة سوداء ، وجعلت الكلام يخرج من شفتيها المكتنزتين وكأنه الابتسام ذاته ، قالت :

– طبت يا ولد عمى من الحساسية . زرت طبيبا فى مديرية الجيزة ، ووصف لى دواء مثل دواء الدكتورة صباح .

فرحت لراحتها . قلت :

– مبروك يابنت عمى .

أخفت نصف وجهها بشالها ، قالت :

– وفى نفس العمارة زرت طبيب أمراض نساء ، وأجرى لى عملية «كحت» ووعدنى خيرا .

قلت :

– خير ما فعلته يابنت عمى . وإن شاء الله الولد فى الطريق .

ضحكت . بانت فرحتها .

عيناها هما منابع الصبا الغابر . دقات الخلخال فى قدميها فيها رنين السنين بحلوها ومرها . إذا تحركت . اهتز الخلخال فى قدميها وهمس بشىء . شىء يفوق الكلام . رأيت أمامى جبلا عاليا وعلى صعوده خطوة خطوة ومخاطر كثيرة تنتظرنى عند الهبوط .

قالت :

– ابق معنا ياعباس .

المشاورات بيننا وبين اليوزباشى أنور عرفة بلغت طريقا مسدودا ، وقد أخذت الحكومة تعد لضربة واسعة . قلت :

– مهمة وتنتهى .

وأكملت :

– الجماعة فى رقبتك ياستهم .

ضربت على صدرها . قالت فزعة :

– ارجع يا عباس .

ترقرقت الدموع فى عينيها . أسرتنى . ودعتها . عدت الى حضرة العمدة . ودعته وقبل أن أركب عربة الشرطة العسكرية . ناديت على ابن «عويضة أبو حسنين» ، اعطيته العشرة جنيهات فى السر ، وهمست فى أذنه باسم صديق لنا فى مستشفى الصدر . طلبت منه أن يحفظ اسم الرجل ، ويذهب إليه سائلا المشورة . وهو سوف يقوم بالواجب مع الأطباء . طلبت منه أن يخفى أمر هذه النقود عن أبيه . فهو رجل ويحفظ السر .

قلت :

– ياحضرة الأمباشى توكل إلى وسط البلد .

وتحركت العربة بنا .

الغيبة عن الأحبة أسهل من الفراق .

زهيـــة

(٤٨)

صعدت إلى غرفتى ، وتركت الباشا واقفا فى البهو بمفرده ، وسدت ابنى فى السرير وغطيته ، صرخ ، لا أعرف من الجوع أو من النزول والطلوع به فى هذه الساعة ، ألقمته صدرى ، وحضنته .

وضعت جسدى على السرير ، لكننا لا ننام ولاننعس ، إذا سمعنا الجرس جرينا إلى غرفة الدكتورة .

ساعتان أو ثلاث ويحل الصباح ، وبقيت صاحية ، وابنى رضع رضعة أو رضعتين وراح فى النوم .

قمت . وضعت شالا على كتفى ، ونزلت إلى الباشا ، أعد له شيئا ساخنا يساعده على النوم .

تركت لها ابنى ، غير خائفة من تقلصات يدها أو تشنجها ، هى أمه والأم لاتتشنج على وليدها أو تقبض عليه وتقتله كانت الممرضة الأنجليزية خائفة والطفل على صدرها ، لكننى لم أكن خائفة عليه منها .

يا روحى عندما أحسست بالنوبة ، تركته ، طلبت إبعاده عنها وفركت يديها

وصرخت . كالطلق الذى يمزق أحشاء المرأة ولا يضيع حتى ينزلق الطفل . النوبة تخرج منها النفس الفاسد ، لكن الباشا كلما جاء ت نوبة، تشاء م، وأخبر الأطباء ، ولا يهدأ حتى تفارقها .

قلت : يا باشا . شىء ساخن .

تناول منى الكوب صامتا . لم يحدثنى ولم ينظر إلىّ كعادته ، بل رمى على نظرة، وغاب .

توجهت إلى المطبخ ، وعلى كرسى صغير ، جلست .

فرحتك يا زهية دائما ناقصة .. هلال ناقص لا يكتمل أبدا . كنت لا أرى الباشا من جلستى ، لكننى أحس وجوده . مسكين . أكثرنا حزنا وقلقا وأقلنا نوما . فى الليل أو النهار إذا دق جرس غرفتها ، رأيته أمامى على بابها . يسبقنا جميعا ، قلب الأب حنون .

السائق الذى صدمها يستحق الشنق . عربات الجيش تعربد فى البلد وأراها فى طريق المعادى تجرى دون ضابط أو رابط . القيادة ذوق وفن . لكن التكبر على خلق الله منذ حركة الجيش أفسدهم ، والله لو بيدى لنزعت عنهم الأشرطة والنجوم ، ليسيروا كخلق الله وعباده ولا يضعونها على أكتافهم إلا هناك فى معسكراتهم ، وليس وسطنا .

لكننى ضعيفة وجاهلة ولا أحد يسمعنى . والمصيبة أن عم محمد كلما حدثته فيما أصابنا ، قال لى كلمة أو اثنتين ، وسرح ، ينسانى، وليس على لسانه إلا : ما خفى كان أعظم .

مرة قال لى : مدبرة . مدبرة ثم أصفر وجهه ، وغاب عنى ، سألته . حادثة العربية مدبرة يا عم محمد ؟

نظر إلى فى جنون ، لا أدرى من الخوف أو الغضب . خفت عليه . وقال لى شيئا آخر .

قلت لنفسى . الحادثة ضيعت البرج الأخير فى مخه . عم محمد مخه كبير ويعرف أشياء كثيرة ، لكنه لايحدثنى عنها ، يحتفظ بها لنفسه .

لا أحد فى القصر يحادثنى ، يعرفنى ، ماذا جرى ؟ وماذا ينتظرنا ومتى تشفى الدكتورة أوديت لنا ؟

الباشا وحده هو الذى يسمعنى ، ويقول لى شيئا . يفهمنى . لكننى لا أجرؤ على سؤاله ، والدكتورة مكومة نائمة فى فراشها أو فى نوبة تشنج . المسكينة . ياعينى على شبابها وقلة بختها .

الفجر أذن . طاقات السماء مفتوحة ، أود أن أصرخ وأصرخ وأدعو على هذا السائق . لكنهم يمنعونى من الصراخ والبكاء والكلام . أفضفض لوحدى ودمعتى على خدى والحجر على بطنى .

لو كنت فى عزبة عويس ، لتحدثت وتحدثت وجمعنا اللت والعجن ومسك السيرة ، حتى أعرف الحكاية وأصلها وفصلها ومن صدم الدكتورة أوديت فى الليلة المشئومة .

أنا «حتة» شغالة . خدامة . دادة . ليس لى عيش فى هذا القصر . أنا أحب الحركة والكلام ، هنا هم لايتكلمون إلا بقدر . أسكن فى المعادى القديمة فى غرفة على السطوح أو البدروم . والناس لبعضها يا بنت والجيران تدردش . كلمة من هنا وكلمة من هنا . القلوب تحن وتفك عقدة اللسان .

نادى على الباشا . قال . زهية .

كنت أقف أمامه . قال . فنجان قهوة مضبوط يا زهية .

هذه ساعة النوم وليست ساعة القهوة ، ترددت ، لم أقل حاضر ، ولم أقل لا ، نظرت من باب الشرفة الذى يطل على الحديقة ، النور لايزال يصارع الظلمة . نظر إلى نظرة فيها رجاء ، مثل نظرة ابنى ، عندما يدعونى لألقمه صدرى .

قلت . حاضر .

هذه ساعة شدة يابنت . الباشا قلبه مكسور ، من له فى الدنيا بعد ابنته الوحيدة .

توجهت إلى المطبخ وأنا أبكى .

د . السيد أحمد باشا

(٤٩)

جلست فى البهو قلقا فى انتظار نزول صديقى الدكتور البنهاوى ، فهو أول من يهبط من الأطباء للحديث إلى والتخفيف عنى ، وإن كان يراودنى شعور غامض بأنه يسعى دائما فى حديثه إلى إخفاء الأزمات التى تمر بها ابنتى عنى ولا يصارحنى بها إلا بعد عدة أيام ، أما زميله الدكتور محسن الجندى فكلماته واضحة ، وقاسية ، ولا يؤجل شيئا إلى الغد .

الأزمات الخطيرة التى انتابت ابنتى فى الأيام الأولى عرفت بها من الدكتور الجندى وليس من أخى الدكتور البنهاوى . هما من مدرستين مختلفتين فى الطب

طال بقاؤهما فى جناحها ، وأول من نزل ، كان الدكتور محسن الجندى، أقبل على وسألنى :

– أليست للدكتورة أوديت اهتمامات سياسية ؟

قلت :

– ابنتى من المشتغلات بالسياسة وسبق اعتقالها عدة مرات .

قال :

– من رأيى أن نسمح لرفاقها بالصعود إليها .

قلت :

– أصدقاء ابنتى يعملون بالسياسة ، أحبهم إليها مزارع من عزبة عويس يدعى عباس أبو حميدة ، تقول عنه ابنتى ، أبى الثانى ، لكننى لا أعرف مقرا له .

أجابنى الدكتور محسن الجندى :

– اترك هذه المسألة لى . أطلب من مكتب الرئيس جمال عبد الناصر البحث عنه لأسباب إنسانية وليست سياسية . أنا من الفريق الطبى المشرف على صحة الرئيس .

قلت شاكرا :

– بارك الله فيك .

لم أقل له إن جمال عبد الناصر يأتى إلى زيارتى ، لكننى لا أقوى على سؤاله شيئا شخصيا .

عصرت ذهنى لمعرفة مَن مِن معارفى له علاقة بأصدقاء ابنتى ، ناديت على محمد الطباخ ، سألته :

– تعرف «عباس أبو حميدة» ؟

قال :

– نعم .

– قلت :

– ابحث عنه ولا تأت بدونه . الدكتورة أوديت تطلبه .

قال :

– حاضر .

لكننى واثق أنه سوف ينسى بعد عدة دقائق .

نزل الدكتور البنهاوى . سألته عن حالة ابنتى ، قال :

– هى لاتساعدنا .

ورفض التوضيح .

كنت لا أعرف فى السابق أن الدكتور محسن الجندى من المعالجين لجمال عبد الناصر ، وهذا أمر لن يخفى عن فطنة ابنتى ، وربما هذه هى المسألة التى تعطل تقبل ابنتى للعلاج .

بعد غيابهما عنى دهمتنى شكوك قاتلة ، وقررت زيارة الدكتور البنهاوى فى عيادته ، ومصارحته بالوضع ، وكيف فاتته هذه المسألة : وهو المعروف بفطنته واهتماماته السياسية الواسعة .

لاتساورنى شكوك من ناحية الدكتور الجندى . لكنها مسألة مريبة بالنسبة إلى ابنتى المريضة .

جمال عبد الناصر بمثابة ابن لى . صارحنى بإعداد الانقلاب بطريقة غير مباشرة فى الأيام السابقة لـ يوم ٢٣ يوليو ٥٢ وباركت خطته ، من يثق فى على هذا النحو لايخوننى فى ابنتى الوحيدة ، إننى على ثقة بأن الحادثة التى تعرضت لها ابنتى كان الغرض منها إزعاجها وبث الخوف فى قلبها وليس القضاء عليها بهذه الطريقة الوحشية .

غير أن ابنتى وهى تعانى من حالة انهيار عصبى وعدة كسور سوف تفسر

الأمر على نحو آخر .

ابنتى لن تغفر لى . سوف تقول لى صديقك البكباشى جمال عبد الناصر لايتركنى فى سلام ، وعيونه تراقبنى ساعة مرضى . تتلصص على فى لحظة ضعفى .

هذه مصيبة .

لى حساب عسير مع صديقى الدكتور على البنهاوى . .

د . يونـــس

(٥٠)

أول ما تناولت من صحف صباح اليوم ، جريدة المصرى .

العناوين مثيرة .

نجيب يؤكد قيام الجمعية التأسيسية أو البرلمان مباشرة . رسالة من القائمقام يوسف صديق للرئيس نجيب ، رأيه فى الظروف التى مرت بها الثورة حتى الآن ، اقتراحه قيام وزارة ائتلافية من الوفد والإخوان والاشتراكيين والشيوعيين برئاسة الدكتور وحيد رأفت لإجراء انتخابات للبرلمان الجديد .

انتهيت من قراءة العناوين ومضيت فى قراءة تصريحات اللواء محمد نجيب ، ولما انتهيت منها انتقلت إلى خطاب القائمقام يوسف صديق عضو مجلس قيادة الثورة السابق .

انتابتنى حيرة شديدة ، وأخذت انتقل من حالة الرضا إلى القنوط فى حركة بندولية ، وصورة ما ينتظرنا من أحداث غائمة على الرغم من هذه الكلمات المفرحة .

أول ما تبادر إلى ذهنى ، هو كتابة مقالة دفاعا عن الدستور ، لكننى نحيت

الفكرة عن خاطرى ، فأنا لم يعرف عنى الاشتغال بالسياسة أو تشجيع حزب معين ، وسوف تضيع هذه المقالة وسط زحام وهوجة من المقالات المؤيدة والمعارضة ، ولن تترك أثرا يذكر .

أدركت سر اعتقال رفيقى فى الجامعة الدكتور عوض ساويرس والأستاذ محمود أمين العالم قبل تطور هذه الأحداث بشهور ، فهما من رجال السياسة والكتابة السياسية، وكان اعتقالهما مع آخرين لإخلاء الساحة من الأقلام المعارضة الواعية .

هذه خطة مدبرة .

الفلاحون فى قريتنا تخلصوا من نير عدد من الإقطاعيين ، ووزعت عليهم أراضى الخاصة الملكية ، وعندما ازور القرية أرى ملامح الناس ولهجتهم ولغتهم قد تغيرت ، سرت فى أوصالهم شعلة من حماس . إقبال على الحياة كانت تفتقده فى السابق نفوسهم وقد حطت عليها كآبة أبدية منذ مئات أو آلاف من السنين .

من الواضح أن محمد نجيب أصبح يمد خطوطه إلى رجال الأحزاب وقدامى السياسيين فى معركته مع جمال عبد الناصر ، وأنه يسعى فى تصريحاته العلنية وفى مؤتمراته الصحفية إلى تكوين رأى عام معارض لحركة الجيش هدفه البعيد انسحاب العسكر إلى ثكناتهم .

للأسف لايمكن إمساك العصا من وسطها ، ولا توجد فى هذه الحالات إلا إما وإما .

استقالة اللواء محمد نجيب الأولى وزعت أو سربت إلى جماعة الإخوان المسلمين قبل أن يبت فيها مجلس قيادة الثورة ، وقد اعتقل جمال عبد الناصر عبد القادر عودة المحامى فور سفر محمد نجيب إلى السودان . ويقال إنه يتعرض إلى تعذيب شديد فى السجن بسبب تزعمه مظاهرة عابدين الشهيرة التى أرجعت محمد نجيب.

ويزعم المطلعون على بواطن الأمور أن جمال عبد الناصر يجرى صفقة مع جماعة الإخوان المسلمين فى المعتقلات للإفراج عنهم فى مقابل حصوله على تأييدهم له فى صراعه مع محمد نجيب .

مايجرى وراء الكواليس يصيبنى بالقرف . وكم من الجرائم ترتكب باسم الحرية .

أكثر ما يقلقنى هو ميل السلطة إلى استخدام العنف ضد خصومها إلى درجة ارتكاب الجرائم فى السر ، والحادث الذى تعرضت له الدكتورة أوديت يثير لدى تساؤلات كثيرة .

قال لى الدكتور شلبى القصاص ، إن الدكتورة أوديت كانت تتزعم جناحا فى الحركة اليسارية يؤيد محمد نجيب ضد جمال عبد الناصر ويطالب بعودة الجيش إلى ثكناته ووقع خلاف بينها وبين فريق من المعتقلين فى السجون وقد انحاز رفيقها عباس أبو حميدة إلى الفريق المؤيد لجمال عبد الناصر .

يبدو لى أن الدكتور شلبى القصاص أصبح متتبعا لمسارات الحركة اليسارية ، وانغمس فى هذه التجمعات . لمعرفة أخبار قرينه «عباس أبو حميدة» مزارع عزبة عويس .

اتفقنا على زيارة الدكتور السيد أحمد باشا والسؤال عن حالة الدكتورة أوديت ، غير أن الدكتور شلبى أخبرنى بعدها أن حالة الدكتورة أوديت لا تسمح بالزيارة ، وأنها تحت العلاج فى دارها فى المعادى ، وأن الدكتور السيد يعتذر عن عدم استقبال الزائرين .

تأكدت أمس أن الفتاة التى كانت تقود سيارتها فى الأسبوع الماضى وتجاوزتنى ، كانت الدكتورة أوديت ، فقد لمحت مستشفى للولادة فى شارع جانبى على مقربة من عمارتنا ، كنت لا أشعر فى السابق بوجوده ، وفى حركة طائشة

منى ، توجهت إلى المستشفى وسألت عنها . فقيل لى إن الدكتورة أوديت مريضة ، وقد توقفت عن المجىء لإجراء عمليات ولادة .

كان مظهرى يوحى بأننى زوج زوجة تعانى من آلام الوضع وفى حاجة إلى معونة سريعة . عرضت ممرضة على أسماء عدة أطباء متخصصين فى الولادة ، استمعت إليها متأملا ، وأنا أحس بالطربوش فوق رأسى يهتز ، وتزيد زاوية اعوجاجه ، شكرتها ، وتمنيت للدكتورة أوديت السلامة .

كانت هى ، وابتسمت لأننى عرفتها من جانب وجهها ، وقلت لنفسى هذا هو الحب . فى لمح البصر ، وقعت عيناى على سيارتها ، وعرفتها وهى تجلس إلى عربة القيادة . وانطلقت السيارة ، وفاتنى أخذ رقمها ، فقد تعلقت عيناى برأسها وشعرها وقد داعبته نسمة طرية من الخلف .

يدهشنى من الدكتور شلبى عدم إشارته فى أحاديثه معى إلى خالد القويسنى ترزى الأمراء الذى قبض عليه على الرغم من معرفته التى تعود إلى أكثر من نصف قرن ، وفاتنى سؤاله عنه . ليس من المعقول أن يهتم الدكتور شلبى بكل كبيرة وصغيرة يقوم بها قرينه عباس أبو حميدة المطلق سراحه والذى لا تربطه به معرفة سابقة ، ويتخلى عن صديقه خالد القويسنى ، ربما يتحاشى الإشارة إليه لسبب فى نفسه .

أحسست بالضيق وقد حل على قنوط مفاجىء، نحيت جريدة المصرى عنى واستغرقت فى كتابة مقالة دفاعا عن الدستور ، لكننى تركتها بعد كتابة أكثر من نصفها ، ومزقتها .

كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة صباحا ، تناولت التليفون ، وخاطبت الدكتور شلبى ، سألته ، قلت :

- قرأت المصرى اليوم ؟

أجابني ، قال :

– نعم .

سألته ، قلت :

– ما رأيك ؟

أجابني . وضحكته تملأ سماعة التليفون ، قال :

– هذه عند رجال المسرح يطلق عليها رمية القفاز .

قلت :

– زدني علما .

قال :

– حين نلتقي ، ما رأيك في جروبي في الساعة الحادية عشرة ؟

قلت :

– اتفقنا .

وضعت السماعة ، أمامي ثلاث ساعات ، لامفر من كتابة مقالتي ، وإلا صرعني الوقت ، وقضيت بسبب الوحدة .

لايهمني نشرها بقدر فعل الكتابة نفسه ، وربما أضيفها إلى مذكراتي فيما بعد .

عباس أبو حميدة

(٥١)

طعم الأيام كالعلقم في فمي . وضعنا حكامنا في صراعهم على السلطة أمام خيارات صعبة ، وكانتا في لعبة جوكر . نقامر على مواقف متطرفة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ، كأن الديموقراطية نقيض الإصلاحات الثورية ، وكأن العودة إلى الوراء خطوة إلى الأمام .

الدكتورة أوديت أعلنت الحرب على العسكرتارية ، وعملت على تأييد محمد نجيب ضد مجلس قيادة الثورة على طول الخط ، وقسم من الموقعين على بيان السجن الحربي يتهمون من يعارض جمال عبد الناصر وزمرته بالخيانة .

في البداية اختلفنا ، وبعدها انقسمنا ، ثم تبادلنا الاتهامات ، وأخيرا اتفقنا على أن نؤيد الديمقراطية وندافع عن الإصلاحات والمكاسب التي تمت ، ونتحمل شتائم وادعاءات الجماعات الأخرى المعادية .

سعى في البداية يوسف صديق لتعبئة الطبقة العاملة ، وأوقعته قلة الخبرة وسوء الحظ في براثن الصاوي أحمد الصاوي رئيس نقابة عمال النقل المشترك .

حذرت الدكتورة أوديت طويلا من هذه المجازفة ، لكنها شغلت نفسها

بالإعداد لمظاهرات لطلبة الجامعات فى أواخر مارس وأرادت أن نضم العمال إليها ، دفاعا عن الديمقراطية وعودة الحياة النيابية .

قلت لها ، الطبقة العاملة لها قيادات معروفة ولا يصح تجاوزها فى هذه الظروف العصيبة .

قالت لى : القائمقام يوسف صديق يثق ثقة كاملة فى الصاوى أحمد الصاوى رئيس نقابة النقل المشترك، وإذا أوقف الصاوى أحمد الصاوى وسائل المواصلات شل البلد ووضع مجلس قيادة الثورة فى مأزق شديد .

قلت لها من واقع خبراتى برؤساء النقابات :

– أنا لا أثق فى هذا الرجل .

لم تسمعنى .

أصبحنا نختلف فى التفاصيل وليس فى العموميات فقط . هدتنا الأزمة ولما أصيبت فى الحادثة ، ادعى البعض أيضا أنها من تدبير المعارضين لها فى الحركة اليسارية ، وأن الخيانة قد دبت فى النفوس إلى درجة تسليم خالد القويسنى ترزى الأمراء ومحاولة اغتيال الدكتورة أوديت .

قيل الكثير عن اتصالات سرية بيننا وبين اليوزباشية أنور عرفة وشهدى الشتشاوى وعلاقتنا بجمال عبد الناصر ، لكن التلويح بتدبير اغتيالات والزج باسمى لهو مصيبة كبرى .

أصيبت المسكينة بصدمة عصبية بعد حادثة العربية ، وحالتها فى تأخر وقد أوقعها اليأس والشكوك وربما الإرهاق الشديد فى الشك والقنوط فى ساعة الأزمة ونحن فى أشد الحاجة إليها . إلى شجاعتها ورجاحة عقلها ، إلى إخلاصها الشديد .

أخبرنى الصديق أمين عز الدين رئيس إدارة النقابات بوزارة الشئون الاجتماعية والعمل أنه قد اتفق مع معظم رؤساء النقابات على عدم الاضراب وأن

فتحى كامل قد عقد اجتماعا لهم وأصدروا بيانا يطالب بلم الشمل وعدم الفرقة بين مجلس قيادة الثورة واللواء محمد نجيب .

لكن ترتيب الأمور وهى ساكنة غير ترتيبها وهى متحركة تفور . انتقل الصاوى أحمد الصاوى من معسكر محمد نجيب إلى رجال جمال عبد الناصر ووضع نفسه تحت تصرف أحمد طعيمة وابراهيم الطحاوى فى هيئة التحرير .

أخل كامل العقيلى باتفاقه مع أمين عز الدين وانتقل إلى جانب صديقه أحمد طعيمة بل هو صاحب فكرة اعتصام رؤساء النقابات فى أرض شريف حتى الموت تأييدا لمجلس قيادة الثورة ضد محمد نجيب .

كامل العقيلى رجل النوبة الشهم ، والزعيم النقابى المرموق ، الشجاع . لايمكن اتهامه بالخيانة كما يفعل المثقفون ، انه بشر ، وقد فضل الصداقة على إعمال العقل ، وربما اتبع أحاسيسه على حساب التحليل السياسى ، فجمال عبد الناصر أقرب إليه من محمد نجيب الذى يغازل الوفد وقدامى السياسيين ويتفق مع جماعة الإخوان المسلمين .

كانت الإذاعة تذيع أخبار اعتصام رؤساء النقابات ، قلت لمحدثى لايهم اعتصام هؤلاء ، المهم أن يخرج العمال فى الصباح الباكر بمركبات الترام واتوبيسات النقل والقطارات .

أعددنا خريطة بكل جراجات القاهرة والجيزة، وكان محمود فرغلى وزكى مخيمر يرفضان تعطيل الترام ، وكذلك عبد العزيز الجندى وسيد مصطفى، وأقسم محمود فرغلى أن عربات الترام لن تتوقف إلا على جثته .

فى الصباح سارت عربات الترام وخرجت من الجراجات فى المواعيد وكذلك عربات مترو مصر الجديدة، وذهب الناس إلى أعمالهم فى مواعيدهم ، هذه لحظات خالدة فى عمر الطبقة العاملة . لكننى كنت على يقين بأنها لن تدوم إلى الغد ، وأن جمال عبد الناصر سوف يلعب بآخر أوراقه ، الجيش .

كنت على مقربة من ميدان العتبة ، وجدت صراعا وحشيا بين مجموعات من الكمسارية والسائقين وبين جماعات مسلحة بالعصى والمطاوى ، ورأيت محمود فرغلى يقاوم ويهتف والدماء تنزف منه وقد أوشك على السقوط تحت أقدامهم .

كنت قد رأيت عربات الجيش فى الحوارى الجانبية ، وكان واضحا لى أنهم جنود من الجيش والبوليس الحربى .

اندفعت فى الزحام ، وفى لحظة خاطفة ، تناولت مسدسى ، وأطلقت رصاصة فى الهواء ، وصرخت صرخة مدوية ، وكأننى واحد من الضباط المتخفين:

- قف يا عسكرى .

وحملته على كتفى وسرت به إلى مقهى قريب وهو بين الحياة والموت .

فى صوت متحشرج ، وعيناه فيهما ثبات الموت ، قال :

- هو أنت يا رفيق عباس .

كنت أطلب من الجنود معاونتى ، قلت بصوت جهورى :

- اللواء .

صمت ، أخذت ألقى بالأوامر عليهم ، وفر معظم الجنود، وبقى حولى جماعات من الناس والطلبة، ساعدونى فى حمله إلى المقهى ، لمحت واحدا من الرفاق ، طلبت منه العناية به .

دخلت دورة المياه فى الزحام ، وخلعت عنى الجلابية، وكنت ارتدى تحتها البدلة التى تسببت فى القبض على ترزى الأمراء ، وغادرت المقهى على عجل متجها إلى ميدان الاسماعيلية ، بحثا عن رفاق لنا لتدبير طريقة لمداواة الجرحى من الكمسارية والسائقين .

كرامة

(٥٢)

استدعانى اليوزباشى شهدى الشتشاوى إلى مكتبه فى هيئة التحرير ، كان فى عجلة من أمره ، واستقبلنى مرحبا ، وسألنى عن عزبة عويس وأحوالها ، وفجأة عرج إلى السؤال عن صلتى بالأميرة جويدان وأبيها اللواء عويس .

كنت قد بدأت أتردد على قصر اللواء عويس باشا لمساعدته فى حملته الانتخابية بالتنسيق مع القيادات الوفدية والزعامات القديمة ، وهمى الأول ليس الانتخابات ، ولكن الوجود على مقربة من حبيبتى ، الأميرة جويدان .

لم أكن خائفا منه فالبلد كلها هائجة، وأدركت أنه يود مساومتى على شىء لم يكشف عنه ، ويتركه عن عمد إلى نهاية لقائنا ، فليس من المعقول أنه يستدعينى لمقابلته ، وسط كل هذه العواصف دون سبب معقول ، وأعددت نفسى للمساومة ، بل وابتزازه أيضا .

حدثنى عن الثورة ، وتوزيع الأراضى الزراعية ، وتحرير الفلاحين من سطوة كبار الملاك ، وذكرنى بجلد اللواء عويس لى قبل حركة الجيش وضرورة تراص كل الصفوف للدفاع عن الثورة .

استمعت إليه صامتا . انتظرت أن يدخل فى الموضوع بعد هذه المقدمة ، لكنه قال لى :

– اللواء عويس قرر الانسحاب وعدم ترشيح نفسه فى الانتخابات ، بل والسفر إلى الخارج .

سحقنى قوله . هذه مفاجأة كاملة لى ، كان اللواء عويس قد أعلن عن وقف اجتماعاته بسبب وعكة صحية لمدة ٢٤ ساعة ، واتخذتها فرصة للابتعاد عن عزبة عويس والإقامة فى المدينة الجامعية لمعرفة بقية الاتجاهات السياسية السائدة فى البلد .

هؤلاء الكبار ليس لهم كلمة . وزن اللواء عويس مصالحه ، وقرر الهرب تاركا أعوانه فى الظلام يواجهون حركة الجيش .

لم يترك لى اليوزباشى شهدى الششتاوى مجالا للمساومة ، لكننى قررت المقاومة وعدم الطاعة ، ورأيت أن أستمع إلى عروضه .

سألنى متوددا :

– ألا تود السفر فى صحبة اللواء عويس والأميرة جويدان إلى ألمانيا .

توقفت قليلا عن الإجابة . لم أظهر أمامه لهفة على السفر أو شوقا إليه ، وإن كنت قد أدركت أن فرصتى فى المساومة تضيق فى كل لحظة ، فعروضه سخية. يقدم لى حلما من أحلامى ، ينقلنى من عزبة عويس إلى ألمانيا مرة واحدة .

سألت نفسى ، ماذا يطلب فى مقابل هذه الخدمة ؟ فى مقابل هذا الحلم ؟ لا شىء فى هذا العالم دون مقابل ، والضباط لايوزعون الأحلام . هل يطلب منى اغتيال اللواء عويس أو دس السم له .؟

انتقل فجأة إلى الحديث عن الغضب الكامن فى نفوس الناس واستعدادهم

للموت فى سبيل الدفاع عن الثورة ، قال :

– المظاهرات سوف تملأ البلد ، دفاعا عن الثورة.

صمت عن عمد . قال :

– أنت لك خبرة فى قيادة الناس فى المظاهرات . دورك معروف يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ .

قلت له ضاحكا :

– كنت صغيرا .

أشار فجأة إلى زهية من طرف خفى ، قال :

– زهية وضعت ابنا أسمته محمد نجيب .

اصفر وجهى . هذا ابنى . ابنى . كدت أصرخ قائلا :

– ابنى من صلبى . من لحمى ودمى .

لكننى صمت .

أعدت كافة التوقعات فى ذهنى . اليوزباشى شهدى الششتاوى من كبار الضباط الذين يشغلهم مصير حركة الجيش هذه الأيام ، وأنا طالب فقير لا حول له ، وزهية عاملة تراحيل هربت لتدارى عارها بعد الحمل ، فماذا يهمه فى هذه القصة القديمة التى تشبه الأفلام المصرية العادية ؟

هذا رجل مدرب ، والحوار معه ليس سهلا . ألقى بمفاجآته على مسامعى واحدة تلو الأخرى، فهدنى ، يداعبنى مداعبة القط للفأر قبل القضاء عليه .

قلت لنفسى ، غاضبا من تسيبها ، أنت غشيم يا كرامة ، غشيم . تظن أنه فى مقدور مواطن فقير ابتزاز السلطة . السلطة رحى دائرة من يدخل بين شقيها هالك . هالك .

انتظر أن يطلب منى شيئا، لكنه صمت، يدفعنى لأزج بنفسى بين شقى الرحاية الدائرة بنفسى . قلت فى سرى لنفسى، وكأننى أحادث شخصا آخر . شخصا غريبا عنى : مصيرك الجنون أو الانتحار يا كرامة .

سألنى :

– ما رأيك ؟

فقت من خواطرى . رأيت حبلا أمامى . حبلا وهميا ، وعلى بعد بعيد منى بحيرة واسعة ونارا مشتعلة فى ضفتها البعيدة عنى ، وشفقا أحمر يغمر الكون بأسره ، وأنا اندفع نحو البحيرة ، لا أدرى طائرا أو زاحفا على ركبتى . هذا هو الجنون .

قال :

– أعتقد أنه من الواجب قبل السفر فى صحبة الأميرة جويدان إلى المانيا إنقاذ زهية من استعباد أحمد باشا وابنته الدكتورة أوديت . حركة الجيش تدافع عن بسطاء الناس . مضى عهد العبودية والرقيق .

قلت له فى حماس :

– نعم .

لم تفتنى إشـارته إلى سـفرى فى صـحبة الأميـرة جويدان إلى ألمانيا ، فوافقته على قوله دون تردد ، وهل فى استطاعتى التخلى عن مساعدة زهـية ابنة عزبة عـويس ووو ... أم ابنى محـمد نجيب ، وإن كنت لا أعلن عن أبـوتى له .

سألنى :

– هل معك جواز سفر .

أجبت بالنفى ، طلب منى تزويده بأربع صور ، وأن أترك الباقى له .

سألنى :

– ما رأيك فى الدراسة فى ألمانيا ؟

قلت مبتسما نصف ابتسامة :

– هذه أمور سابقة لأوانها .

وافقنى : قال :

– معك حق .

قدم لى ورقة مكتوبة ، طلب منى قراءتها والتوقيع عليها ، وضعت توقيعى وأنا أمر على الكلمات مرا سريعا . هذه شكوى ضد الدكتور السيد أحمد باشا وابنته الدكتورة أوديت واتهامهما باختطاف فتاة فقيرة من عزبة عويس ، وطلب انقاذها ، مع عدة جمل مديح فى حركة الجيش التى لاتسمح باستغلال الناس .

وقعت عليها وأنا أمر على الكلمات لأننى لو تريثت قليلا لأفكر لرفضت التوقيع عليها فالدكتورة أوديت كانت ضيفة «عباس أبو حميدة» ، وعالجت المزارعين سرا ، ووالدها من أساتذة الجامعة المرموقين ، ومن المستقلين أيضا الذين لايمكن اتهامهم بالفساد السياسى .

وقعت .

استرحت من هذا العذاب . سوف أسافر بعيدا وأبعد بنفسى عن هذا القلق .

قلت فى لهجة أقرب إلى التوسل :

– أرجو عدم الاستفادة من هذه الورقة أو إبرازها قبل سفرى إلى ألمانيا .

قال :

أترك لى هذه المسألة .

قلت متبجحا .

– هذه المسألة تخصنى .

تجاهل ملاحظتى ، ووضع الورقة فى الدرج ، قال :

– المظاهرات سوف تهز القاهرة غدا . هذه هى فرصتك .

قالها لى ونظراته كلها حزم ، كأنه يقول لى ، صبرت عليك طويلا ، لهجته فيها من التهديد أكثر من الترغيب ، أدركت أننى قد وقعت فى الشرك، وأصبحت على شفا البحيرة المحترقة ، قلت :

– طيب .

قال :

– المظاهرات سوف تنطلق من ميدان الاسماعيلية ، العمال يدعون لاضراب عام لكافة وسائل النقل .

كنت أقامر بكل شىء . بنفسى ، قلت :

– مفهوم .

كنت قد أصبحت كالخرقة الممزقة بين يديه . يلوح بها يمينا ويسارا، وقد فقدت القدرة والرغبة فى المقاومة أو الاعتراض ، تركت له نفسى ، وأعطانى الحلم، البحيرة الواسعة التى تحترق ضفتها البعيدة ، يتركنى أرحل فى ركاب الأميرة جويدان التى تسمح لى بالحديث إليها ، وفى بعض الأحيان تتركنى أمسك يدها لعدة لحظات ، أما ابنى وزهية فلهما الله .

البلد تحترق . وأنا سوف أشعلها ، أقلب عاليها واطيها ، بى رغبة دفينة للتدمير . هذه هى مركبات الترام وعربات الأتوبيس . السائق الذى لايتوقف ، ننزله ، يضربه جنود الشرطة العسكرية المتخفون كعمال وفلاحين ، أما أنا كرامة سرحان . الطالب الجامعى بقسم اللغة الانجليزية ، فليست لى طاقة على الشجار ، والضرب ، لكننى ، أهوى أشعال الحرائق .

من لا يتوقف ، نضربه ، وأشعل فى مركبته حريقا .

أتركه بعدها ، وأتوجه إلى مركبة أخرى .

ما أسهل ايقاف خطوط الترام .. عربة وأخرى ، ويتوقف الخط أما سائقو عربات الاتوبيس والتاكسى ، فهم جبابرة، عفاريت ، من يقترب من السائق منا ، تناله ضربة من عمود حديدى تهشم وجهه ، تسيح دمه ، وتندفع العربة بعيدا وكأنها قذيفة .

هؤلاء السائقون حمقى . قالت الحكومة ، إضراب ، لماذا يعارضون الإضراب ؟

كلهم عباس أبو حميدة . عنادهم كفر ، وقلة العقل فيهم طبيعة ، الفقر يا كرامة يورث قلة العقل .

انتقل من محل «استرا» إلى إيزائفتش إلى قهوة البرابرة . أصبح لى أعوان . نضع الخطط ، نراقب مداخل الطرقات ، نتجمع ، نجرى . نهتف بحياة جمال عبد الناصر وسقوط الإقطاع والأحزاب .

أدليت بأحاديث وحوارات مع خواجات لإذاعات عالمية ، دافعت عن حركة الجيش . قلت ، أنا من عزبة عويس . جلدنى اللواء عويس مائة جلدة على ظهرى . هذا هو الإقطاع . حررتنا حركة الجيش .

تورطت . طلبت الإعادة . رفضت المذيعة البريطانية . أقنعتها ، أنا أتحدث الأنجليزية ولن تجد غيرى . مسحت إشارتى للواء عويس وعزبة عويس . قلت . هذا مجتمع النصف فى المائة يود السيطرة من جديد . حركة الجيش قد خلصتنا من عذابات . مذيعة خبيثة ، تسألنى ، عن الديمقراطية ، تلح على هذه النقطة ، أداورها ، لا ديموقراطية دون تعليم ، لاديموقراطية دون خبز ، لاديموقراطية دون مساواة ، لا ديموقراطية مع الاحتلال .

تسألنى عن جرح فى جبهتى . هذه ضربة من عمود حديد ، أقول ، أقول . ترفض أقوالى ، تسألنى . السائقون ليسوا من أعداء الشعب . هم مواطنون فقراء ، يدافعون عن الديموقراطية ، لماذا نحرق عربات الترام ؟

تسألنى ، كم قبضت من هيئة التحرير والحكومة ؟

عند هذا الحد أرفض الإجابة على أسئلتها .

أمامى مهمة . السيطرة على ميدان الاسماعيلية .

الإضراب التام أو الموت الزؤام .

تراكمت أعداد عربات الترام الواقفة على الخطوط . سدت الطرقات . سدت منافذ الميدان .

الإذاعة تذيع أخبار الإضراب . نصفق نهلل نهتف .

هذه لحظات فريدة . تذكرنى بيوم ٢٦ يناير ٥٢ . كنت أحطم ،، أحرق . عملت يومها بمفردى . ليس دفاعا عن حكومة أو ملك ، وأصابنا ما أصابنا ، قبض على والدى ، ومات فى السجن ، أما هذه المرة ، فانا أعمل من أجل حركة الجيش ، ومجلس قيادة الثورة . لست وحدى . الحكومة معى .

قال لى اليوزباشى شهدى الشستاوى. هذه فرصتك .

علمت أنه وزع نقودا ، لكننى أود شيئا أكثر من النقود ، هذا جرح جبهتى دليل ولائى .

هى قفزة على السائق . أشده من رأسه . أفتح باب عربة التاكسى . أتعلق بها ، أرى نفسى إلى جوار الأميرة جويدان فى أرض أخرى . حولى شقراوات ، آكل حتى أشبع . أسحب قدمى الأخرى . أتعلق بالعربة . يندفع بى . يطير . دورة وأخرى ويتوقف . يحيط به الآخرون . يركن على الرصيف أو وسط الطريق ، يفرغ الصغار إطارات العربة من الهواء . يقف ساكنا . هامدا . البهيمة إذا رأت دماء قبل ذبحها تصيبها صرعة عصبية . تجرى تحطم . ترفس . وبعدها تقف مستسلمة لقدرها ، للسكين .

آه .

مارس أقسى شهور السنة .

ينبت الزنابق من الأرض الخراب .

يخلط الذكرى بالشهوة ، يثير الجذور

الحزينة ، تحت أمطار الربيع .

عربات الترام والأشجار متربة .

قدماى فى قصرها ،

وقلبى أسفل قدمى.

وبعد الحادث بكى ،

ووعد ببداية جديدة ،

لم أعلق ،

فعلى أى شيء ألومها.

أى والله مارس أقسى شهور السنة .

نشرب شيئا ، يوزعون السجائر . معهم جنيهات جديدة . جنيهات عفية خارجة من البنك لتوها أما علبتى فهى على وشك النفاد .

بى جنون .

أقف متأملا الميدان وقد سكنت حركة العربات . سدت المنافذ ، البشر يتحركون فى دوائر . أسقف العربات تلمع تحت شمس الضحى ، وهى واقفة . هذه لحظة نادرة .

الميدان مقبرة سيارات كالأرض الخراب .

نحن الرجال الجوف ، وبالقش حشيت رءوسنا .

فوا أسفاه .

عباس أبو حميدة

(٥٣)

فجيعتى كبيرة . كبيرة .

فهيـــمة

(٥٤)

وصل التاكسى بنا إلى عزبة عويس لكننى قلت للسائق ننزل عند بيت حضرة العمدة يا أسطى . لكزنى زوجى بكوعه . قلت . كلمة ورد غطاها مع خاله ستهم . سكت وتركنى فى حالى .

نزلنا وفى أيدينا أكياس وحوائج كثيرة اشتريناها من مصر . تركتها كلها له ، وجريت نحو بيت العمدة .

خبطت على الباب ، واندفعت وأنا أنادى ياخالتى ستهم . سألتنى ، ماذا بك يا فهيمة ؟ هو الزواج قل عقلك يابنت !!

صدرى ينهج من الفرحة والجرى . قلت : رأيت اليوم زهية . رأيتها بعينى . غيرت لبسها . قصت شعرها . ووشها دور .

سألتنى : أين ؟

قلت : فى وسط البلد . عند محلات الزراير قرب الإذاعة .

سألتنى : كلمتيها ؟

قلت : لا يا خاله .

طلبت منى الجلوس . قالت : رسينى . زهية حية ولا ميتة ؟

قلت : حية . أحلف على النعمة .

سألتنى : ولماذا لم تكلميها يا بنت ؟

أخفيت وجهى بالشال . قلت : كيف أكلمها يا خالة وهى وسط الباشوات والبكوات .

اصفر وجه خاله « ستهم » ضربت على صدرها . قالت : يا مصيبتى . نابها المقدر والمكتوب على البنات .

قلت : لا يا خاله . زهية تشتغل ندابة . رأيتها تسير وراء النعش . طولها بطول الرجال الملعونة . تلمسه . وتندب . تقول كلام يقطع القلب وصوتها يرن فى البلد والشارع هس . هس . جعلت دمعتى على خدى .

قالت ستهم : زهية عايشة . طمانتينى . لكن ندابة ، كيف ؟ احكى من الأول يا فهيمة .قلت : الأسطى أخذنى بالقوة إلى وسط البلد . قال : أنت عروسة ويلزمك حاجات . ذهبنا . اشترينا حاجاتنا . بعدها . قال الأسطى ، ينقصنى زرار وقع من القفطان . رحنا لمحلات الزراير عند الإذاعة . بحثنا عن زرار بلون بقية الزراير فى المحلات . سمعت صوتها من بعيد . وقفت فى المحل . سحبت زوجى . خرجنا . مشينا إلى نهاية الشارع لنطل على الشارع العمومى . كانت الجنازة قادمة ، وصوت زهية يملأ الطريق . ولما مر النعش علينا ، رأيت زهية تتمسح فيه ، طولها يساعدها ، ولابسة أسود فى أسود . تندب شوية . وتصرخ شوية . وتعرى شعرها القصير ، وتشلشل بالشال وتفرد ذراعيها . الأسطى سحبنى من يدى . قال : هذا كفر . كفر بين . دمعتى نزلت . بكيت على زهية وما جرى لها . الندب كفر .

سألتنى : جنازة مَنْ يا فهيمة ؟

قلت : شابة . بنت بنوت . دكتورة وأبوها باشا واسمها واسمها ..

هبت خالة ستهم واقفة . قالت : أوديت . قلت : أيوه .

لطمت خدودها وعرت رأسها وصرخت . أفزعتنى . خفت على النطفة فى بطنى تسقط . قالت : على بيت ولد عمى «عباس أبو حميدة» يابنت . جريت خلفها . خرج حضرة العمدة والغفراء على الصراخ ، وهى تصرخ وتصرخ كالمجنونة . وأنا ليس عندى خوانة . قالت : صباح . الدكتورة صباح ماتت . ولما وصلنا دار خاله نفوسة بنت الشامى ، كانت العزبة تصرخ وتندب . الدكتورة صباح ماتت .

جرى ورائى الأسطى . شدنى من شعرى . قال : ماذا جرى يا بنت ؟ قومتى حريقة فى العزبة ؟

زوجى غريب عن العزبة ولا يعرف الدكتورة صباح . قلت : اتركنى . صرخت فيه .

استقبلتنا خاله نفوسة بالصراخ ، وصلها الخبر ونحن فى السكة .

صرخ حضرة العمدة . قال : جرنال يا أولاد . أخرج زوجى الجرنال من كيس من الأكياس . فرد العمدة الجرنال . قرأ . قال : البقية فى حياتكم .

فتحت خاله نفوسة بنت الشامى دارها للحريم . قال حضرة العمدة : ولد عمى عباس أبو حميدة مسافر . المعزى عندى فى المندرة . الرجال عندى ، والحريم هنا .

توجه زوجى مع حضرة العمدة ، ودخلت أنا دار خاله نفوسة ، وستهم تصرخ وتقطع خدودها ، ونحن نصرخ على صراخها ونقطع خدودنا .

د . يونس

(٥٥)

آخر ماكنت أتوقع سماعه هذا الضحى سمعته من قريبى اليوزباشى عباس الوهيدى . طلب منى ضرورة المرور عليه فى مكتبه الجديد فى عابدين ، وألح على إلحاحا شديدا حتى قبلت . هو من الضباط « الواصلين » المقربين من الرئيس جمال عبد الناصر ، ويبدو أن الأزمة السياسية التى هزت البلد فى مارس الماضى قد زادته قربا ونفوذا أيضا .

لم أره أو أسمع شيئا من أخباره منذ فصلى من الجامعة فى بداية هذا العام ، ورأيت فى دعوته إصرارا غريبا . فقبلت على مضض ، وكنت قد أمضيت ليلة قلقة للغاية ، ونعست قرب الفجر ، فقمت متأخرا ، وارتديت ملابسى على عجل، ونزلت .

روى لى قريبى شيئا من أسرار الأزمة ، وكيف حسم ضباط المدفعية الصراع لصالح جمال عبد الناصر ، والدور الذى لعبه الضباط الأحرار ، فى الوقت الذى فشل فيه رجال هيئة التحرير فى تجميع الناس لصالحه .

حدثنى فى أمور عديدة ، وقريبى له اهتمامات سياسية منذ صباه المبكر ،

وكان عضوا فى عدة تنظيمات يسارية قبل حركة الجيش ، وزوجته سونيا يقال إن لها نشاطات واسعة ، ومن الطريف أننا على الرغم من قرابتنا ونشأتنا سويا فى القرية ثم فى المركز ثم فى العاصمة كنا دائما على طرفى نقيض ، ففى الوقت الذى كان فيه عباس الوهيدى متحمسا للجماعات اليسارية كنت فيه أنا ميالا لجماعة الإخوان المسلمين ، ومتحمسا للنازى ، ومتأثرا بفلسفة نيتشه ، ثم التحق هو بالكلية الحربية ودخلت أنا كلية الآداب ، حيث تفتحت مداركى .

قلت له مازحا :

– انظر ما فعلت بنا الأيام . أصبحت أنت جزءا من العسكرتارية التى تحكم البلد بالحديد والنار ، وأنا من دعاة الليبرالية .

ضحك طويلا .

قال :

– الرئيس جمال عبد الناصر يؤمن بالديموقراطية ، لكنه يرى أن العدالة الاجتماعية لها الأولوية عن الحرية .

قلت له :

– طيب . سنرى .

كنت فى مكتبه ، حولى ضباط وجنود ، وكأننى فى ثكنة عسكرية ، وقلت لنفسى ، لم آت هنا لمناقشته فى السياسة ، فقد سبق لنا مناقشتها لعشرات من السنين فى صبانا وشبابنا المبكر ، وأصبح هو ضابطا وأنا أستاذا ، ولازلنا على طرفى نقيض .

قال قريبى :

– الرئيس جمال عبد الناصر يتمتع بحس شعبى ، لا يفارقه ، فى أشد الأزمات ، كلفنى بمأمورية عاجلة فى وزارة الداخلية ، صباح اليوم ، حيث أمر بوقف عمليات الملاحقة لفلاح بسيط ، من عزبة قريبة من شارع الهرم ، يدعى «عباس أبوحميدة» ، لمحه أثناء تشييع جنازة الدكتورة أوديت ابنة الدكتور السيد أحمد باشا ، فمال علىّ قائلا ، ليس من العدل ملاحقة هذا الرجل فى هذه الظروف .

فتحت فمى فى دهشة ، قلت :

– ماذا جرى لها ؟

وصف لى الجنازة وتأثر الرئيس جمال عبد الناصر لوفاتها .

أكمل قريبى قائلا :

– المرحومة كانت صديقة لزوجتى سونيا . كما أننى كنت أعرفها أيضا ، وللأسف ماتت نتيجة لحادث عبثى فى ريعان شبابها . وربما لو عاشت لأسند إليها جمال عبد الناصر وزارة الصحة فى يوم ما .

ماتت .

صمت الكون ، وسكن جسدى ، وأحسست بتوقف الهواء فى صدرى .

يالها من مفارقة ، أعرف بخبر وفاتها من قريبى وأنا الذى لايقرأ فى الصحف إلا صفحات الوفيات . رأيتها مرتين عن قرب وتطلعت إليها ، ومال قلبى لها . أعجبنى حديثها وشدنى فى المرتين . وجه جميل . تقاطيعه مصرية . قامة معتدلة فيها أنوثة وجاذبية طاغية . لها حضور قوى . إذا تحدثت أوجزت وأفادت . إذا تحركت ففى رشاقة . إذا قالت ، أسندت . شباب . جمال . أنوثة .

علم . أخلاق . صاحبة مبادىء ومثابرة . تضحياتها معروفة . لولا حادثة فصلى من الجامعة لعمقت اتصالاتى بها ، طمعا فى القرب منها .

هكذا ترحل عن دنيانا فجأة .

فى المرة الثالثة رأيتها وهى تقود سيارتها ، لم أكن متأكدا تماما حتى تجرأت ، وتوجهت إلى مستشفى للولادة ، وسألت عنها ، وقيل لى إنها مريضة .

ليس من حقى الإساءة إليها بعد وفاتها ، وأزعم أمام قريبى أننى كنت أحبها أو أعرفها ، فهى صديقة لزوجته ، كما أن أنشطة سياسية قد جمعت بينهما فى السابق ، وربما فجيعته فيها كبيرة وإن كان يخفى دموعه ، وأنا أعرفه عصى الدمع منذ صغره ، ويتظاهر بالتماسك فى أوقات المحن .

فاتتنى الجنازة ، وعلىّ التوجه إلى السرادق .

قطع قريبى علىّ خواطرى ، قال :

– ما رأيك فى وظيفة ملحق ثقافى فى باريس أو لندن ؟!

لم أعره اهتماما .

أصبحت سيرتها خيالا ، وكأننى لم ألتق بها . ماتت قبل أن تتجسم صورتها المادية أمامى وأخبرها عن قرب أو ملمس . فجيعتى فيها عظيمة ، وقلبى مع الدكتور السيد أحمد .

قال قريبى :

– ممثلنا فى هيئة دولية ؟

قلت :

– أنا مفصول من الجامعة .

فصلى من الجامعة أجل توطيد علاقتى بها .

قال :

– هذه ليست مشكلة .

طلبت منى الدكتورة أوديت عدم السفر فى هذه الظروف . قلت :

– أنا زاهد فى السفر .

أنا لن أسافر . مهما حدث . انطفأت شمعة . سأبقى هنا . هذه كانت كلمتى ، وسأفى بها ، نار مصر ولا جنة الغربة . ماتت .

قال :

– أنت على غير عادتك .

قلت :

– والدها زميل لنا فى كلية الحقوق .

قال :

– الرئيس جمال عبد الناصر يرى أن المثقفين الليبراليين هم أكبر معضلة ، أما الشيوعيون والإخوان المسلمون ، فيقول إنه يعرف طرق التفاهم معهم وأساليبهم مبسوطة أمامه كخطوط يده .

أجبته والحزن ينضح فى كلماتى ، والقرف يرتسم على وجهى ، قلت :

– إسمع يا عباس ، أنا لا يهمنى ما يقوله جمال عبد الناصر ولا يشغلنى ، ولا أود سماعه .

قمت ، غاضبا ، قال :

– كلمة واحدة ، هل تعرف طالبا يدعى كرامة سرحان ؟

قلت فى قرف :

– نعم ، طالب ممتاز ، تتنافس عليه الأقسام .

عاد إلى مكتبه ، قال :

– تصور هذا الطالب تقدم بشكوى ضد الدكتور السيد أحمد والمرحومة أوديت يتهمهما باختطاف فلاحة من عزبته وإجبارها على الخدمة فى القصر . ولما علم الرئيس بهذه الشكوى أمر بحبسه .

الدنيا تميد بى ، ما يجرى فى الكواليس مريب . قلت :

– إذا حدث ذلك منه ، فهذه سقطة ووراء ها سر رهيب .

قال :

– دفعه اليوزباشى شهدى الششتاوى لكتابة هذه الشكوى .

وبعدها ، أضاف ، قال :

– أحيل اليوم اليوزباشى شهدى الششتاوى إلى وظيفة مدنية خارج الجيش .

لم أعلق .

وبعدها ، تساءلت ، قلت :

– وما مصير كرامة سرحان ؟

قال :

– سوف يفرج عنه بعد شهور .

وأكمل ، قائلا :

– اعتقلته على سلم الطائرة ، كان مسافرا فى صحبة آل عويس باشا . اللواء عويس وزوجته الأميرة شويكار ، وابنته الأميرة جويدان . ضيقت الخناق عليه ، قال : إنه يحب الأميرة جويدان ، ويسعى للزواج منها .

استمعت إليه صامتا .

أحزانى لا قرار لها . أشرت إلى التليفون ، مد لى السماعة . أدرت رقم صديقى الدكتور شلبى القصاص . قالت لى زوجته :

– البقية فى حياتك . الدكتور شلبى ينتظرك فى السرادق .

كانت تبكى .

توجهت إلى الباب . لم أسمعه . لا أدرى إذا كنت قد صافحته أم أننى تركته واقفا ينادى علىّ . قال :

– انتظر دقيقة واحدة ، سأتى معك ..

سار إلى جوارى ، قال :

– جمال عبد الناصر طلب منى ترتيب بعض الأمور هنا ، بعد أن فاض به الكيل من بكباشية هيئة التحرير ومكتب العمال ، واتهمهم بعد فشل إضراب العمال بأنهم لا يعرفون أقدار الرجال ولا يوثقون صلاتهم إلا بالعملاء ، وطلب منى الاستعداد للسفر إلى موسكو فى وظيفة دبلوماسية ، وإن ذلك رحمة بزوجتى سونيا ، بعد أن عذبتها ، وعلى كل حال هى تتقن الروسية ربما أكثر من العربية .

سألنى رأيى ، قلت :

– سافر يا عباس ، أما أنا فلن أسافر مهما طال فصلى من الجامعة .

قال :

– معك حق . لكننى مضطر . سونيا فى حاجة إلى تغيير الجو بعد رحيل الدكتورة أوديت .

طفرت دمعة منى داريتها وأنا أنزل الدرج إلى جواره .

حمادة أبوجبل

(٥٦)

من يسألنى هذه العشية ، أين رأسك يا حضرة العمدة ؟ أشير له إلى «البلغة» فى قدمى ، إلى «الصرماية» ، أقول له : هذه رأسى . هذه رأس «حمادة أبو جبل» عمدة عزبة عويس .

ماذا حدث فى البلد ياناس ؟

حمادة أبو جبل عمدة عزبة عويس ، زوج ستهم ، صاحب ثمانية فدادين ، ضرب نصفهم العطش ، وأنقذ النصف الآخر بشق النفس ، يفتح داره ، دار العمودية ، الرسمية ، بيت الحكومة ، ويوزع على نفقته القهوة السادة ، ويقف يتلقى العزاء ، فى ابنة باشا !!!

حقيقة ثورة تقلب الأوضاع ، كما قال ، ولد عمى عباس . لا تدع الراكب «راكب» ولا الماشى « ماشى » .

وطلعت فوق يا «حمادة أبوجبل» .

والله وتكمل المصيبة ويأتى اللواء عويس للعزاء أيضا ، وهذه الورطة كلها من فعال ستهم ونفوسة بنت الشامى .

خرجت عن طوعى . خرجت . عارية الرأس . تشلشل إلى بيت عباس . دون
إذنى . خرجت وراءها . تورطت أنا أيضا . ولد عمى عباس غائب . ولا يصح أن
تتقبل زوجته نفوسة بنت الشامى العزاء من الرجال وأنا موجود .

ستهم ، تكبرت يا عمدة . الحمل بان عليها . وفى الرايحة والجاية ، تقول لى ،
فى بطنى ولد ، حتى هوستنى .

احذر تكبر النساء يا عمدة

ماتت الدكتورة صباح . شابة . حزن قريبى عباس عليها لا يعرفه إلا المصاب
الذى جرح قلبه . كانت ضيفة عليه وعلى زوجته نفوسة بنت الشامى لمدة ثلاثة
أشهر . ترتدى الملس الطويل ، وتقطع العجين ، وتخبز ، تجلس أمام الفرن . فلاحة
من غيط العنب . لغوتها لغوة بنات البندر .

أكلت فى دار ولد عمى من خبيزها . ضاع شكى . قلت : هذه بنت مسكينة
من غيط العنب . ليست فلاحة ، وليست متعلمة .

وبعدها بزمان ، يقول لى ملازم أول حسن طلعت ، هذه دكتورة وابنة باشا .
وجاء ت للعزبة تقود سيارتها بعد الثورة . سلمت على الفلاحين . كانت تضحك .
مبسوطة كما بلغنى .

ثم هبّ . ماتت . راحت البنية فى شربة مية .

لا تخف ياعمدة . هذا معزى . قلت . آيات من ذكر الحكيم . ربع وراء ربع،
لا كلمات ولا خطب ولا قصائد شعر . آيات من ذكر الحكيم للرحمة على الميت
والموعظة الحسنة للحى .

دخل عباس أبوحميدة فى زمرة من الفلاحين والعمال . أعرف بعضهم . من
البدرشين والعياط . كلهم مشاغبون ، ويطاردهم البوليس . من الخطباء . فى ذيلهم

الواد حسان أبو طاقية . جاء هو أيضا للمعزى والخطابة .

قلت لنفسى : وقعت الواقعة . لن يسكت هؤلاء أحد .

تركت تقبل العزاء لولد عمى عباس ، وانزويت فى ركن لوحدى فى قاع
المندرة ، أرقب الداخلين والخارجين .

وغدا لى حديث مع ملازم أول حسن طلعت .

اللواء محمد نجيب

(٥٧)

هى عشرون يوما فاصلة بين تحقيق الديموقراطية ، وعودة الحياة النيابية ، وحل مجلس قيادة الثورة وإجراء انتخابات حرة وبين هتاف المأجورين بسقوط الحرية .

فى ذلك اليوم الحزين الذى خرجت فيه المظاهرات فى الشوارع وأوقف فيه رجال عبد الناصر وسائل المواصلات بالقوة ، أدركت أننى قد وقعت فى الفخ ، وطلبت من الصاغ خالد محيى الدين عدم المقاومة ، خوفا من حرب أهلية .

قررت الاستسلام حفاظا على وحدة البلد ، وعدم إراقة الدماء ، معترفا بالخطأ ، بعد أن وضعوا العقبات أمامى ، وجعلونى أمشى فى حقل ألغام ليلا ونهارا ، ولم يتوقفوا عن حياكة المؤامرات .

الشعوب مثل الماء قوة هادرة جبارة فى اندفاعها ، لكنها أيضا قوة لا شكل لها ويجب وضعها فى أطر صحيحة ، فما أسهل خداع الشعوب ، خاصة إذا فقدت أطرها الطبيعية من أحزاب وغيرها .

كنت حسن الظن بهم ، فهم جميعا أولادى ، لم أعمل على الانتقام منهم بعد

عودتى وفقا لإرادة الشعب بعد مظاهرة عابدين الكبرى ، ولم أعمل على تكوين جماعة لى فى صفوف الجيش ، فقد كان إيمانى دائما ولا يزال بعدم الزج بالجيش فى السياسة ، لأننى إذا أزحتهم من طريقى بقوة الجيش ، سوف يأتى أحد فى المستقبل يعمل على إزاحتى بقوة السلاح ، وهكذا ندخل فى دائرة الانقلابات العسكرية الشريرة كما حدث فى سوريا .

طلبت من الصاغ خالد محيى الدين عدم المقاومة ، ورفضت نصائح المخلصين لى بفرض الطوارىء واعتقال مجلس قيادة الثورة بأكمله ، وكان ذلك فى مقدورى فقد كنت رئيسا للجمهورية ورئيسا لمجلس الوزراء ، ورئيسا لمجلس قيادة الثورة .

خطآن ارتكبتهما بحسن نية ، أولهما سفرى إلى السودان فى اليوم التالى لمظاهرة عابدين الكبرى ، يوم ٢٨ فبراير ، فقد أتاح سفرى لجمال عبد الناصر ترتيب الساحة على هواه ، وأسرع باعتقال عبد القادر عودة المحامى ، وتعرض لتعذيب شديد بواسطة أعوانه .

والخطأ الثانى انشغالى بصحبة الملك سعود والسفر إلى الإسكندرية معه أثناء اشتداد الأزمة بينى وبين جمال عبد الناصر وقد تركت له القاهرة .

حقيقة كنت قد نجحت فى تطويق جمال عبد الناصر ، فى الرابع من شهر مارس بعد عودتى ، وقد رأيت ضرورة طرق الحديد وهو ساخن ، ونجحت فى اقناع مجلس قيادة الثورة بإصدار قرارات ٥ مارس الشهيرة ، والتى تقضى باتخاذ الإجراءات الفورية لعقد جمعية تأسيسية تنتخب عن طريق الاقتراع المباشر وتكون مهمتها مناقشة مشروع الدستور الجديد وإقراره والقيام بمهمة البرلمان إلى حين انعقاد برلمان جديد وإلغاء الأحكام العرفية وإلغاء الرقابة على الصحف ابتداء من يوم السبت ٦ مارس .

وافق جمال عبد الناصر على كل طلباتى ، وتنازل لى عن رئاسة مجلس الوزراء ، لكنه رفض بشدة إجراء انتخابات على أساس حزبى .

كنت أرى الإفراج عن جميع المعتقلين قبل إجراء الانتخابات وسرعة الإفراج عن الزعيم مصطفى النحاس باشا ، وقد سألت عنه فور الإفراج عنه ، كما فعلت مع بقية القيادات الحزبية الأخرى التى أفرج عنها ، لكن صحف دار أخبار اليوم أخذت تهاجمنى بإيعاز من جمال عبد الناصر ، ونشرت ملخصا لمكالماتى يسىء إلىّ وكأننى أتحالف مع الوفد ضد حركة الجيش ، وعقدت عدة مؤتمرات صحافية عالمية لشرح أهداف المرحلة القادمة ، لكنهم كانوا يعدون المؤامرات ، ووقعت ٦ انفجارات فى مواقع مختلفة من القاهرة ، وأخبرنى أعوانى أنها من صنع وترتيب جمال عبد الناصر ، حتى النسوة لم يتركننى فى سلام أنفذ خطتى ، فأضربت مجموعة من النساء عن الطعام بزعامة الدكتورة درية شفيق .

وتزعمت صحف دار أخبار اليوم الحملة ضدى ، ونشرت تقول ، إن الجديد فى الموقف هو أن الأحداث الداخلية والخارجية تستوجب استمرار الثورة وإن كل ما يقال عن تصفية الثورة أو العودة إلى عهود ما قبل الثورة فهم خاطىء للقرارات .

أخبرنى المستشار سليمان حافظ أن الدكتور السنهورى رئيس مجلس الدولة يكن لى عداء دفينا ، وكنت أعجب من موقفه المنحاز ، وهاهى الأيام ، قد أوضحت له مغبة عداء الديموقراطية ، فقد تعرض إلى اعتداء غاشم على يد اليوزباشية أنور عرفة وشهدى الشسشتاوى ، ووجه له عدة لكمات بطل من أبطال الملاكمة فى عقر مجلس الدولة .

وهاهو جمال عبد الناصر يتخلص أيضا من المستشار سليمان حافظ ومجموعة الوزراء المدنيين ، وقد استغل جمال عبد الناصر كراهية سليمان حافظ

لحزب الوفد فى ضرب الأحزاب ، وتفتيتها ، بعد أن استخدم سليمان حافظ كافة الحيل القانونية للإساءة إلى الزعيم الوطنى مصطفى النحاس باشا .

لن أنسى ماحييت نظرة عبد اللطيف البغدادى وهو يطالب بإلغاء قرارات ٥ مارس . كنا قد اجتمعنا خمس ساعات ، وأخذ أعضاء مجلس الثورة يناورون ، لكن بغدادى كان أكثرهم صراحة ، ووضوحا ، وتصدى له خالد محيى الدين معلنا تمسكه بقرارات ٥ مارس ، وفجأة اقترح جمال عبد الناصر خمس نقاط :

- حل مجلس قيادة الثورة .
- المجلس لا يؤلف حزبا .
- السماح بقيام الأحزاب .
- لا حرمان من الحقوق السياسية .
- تنتخب الجمعية التأسيسية رئيس الجمهورية .

لعب الفأر فى عبى ، نظرت فى أعينهم واحدا واحدا ، هذه القرارات تعنى تصفية حركة الجيش ، والانتقال من الديكتاتورية إلى الديموقراطية فى لحظة واحدة .

قلب جمال عبد الناصر المائدة علينا ، إذا عارضت اتهمونى بالنفاق ومعاداة الديموقراطية ، وإذا وافقت اتهمونى بتصفية حركة الجيش ، وحملونى مسئولية قيام الديكتاتورية فى مصر .

كانوا يتحدثون لغة واحدة ، ينتقلون من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار .

وضعونى أمام اختيار صعب للغاية ، وفى النهاية ، قبلت التحدى ورميت القفاز فى وجوههم جميعا ، قلت :

– نعم ، أوافق .

أعلنت قرارات ٢٥ مارس التى أثارت الناس ضدى ، حيث اتهمت بأننى أعمل لتصفية حركة الجيش والعودة بالبلاد إلى الوراء لصالح القوى السياسية القديمة .

أوقفوا المواصلات . ودبروا للاعتداء على كما اعتدوا على الدكتور السنهورى رئيس مجلس الدولة ، وخرج المأجورون يهتفون : تسقط الحرية .

يا للعار .

غلطتى .

وكذلك كان خطأ الإخوان المسلمين استراتيجيا ، فقد تصوروا مصلحتهم فى القضاء على الأحزاب ، فتخلوا عنى ، واتفقوا من ورائى مع جمال عبد الناصر قبل أن يفرج عنهم .

هذه كلمتى للتاريخ ولم يبق لى الآن . سوى ترأس وفد المفاوضات مع الانجليز خوفا من تفريط صغار الضباط فى حقوق مصر ، أما معركتى مع جمال عبد الناصر فهى مؤجلة .

على بك رفعت

(٥٨)

طلبنى السيد باشا مرتين ولم يجدنى فى مكتبى ، وفى المرة الثالثة ترك لى رسالة عاجلة . كنت أباشر قضية مستعجلة فى القضاء المستعجل وقد تأخرت فى المحكمة حتى الساعة الثامنة مساء، وفور دخولى إلى مكتبى ، ومعرفتى برسالته اتصلت به ، وكانت الساعة تقترب من التاسعة مساء .

مسكين هذا الرجل ، فقد ابنته فى ريعان شبابها ، وبسبب حادثة عربية يقال إنها مدبرة ، رأيته فى الجنازة والسرادق رافعا هامته منتصبا ، متماسكا ، لكننى أدرى بمشاعره ، وقسوة الصدمة عليه .

اتصلت به ، قال لى :

– أنا فى حاجة إليك يا علي بك . واعتذر إذا كنت لا أقدر على الحضور إلى مكتبك .

قلت على الفور :

– أحضر إليك على الفور يا باشا . مسافة الطريق .

قال لى :

– إذا تفضلت بزيارتى هذا الأسبوع صباحا أكون شاكرا .

قلت :

– غدا ياباشا وفى الوقت الذى تحدده لى .

قال :

– العفو يا ابنى .

قلت :

– العاشرة صباحا .

قال :

– هذا يناسبنى على شريطة ألاّ تكون مشغولا بمرافعات ، وجدولك فاض .

قلت مؤكدا :

– ليس لدى مرافعات هذا الأسبوع ، وسبب تأخرى اليوم قضية عاجلة فى القضاء المستعجل وفات سكرتيرتى الاتصال بى فى المحكمة .

قال :

– شكرا يا ابنى :

السيد أحمد باشا السيد من فقهاء القانون الدولى ، استقامته ونزاهته يضرب بها المثل فى أوساط القانونيين ، فيه مثالية ثورة ١٩١٩ ، وقد اعتزل السياسة مبكرا عن عمد ، وتفرغ للتأليف والتدريس ، ومكتبه له سمعة دولية فى قضايا الحدود وتنازع القوانين .

لا أعرف طبيعة ما يشغله ، لعل الأمر يتعلق بوفاة ابنته ، وأنا أضع نفسى

ومكتبى ، وإذا أراد أيضا مجلس نقابة المحامين تحت أمره ، وجميعنا أخذ العلم على يديه ، ووضع خبراته تحت تصرفنا .

توجهت إليه فى الموعد المحدد ، استقبلنى فى ترحاب ، قال :

– آسف إذا كنت طلبت حضورك ، وأنت أدرى بظروفى هذه الساعات .

قلت :

– أنا تلميذك يا باشا .

طلب القهوة . جلس أمامى فى البهو . قال :

– كانت الساعة السابعة ليلا ، كونسلتو الأطباء اجتمع فى غرفة الدكتورة ، وقد أصابتها نوبة تشنج ، نادى علىّ الدكتور على البنهاوى ، طلب منى الصعود إلى غرفتها ، وفى السابق عندما كانت تصيبها نوبة ، كانت تعطى حقنة مهدئة ، وتخلى الغرفة ، ويبقى الطبيب أو الممرضة إلى جوارها ، وطلب منى الدكتور البنهاوى ، وهو صديقى منذ أيام الطفولة دعوة الدادات والشغالات والبواب والجناينى ، عندنا شغالة لها طفل رضيع كانت ابنتى تتعلق به وتضعه على صدرها . ضاعت النوبة . هدأت قليلا . مدت يدها له تلاعبه . قالت كلمة أو كلمتين غير مفهومتين ، وأسندت رأسها وعلى وجهها ابتسامة صافية . ابتسامة رائقة . فارقت وجهها التقلصات ، راقت تقاطيعها ، وبدت فى أجمل صورة ، وكأنها فتاة فى العشرين من عمرها أو أقل .

طلب منا الأطباء مغادرة الغرفة على فور . قلت لنفسى ، ابنتى نامت ، لكنها كانت اللحظات الأخيرة .

قلت مجاملا :

– البقية فى حياتك يا باشا .

ندمت لأننى تفوهت بهذه الكلمات المألوفة ، إن صمتى أبلغ من كل كلام ، كان

على عدم مقاطعته .

قال الباشا :

– على كل حال أنا لم أدعك لمثل هذه الأحاديث . عندنا شغالة بسيطة أسمها زهية ، وربما تكون قد رأيتها أيضا فى الجنازة ، وفى السرادق ، فقد تركتها تقف إلى جوارى وتتلقى العزاء ، وابنتى أوصتنى بل أقول أمرتنى أن تمنح ثروتها ونصيبها فى هذه الدنيا على حد قولها إلى زهية وابنها الرضيع ، وهى ثروة لا بأس بها ، وأنا ليست لى دراية بهذه الأمور ، وحتى إذا كنت أعرف شيئا ، فقد فقدت الجهد على التركيز . وأنا فى حاجة إليك لتنهى نيابة عنى هذه القضايا ، وتختار الصيغ المناسبة .

نادى الباشا ، وقال :

– زهية :

قدمت الفتاة متشحة بالسواد ، تخفى دموعها . قالت :

– نعم يا باشا .

سألها أمامى :

– أين محمد نجيب ؟

قالت :

– موجود يا باشا .

وهرولت . عادت بطفل صغير عمره عامان أو أكثر أو أقل ، قال لى : هذا هو الطفل الذى كانت تتعلق به ابنتى . اسمه محمد نجيب .

فهمت . قلت :

– هذه مسألة بسيطة يا باشا ولا تشغل بالك بها .

قال لى وهو يحس براحة ، وكأن أحمال الدنيا قد أزيحت عن كاهله ، قال :

– هذا جميل يعلق فى رقبتى حتى يوم القيامة .

دموعه متجمدة ، وتقاطيعه ساكنة ، وكأن عروقه ماتت ، وتمنيت له أن يبكى أو يصرخ . قلت :

– سأعد كافة الأوراق مع المحاسب ، ولن أشغلك إلا بالتوقيع . وعند التسجيل لن يتأخر قاض فى مصر فى إعطاء القضية رقم واحد فى الرول ، وقبل الساعة التاسعة صباحا تكون حضرتك يا باشا فى القصر .

صمت مفكرا ، استراحت تقاطيعه وإن كان الحزن ينضح من جسده كله وأحسه فى قبضة يده وفى لفتاته البسيطة ، وفى هزات وجهه .

قال :

– لدى مشكلة أخرى عاجلة ، أنت تعرف الدكتور على البنهاوى ، هو زميلى وأكثر من أخى ، وقد تركت له مسئولية الإشراف على علاجها ، وقد اختار مجموعة من الأطباء على رأسهم الدكتور محسن الجندى كبير أطباء المخ والأعصاب فى مصر وقد قدم الأطباء خدماتهم دون مقابل . لكن الدكتور محسن الجندى ، توجه إلى لندن ليومين ، ومعه التحاليل والأشعات ، وكان يتصل بأطباء من أنحاء العالم بل واستدعى طبيبين من الخارج ، وهذه كلها نفقات ، وأود محاسبة الرجل لكننى لا أقوى ، وقد وكلتك عنى .

قلت :

– هذه مسألة بسيطة يا باشا ، أتركها لى .

قال مؤكدا علىّ :

لا أود الإساءة إلى مشاعر أحد ، ابنتى زميلة لهم ، لكننى قادر على دفع الأتعاب ، وليس من العدل تكليفهما بأعباء السفر والخبراء .

قلت :

- أعرف يا باشا . هذه أمور كلها بسيطة .

كنت أود مصارحته برأيى فى مسألة حادثة العربية . لكننى صمت ، تركت له حرية الحديث ، وليس لدى مشاغل فى يومى ، وقد وضعت نفسى تحت إمرته .

قال :

- البلد كلها سمعت بحادثة عربة الجيش التى صدمت ابنتى ليلا . وقد أجمع الأطباء على أن الحادثة مدبرة ، وقد طلب منى الدكتور على البنهاوى رفع قضية .

قلت :

- أنا ومجلس النقابة كله تحت الأمر .

قال :

- أرجوك ، لا تزج بمجلس النقابة من قريب أو بعيد فيما يشغلنى ، ويكفى الأستاذ عمر عمر صديقنا ما يتعرض له من مؤامرات وعمليات بطش حاليا .

استمعت إلى نصائحه فهى نصائح ثمينة لمن يشتغل بالأمور العامة .

قال لى جازما :

- ما وقع لابنتى ليس حادثة فردية وعلى الشعب أن يجرى حساباته ، ويحصى مكاسبه وخسائره ، ويقيم ما قدمه جمال عبد الناصر إلى هذا البلد وبعدها يصدر حكمه . وحكم الناس والتاريخ أقسى وأصدق .

بعدها أكمل ، قائلا :

- أنا أعيش المأساة ، ومن الناحية القانونية أنا خصم، لهذا لن أصدر حكمى كما أننى لن أرفع قضية على واحد كان فى يوم ما من تلاميذى .

وغالبنا البكاء فبكينا .

محمد الطباخ

(٥٩)

عندما دخلت من البوابة كان الباشا فى الحديقة يتحدث إلى الجناينى ، فعبرتهما ، ولم يلتفتا إلىّ، كانا مشغولين بشجرة البرتقال التى ذبلت وتيبست أغصانها منذ رحيل الدكتورة أوديت ، بل منذ صدمتها عربة الجيش .

كانت زهية تستقى الأخبار من النظر إلى هذه الشجرة ، إذا رأت أوراقها ذبلت ، واتجهت حوافها ناحية الأرض ، جاءتنى قائلة :

- أنا خائفة يا عم محمد . شجرة البرتقال حزينة .

أما إذا اتجهت حواف الأوراق إلى أعلى ، أقبلت علىّ فرحة ، قائلة :

- الشفاء والعافية من نصيب الدكتورة أوديت .

دخلت إلى المطبخ . كانت ترضع إبنها ، جلست فى ركن على الأرض، وصمت حتى تنتهى من رضاعتها للطفل ، وسألتها :

- اخرجى وانظرى إلى شجرة البرتقال يا زهية واخبرينى ، هل سوف التقى بابنى الذى فقد منى وعمره ثلاثة أعوام قبل مماتى ؟ أنا أحس أن أجلى قرب .

قالت :

- حاضر .

واتجهت إلى الحديقة ، وتركتنى أحرس الطفل ، كان ابنى محمد يسير على قدميه ويجرى ، وينطق بعدة كلمات ، عندما خطف منى فى مدينة حلايب ، كانت زوجتى فى زيارة إلى أهلها هناك ، وخرجت قافلة من تجار العبيد البيض ، حاصرت القرى والنجوع ، وخطفت الأطفال .

جاء ت زهية ، قالت :

- ورق شجرة البرتقال مزهر فرحان ، سوف تقابله وتأخذه بالحضن .

اطمأن قلبى لحديثها ، فهى فتاة طيبة ، ومكشوف عنها الحجاب ، منذ وفاة الدكتورة أوديت ، وهى ترعانا فردا فردا ، وتخفف عنا محنتنا .

أخرجت الكتاب المصور من سترتى ، وقد وجدته فى مكتبة فى وسط البلد ، ووقفت أمامه طويلا ، وحدثنى قلبى طويلا ، إننى سوف أجد بغيتى فى هذا الكتاب أريتها صورة الغلاف الملونة ، لشاب أسمر يشبهنى كثيرا ، فى ملابس السفرجية الزاهية ، قلت لها :

- انظرى يا زهية . هذه صورتى فى شبابى .

تناولت الكتاب منى ، قالت :

- هذه ليست صورتك يا عم محمد . هذه صورة أبيس .

خطف أبنى وعمره ثلاث سنوات منذ أكثر من أربعين عاما . فى سنة ١٩١٢ ، وقدمت إلى القاهرة ، ورفعت الشكاوى للمسئولين ، وعملت لدى الدكتور السيد أحمد باشا على أمل أن يساعدنى فى العثور على ابنى محمد المفقود ، وكان أملى أن تعيد لى الدكتورة أوديت ابنى المفقود لكنها رحلت عن الدنيا وهى شابة وتركتنى وحيدا .

لو كان ابنى محمد قد مات ، ودفنته ، كنت استرحت وما حزنت عليه طوال هذا العمر . ابنى لم يمت لكنه خطف ليباع للأثرياء كعبد ، سرقه تجار العبيد البيض .

تنبهت فجأة على قول زهية ، انتظرت برهة ، وسألتها :

- صورة من ؟

أعادت على قولها :

- أبيس .

هل هذا وقت مزاح يا زهية .

قلبت زهية عدة أوراق فى الكتاب ، صاحت فرحة :

- هذه صورة أبيس ياعم محمد ، وهذه صورة الشهيد عكاشة ، وهذه صورة الأميرة جويدان ابنة الأميرة شويكار واللواء عويس .

أضافت قائلة :

- ابنك حى ياعم محمد ، فى قصر اللواء عويس فى عزبة عويس . شجرة البرتقال لا تكذب على ياعم محمد .

خطفت منها الكتاب ، خرجت إلى الحديقة ، مددت الكتاب إلى الباشا، قلت :

- ابنى محمد ياباشا .

قال :

- اهدأ يامحمد . ايه الحكاية ؟

أعدت عليه قولى ، قال :

- اترك لى هذا الكتاب عدة دقائق .

انتحى جانبا فى الحديقة ، وجلس ومضى يقرأ ، لم أر فى هذا الكتاب سوى صورة ابنى أو صورتى فى شبابى ، توقفت عندها ولم أقلب فى صفحاته ، بسبب لغته الانجليزية التى يصعب على فهمها ، لو وضع بالفرنسية لكنت ألمت بما فيه .

كان الباشا يقرأ وقد جلس فى ركن ، ولا يرفع رأسه ولا يلتفت إلينا ، لكننى كنت أرقب قسمات وجهه وهو يقلب صفحات الكتاب كنت أعتقد أنه سوف يهب واقفا بعد قراءة عدة صفحات قائلا :

– مبروك يا محمد . هذا ابنك .

لكن قسماته كانت تعلوها الدهشة ، واستغرق فى القراءة تماما وقد تبدلت ملامحه ورانها حزن عميق ، أنا أعرف الباشا منذ أربعين عاما ، وأعرفه عندما يستغرق متأملا فى حزن .

هو فقد ابنته الوحيدة ، وأنا على وشك التوصل إلى أكبر أبنائى بعد أربعين عاما . هى خطوة واحدة ، وآخذه فى حضنى وأموت راضيا .

تنبهت إلى أن زهية قد أسرت لى شيئا ، لكننى نسيت ، فقد تعلقت عيناى بصورة ابنى الصغير ، وهو يسير منتصبا على ساقين صغيرتين ، ثم يتعثر فيقع ، وينادى علىّ ، أقول له :

– قم يامحمد .

معى صور من الشكاوى التى دبجتها لرؤساء الوزراء ، سعد زغلول باشا ، محمد محمود باشا ، اسماعيل صدقى باشا . مصطفى النحاس باشا ، أكتب شكوى إلى الرئيس جمال عبد الناصر ، قدمت له القهوة بيدى هنا كثيرا . وهو لن يتأخر عن المعاونة .

زهية فرحة ، ولكن الهم يحط عليها ، سألتها :

– أين محمد ابنى يازهية ؟

قالت :

– فى عزبة عويس ياعم محمد . تعالَ معى ، نروح له .

سألتها :

– تعرفينه ؟

قالت :

– أعرفه وأعرف كل المصورين فى الكتاب . الشهيد عكاشة ، الأميرة جويدان.

سألتها :

– كلمتيه يازهية ؟

ضحكت منى ، قالت :

– كنت أكلمه وأعاكسه ، وأطلب منهِ أن يعزف لى الناى لأغنى .

بعدها قالت بصوت خفيض ، وقد تجهم وجهها :

– يارب استر .

سألتها :

– ابنى محمد يعزف الناى ؟

قلت لنفسى ، اذهب إلى عزبة عويس ، ابحث عن ابنى ، أناديه يامحمد تعال ، كما كنت أناديه من أربعين عاما فيسمع صوتى ويجرى قادما نحوى، الغريق إذا نادته أمه ، ... على الشط ، وهى تمسك بالزوادة له ، جاءها طافيا على ظهره ، لتوسده فى باطن الأرض ، وأنا ابنى حى .

سألتها :

– ابنى متزوج يا زهية ؟

انشغلت عنى . حولت وجهها عنى . سألتها :

– زوجته ماتت .

قالت :

– حاجة زى كده .

قلت :

– طيب يازهية .

انتهى الباشا من القراءة ، قام أقبل علينا ، قال :

– ربما هذه آخر جريمة لتجار الرقيق تعرفها مصر . سرقته عصابة من الانجليز ودربته على الخدمة فى معسكر فى السودان ، ثم عادت وباعته إلى الأميرالاى عويس الأكبر كسفرجى مدرب وعمره أحد عشر عاما .

نادى على زهية ، وطلب منها أن تلحق به فى مكتبه ، وقال :

– انتظرنى يامحمد .

قلت :

– حاضر .

الباشا وقد فقد ابنته الدكتورة أوديت يهتم بابنى كما يهتم بابن زهية الرضيع ، كلنا أبناؤه ، وخيره علينا .

هذه معجزة ، سأقول لزوجتى التى هدها الشلل ، قومى يا امرأة ، فابننا محمد

قد عاد . ها هو صورة طبق الأصل منى فى شبابى وفتوتى . وسيم الطلعة، سرح القوام كنخلة ، أزوجه من طرفى من واحدة من معارفنا لينجب لى «دستة» من البنين والبنات .

كانت آن الفرنسية واقفة فى البهو ، قلت لها :

– وجدت ابنى الضائع يا آن .

أقبلت علىّ فرحة ، مرتدية ملابس سوداء . كنت أود أن أطلب منها أن تخلع هذه البلوزة السوداء ، وأن تشاركنى فرحتى ، لكننى تريثت فى سؤالى ولما لمحت صورة الدكتورة أوديت وعليها شريط أسود ، تذكرت ، بلعت ريقى ، وصمت .

توجهت عائدا إلى المطبخ أبحث عن زهية ، وسألت آن عنها ، فأخبرتنى أنها فى حجرة المكتب فوق .

بحثت طويلا عن الكتاب ، لأطلب من آن ترجمة بعض صفحاته لى ، فهى تجيد الانجليزية ، لكننى لم أجده داخل سترتى ، خلعت عنى القفطان لكننى لم أجده .

كنت أود أن أرى آن صورة ابنى محمد المصورة على الغلاف ، وتوجهت إلى المطبخ ، فى قلبى فرحة ، وتذكرت أن الباشا صعد إلى مكتبه ، وانتظرت ، سينزل ويقول لى شيئا مفرحا .

د . السيد أحمد باشا

(٦٠)

صعدت الدرج متمهلا ، وصورة محمد الطباخ فى ذهنى ، وهو يبكى ابنه الضائع ، كانت تلك أياما أخرى ، الانجليز يحكمون ، وكانت عصابات البيض تمسح افريقيا من شمالها إلى جنوبها تخطف الأطفال ، لكننى لم أكن أتصور أن لهم معسكرات لتعليم الأطفال ، ثم بيعهم لعلية القوم .

الكتاب عبارة عن بحث لحالة أغا ، تم خطفه وخصيه خصيا كاملا بيد مدربة على هذه الجريمة ، وتعليمه وتثقيفه حتى سن الحادية عشرة .

ربما هو آخر الأغوات فى مصر ، غير أن الحكاية التى أوردتها مجموعة الباحثات اللاتى قمن بهذا البحث مليئة بالتفاصيل المثيرة ، خاصة مجموعة الصور

محمد الطباخ توقف عند صورة الغلاف ولم يلق نظرة على الصور الداخلية التى تظهر ابيس متجردا من ملابسه وقد أزيلت محاشمه كلها بحد الموسى .

يساورنى اليقين أن عم محمد قد عثر على ابنه ، فأبيس هو محمد الطفل الصغير الذى تم اختطافه من والدته فى مدينة حلايب على الحدود بين مصر

والسودان ، لكنه عثر عليه ممزقا محطما فاقدا رجولته ، يا للهول ويا لها من قسو لا يستحقها هذا الرجل الطيب .

قلت :

- احكى لى شيئا عن أبيس يا زهية .

قالت :

- طلعت فى العزبة وهو يعمل ضمن حاشية اللواء عويس والأميرة شويكار .

سألتها :

- هل رأيت الصور ؟

طفرت دمعة من عينها ، مسحتها قالت :

- رأيتها ، وياليتنى ما رأيتها يا باشا .

سألتها :

- وما رأيك ؟

أجابتنى :

- نخفى الكتاب عن عم محمد .

كلها فطنة هذه الفتاة ، قالت :

- قلب الأب حنون ، وسوف يذهب إليه عم محمد ويبحث عنه ،وسوف يتعرف عليه ويقبله كما هو ، هذا أمر الله ، هناك من يفقد رجله ، ومن يفقد عينيه .، هذه مصائب .

أكملت ضاحكة ، قالت :

– وهناك من يربط فى عز الشباب بفعل جنية أو عمل .

نحيت الكتاب عنى وتريثت متأملا حال البلد وحال محمد الطباخ الذى هده الحزن والمرض ، وعن المصادفة التى تقلب مصائر الناس ، وكأننا عرائس فى يد القدر .

أتاحت الأميرة جويدان ابنة اللواء عويس الفرصة لزميلات لها فى الجامعة الأمريكية لمقابلة أبيس على مدار عام وتسجيل أقواله وذكرياته عن طفولته البعيدة بعد اختطافه ، وحياته فى ذلك المعسكر فى مكان ما فى السودان ، كما أجرت المجموعة دراسة عن حياة الأغوات الجنسية ، وهى دراسة مليئة بالتفاصيل التى تقترب إلى المجون أكثر من الدراسة العلمية الرصينة .

صاغت البحث ابنة مساعد الملحق البريطانى فى مصر ، وجاء مليئا بالعنصرية المغلفة بادعاء العلم .

ليس صعبا على عم محمد الطباخ التوجه إلى عزبة عويس فى صحبة زهية والتعرف على أبيس اليوم ، ولكن ما يقلقنى عليهما ، وماذا بعد ؟

زهية تقول ، قلب الأب حنون ، والحنية سوف تتغلب على حقائق الحياة مهما كانت قسوتها وبشاعتها .

أرسلت برقية إلى الرئيس جمال عبد الناصر بعد نجاته من حادثة المنشية ، فاتصل بى تليفونيا ، يشكرنى على برقيتى ، وقال لى ، وكأنه يعزينى فى ابنتى مرة ثانية :

– الزمن كفيل بشفاء كل الجراح يا دكتور .

وبعدها أضاف قائلا :

– كنت فى حاجة إلى مشورتك أثناء المفاوضات مع الانجليز ، لقد افتقدت كثيرا .

قلت له ردا على مجاملته لى :

– الحمد لله أن تحقق ما كانت تطالب به الأجيال السابقة على يديك .

لا أدرى لماذا خطرت على بالى فكرة الثأر والانتقام ؟ وأنا أتأمل صور أبيس . كنت قد تضايقت كثيرا ، وآلمتنى صيحات جمال عبد الناصر الهادرة ، بعد إطلاق الرصاصات الطائشة عليه عندما أخذ يكرر علمتكم العزة ، علمتكم الكرامة . فهذه كلمات لم ينطق بها أعظم زعيم مصرى فى العصر الحديث ، وهو سعد زغلول باشا .

لكننى غفرت له هذا التجاوز وأنا أرى صور أبيس أمامى وهو يقف عاريا وبين ساقيه انبوب صغير مثل حبة الفول وسط مجموعة من البنات المايصات الماجنات الأوربيات .

لن يسمح جمال عبد الناصر بتجاوزات مثل هذه فى مصر أو فى افريقيا كلها بعد الآن .

ناديت على محمد الطباخ ، وقبل أن أحادثه فيما يشغلنى ، قال :

– ابنى محمد سوف يتزوج وينجب «دستة» من الأطفال لى يا باشا .

طفرت دمعة فى عين زهية . مسحتها ، أما أنا فقد قلت له شيئا طالبا منه الصبر ، فأبيس عمره الآن أكثر من أربعين عاما وليس الطفل الصغير الذى كان يحبو عندما اختطف .

نزلا الدرج سويا ، وكنت أحس بخطواتهما وكأنهما يسيران فى سرداب طويل نهايته غامضة مثيرة .

ظلت كلمات زهية ترن فى أذنى ، الحب أقوى من حقائق الحياة التعيسة .

علا صوت ابن زهية الرضيع فجأة ، يبدو أنه لمحها وهى تنزل الدرج فأخذ يناديها ، وكان قد أعلن عن إعفاء اللواء محمد نجيب من كل مناصبه وتحديد إقامته فى فيلا المرج ، فقلت لنفسى ، لن تضيع صيحات محمد نجيب هباء ، فأوراق ١٩٥٤ لن تضيع فى زحمة التاريخ .

محمد الطباخ سوف يصحب ابنه عائدا بعد أربعين عاما ، هذه هى الحياة الهادرة ، حلوها مر، وألوانها رمادية لا تعرف الأبيض أو الأسود ، وربما هذه هى حكمة الشيوخ التى فاتت ابنتى أوديت ، فمضت تصارع طواحين الهواء العفية ، وقضت فى ساحة الشرف بحثا عن المثالية .

سوف يفرح محمد الطباخ بلقاء ابنه كثيرا ، وسوف يحزن أيضا كثيرا ، أما أنا فقد مضت أيامى ولم يعد لى سوى التأملات .

بازل والقاهرة فى ٢٠ أكتوبر ١٩٨٩

– ٢٥ أكتوبر ١٩٩٢

جميل عطية ابراهيم

رقم الإيداع : ٧٩١١ / ١٩٩٣
I.S.B.N
977 - 07 - 0285 - 4

تنويه

استفاد الكاتب من ترجمة الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى لعدة أبيات للشاعر اليونانى كفافيس ، وكذلك من ترجمة الدكتور سمير سرحان لعدة أبيات للشاعر وردز ورث.

كما يود الكاتب الإشارة إلى المؤرخين الذين كتبوا عن أزمة مارس ١٩٥٤ واستفاد منهم الكاتب ويخص بالذكر ، الأستاذ أحمد حمروش والأستاذ أمين عز الدين ، والدكتور رفعت السعيد ، والأستاذ طارق البشرى ، والأستاذ صلاح عيسى ، والدكتور عبد العظيم رمضان .

كما أن المادة الوفيرة الواردة فى مذكرات كل من عضوى مجلس قيادة الثورة اللواء محمد نجيب وقائد الجناح عبد اللطيف البغدادى تكون الخلفية لأحداث هذه الرواية ، وفى هذا المجال يود الكاتب الإشارة على وجه الخصـوص إلى مذكرات المهنس سيد مرعى ، ومذكرات الأستاذ فتحى كامل ، ومذكرات الأستاذ فتحى رضوان .

أما دراسات الأستاذ محمد حسنين هيكل الوثائقية للثورة ورجالها والظروف التى أحاطت بها ففيها معين لاينضب للروائى ، وقد استفاد الكاتب كثيرا من هذا المعين .



هــذه روايــة

فى رواية «أوراق ١٩٥٤» يلتقط جميل عطية إبراهيم طرف الخيط من روايته السابقة «١٩٥٢» ليكتشف هذا الفنان المؤرخ وراء السطح الصاخب للأحداث مسار قواها الدافعة الحقيقية المتنكرة خلف الأوهام والشعارات الرائجة .

كان ربيع ١٩٥٤ لحظة تاريخية حبلى بالإمكانات المتعارضة أمام حركة يوليو ١٩٥٢ وقد انتهت بالهزيمة المؤقتة بكل غزارتها واختلاط تفاصيلها جزءا من النسيج الحى لحاضرنا .

فى هذه الرواية يصور الكاتب التيارات السياسية الأساسية بلغة طرائق الحياة والأعماق الشخصية والملامح الفردية ليقدم حضورا تاريخيا فريدا بعيدا عن الحتمية الغليظة .

وسوف يلاحظ القارىء أن محاولات الاكتشاف والغوص وراء الوقائع المسكوت عنها والإمكانيات المبددة كانت أهم من إصدار الأحكام بالتبرئة أو الإدانة .

هذه رواية ممتعة شديدة الحيوية تدفع القارىء إلى إعادة التفكير فيما تشكله جذور واقعنا وهويتنا .



جميل عطية إبراهيم

من مواليد الجيزة فى ٧ أغسطس ١٩٣٧ .

يكتب الرواية والقصة القصيرة ومن أهم أعماله: «الحداد يليق بالأصدقاء» و «طقوس الخريف» مجموعتان قصصيتان ، أما الروايات منها «أصيلا» و «البحر ليس بملآن» و «النزول إلى البحر» و «١٩٥٢» .

ينتمى إلى جيل الستينات .
أسهم فى تأسيس مجلة «جاليرى ٦٨» .
نشرت قصصه فى العديد من المجلات والصحف العربية .
يقيم فى سويسرا منذ عدة سنوات .
كتب عنه الناقد الراحل الدكتور عبدالمحسن طه بدر «إنه يمتلك موهبة اكتشاف الجديد وغير العادى فى العالم العادى المألوف» .